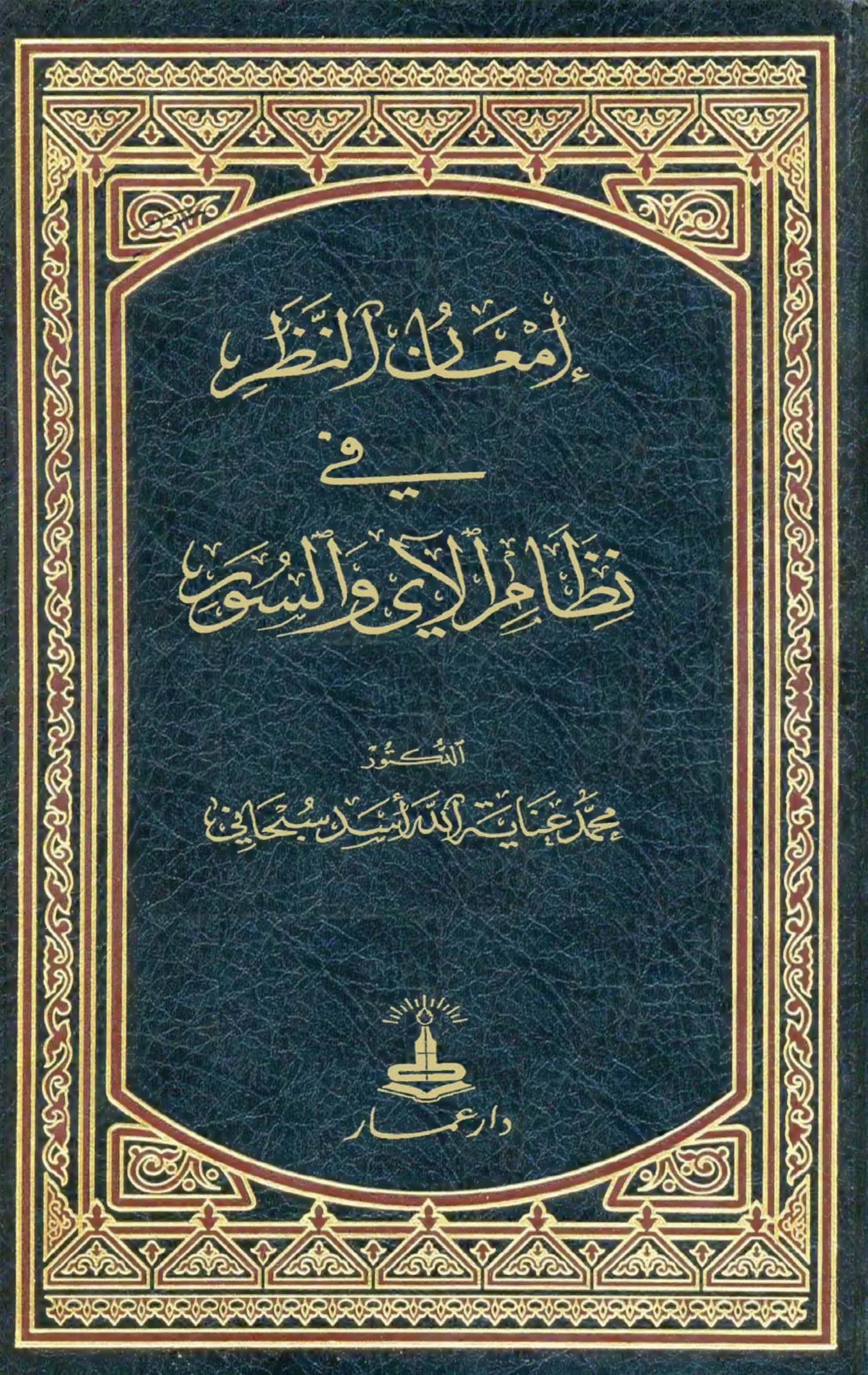

إمعان النظر
في
نظام الآي والسور
الدكتور
محمد عناية الله أسد سبحاني
دار عمار

# إمعان النظر
# في
# نظام الآي والسور

الدكتور
محمد عناية الله أسد سبحاني



دار عمار

بسم الله الرحمن الرحيم

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الجنة

# مقدمة

الحمدُ للّه الذي أنزل القرآن، هدى للناس وبيّنات من الهدى والفرقان، والصلاةُ والسلام على رسوله محمد سيد الأنام، المبعوث إليهم كافة بنور الوحي ودين الإسلام، وعلى آله وصحبه المجاهدين لرفع لواء القرآن، وعلى كلٍّ مَنْ تبعهم بإحسان، وتَمسَّكَ بالقرآن بإمعان وإتقان.

أما بعد:

فتلك رسالة أسميناها «إمعان النظر في نظام الآي والسور».

وكفى بهذا الاسم دلالةً على نوعية الرسالة وعلى محتوياتها وأهدافها. فقد أراد بها كاتبها أن يُجلّي للنّاس فكرةَ نظام الآيات ورباطها. ويلفتَ الأنظارَ إلى أهميتها وأبعادها. ويرشد إلى القواعد والمبادىء التي إذا التزم بها الباحث كان قَمِناً أن ينال مبتغاه من غير تعب ولا نَصَبٍ ولا كلال، وكان قمناً أن يبلغ غايته النبيلة السامية من نظام الآيات والسور وما أُودع فيه من علوم وحِكَم وعِبَر.

والذي حملني على تبنّي هذا الموضوع مع صعوبته ووعورة طريقه هو أنه مع خطورة شأنه وجلالة قدره وعظيم نفعه لم يَحْظَ بمعشار ما كان يستحقه من العناية والاهتمام؟ فمعظم المفسرين والكتّاب، الذين تصدّوا لتفسير القرآن، أهملوه إهمالاً ولم يلقوا إليه بالاً.

والقِلّة القليلة منهم، الذين خاضوا هذا البحر لم يحسنوا سباحته فإنهم وَلَجُوا فيه قبل أن يقدّروا الموقفَ، وقبل أن يعدُّوا له عُدَّته.

وظلّ الأمر هكذا حتى قيّض اللّه لخدمة هذا الموضوع مَنْ كان له كفواً. ألا وهو

الإمام الفراهي[1] فقد نهض ـ رحمه اللّه ـ لهذا العمل بعد ما أَعدَّ له عدّته وأخذ له أُهبته. فلم يدع خَلَّةً إلا سدَّها ولا ثلمةً إلا رمّها. فترى قواعده التي قَعَّدها، ومبادئه التي وضعها، وخطّته التي رسمها، وكتاباته التي دبّجها سلكى غير مخلوجة، لا يشوبها خلل ولا وهن ولا أمت ولا عوج.

يقول عنه الأستاذ العلامة السيد سليمان[2] الندوي:

«والأمر الذي فاق به الأقران، وسبق الذين برزوا لتفسير القرآن اعتناؤه بربط الآيات ونظام السور وترصيف الكلام، فهو السابقُ في هذا الرهان، سلك طريقاً غير معبّد، يظنه الجاهلُ غريباً، وما هو إلا سنّة أفاضل الصحابة وطريقة علماء التابعين، فكلّ ما قالوه ليس من طريق النقل بل أدّى إليه اجتهادهم وتدبرهم للآيات تدبُّرَ خاشعٍ للّه ومُبْتغٍ للحق ومُتَّبعٍ له»[3].

هذا هو الفراهي وتلك ميزته ومكانته، ميزة أية ميزة!! ومكانة أية مكانة!!

ولكن للّه في خلقه شئون. فلم يزد ـ رحمه اللّه ـ على خطوات في هذا المجال

---

(١) هو الإمام العلامة عبدالحميد الفراهي، ولد سنة ١٢٨٠هـ، في فريها ـ قرية من قرى الهند ـ وتوفي في التاسع عشر من جمادى الآخرة سنة ١٣٤٩هـ. وكان ـ رحمه اللّه ـ آية من آيات اللّه في تضلّعه من علوم القرآن. وكانت له نظرة نافذة عميقة في الأدب العربي القديم، كما كان له باع في اللغة العبرانية. فاطلع على التوراة والإنجيل والصحف الأخرى في لغتها، وأماط اللثام عن كثير من زيغ اليهود وتحريفاتهم في كتبهم.
وكان ـ رحمه اللّه ـ منقطعاً إلى تدبر القرآن ودراسته. وقضى فيه أكثر عمره. أراد أن ينشىء تفسيراً يبرز فيه مناسبات الآيات ونظام السور وأسماه «بنظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان» ولكنه لم يتيسر له إكمال هذا المشروع العظيم حتى وافته المنيّة. خلّف من آثار خاطره ذخيرة لا تفنى وعلوماً لا تبلى. وأكثرها بالعربية. (انظر ما كتبه عنه صديقه العلامة السيد سليمان الندوي في مقدمة كتابه القيم «إمعان في أقسام القرآن».

(٢) علم من أعلام الهند. وصاحب مؤلفات قيّمة. ومن أشهرها (سيرة النبيّ) في ستة مجلدات ضخام. وقد نال هذا الكتاب قبولاً حسناً بشكل عام، حتى طبع عدة مرات بعدد آلاف وآلاف. وقد توفي ـ رحمه اللّه ـ سنة ١٣٧٣هـ عن عمر يناهز الستين؟

(٣) مقدمة «فاتحة تفسير نظام القرآن» للإمام الفراهي. ص: ٢.

حتى طارت به أم قشعم وطرحته في مجاهل العدم.

فكان يتمنى كاتب هذه الكليمات لو تتاح له الفرصة حتى يضع لبنات في هذا البناء الذي رفع قواعده وهذا الإمام الهمام ـ رحمه اللّه ـ ولعلها كانت أمنية صادقة، فحظيت من اللّه بالقبول والاستجابة وسنحت له الفرصة حتى يحقّق بعض ما يتمناه.

فإنْ كان الكاتب موفّقاً في صنعته هذه، فبفضل اللّه ومنّته. وإن كان العكس فلا بأس بأن تعتبر صنعته تلك كحاجة في نفس يعقوب قضاها. ولعل اللّه يحدث بعد ذلك أمراً.

ويشتمل هذا البحث على فاتحة وأربعة أبواب وخاتمة.

فالفاتحة: نبّه فيها الكاتب على أهمية فكرة النظام، وبيّن أن الذي يريد أن يستوعب القرآن ويتضلع من علومه بدون رعاية النظام مَثلهُ كمثلِ راقي السطح بلا سلّم وأنّى له ذلك!

ثم يأتي الباب الأول: «النظام في القرآن وما قيل فيه من نفي وإثبات»، وهذا الباب يشتمل على فصلين:

١ ـ فصل في تعريف فكر النظام.

٢ ـ وفصل آخر يشتمل على تلك الآراء التي عثر عليها الكاتب بخصوص موضوع النظام، سواء كانت معه أو عليه.

واستخلص الكاتب من تلك الآراء أن فكرة النظام فكرة تضافرت عليها الأدلّة وأجمعت عليها الأمة. ومَنْ أنكرها لم ينكرها مرة واحدة وإنما أنكرها في بعض القرآن وأقرّها في بعض.

وإن شئت فقل، إنه أقرّها بمفهومها القاصر المحدود وأنكرها بمفهومها الواسع المطلوب، الذي يظهر به القرآن كله كأنه سلسلة من ذهب، متماسكة الحلقات آخذ بعضها بأعناق بعض.

ثم إنه لم يعتمد في إنكاره هذا على دليل قوي أو أساس متين. وإنما أنكرها لصعوبتها ووعورة طريقها، حيث أنه لم يهتد إلى تطبيقها ولم يوفّق لاستخراجها. ومثل

هذا الإنكار لا يخلّ بالإجماع.

ثم يأتي الباب الثاني: «شبهات حول النظام»:

وهذا الباب يشتمل على ثلاثة فصول. كل فصل يعالج شبهة من تلك الشبهات الرئيسية الثلاث التي أثيرت حول موضوع النظام، وينبّه على ما فيها من رقة وضعف.

ثم يأتي الباب الثالث: «مزايا تتبّع النظام»:

وهذا الباب يشتمل على أحد عشر فصلاً، كلّ فصل يتناول مزيّة من تلك المزايا التي تظهر لمن يتبنّى هذه الفكرة، وهي إحدى عشرة.

ولقد بيّنها الكاتب وفَصَّلها بالأمثلة، وأقام عليها أدلّة ساطعة مقنعة.

ثم يأتي الباب الرابع: «معالم في الطريق»:

وهذا الباب يشتمل على تسعة فصول. كل فصل يتناول واحداً من تلك المعالم، التي تقود الباحث إلى النظام، وهي تسعة.

ثم تجيء الخاتمة. والخاتمة عبارة عن أمنيّة الكاتب ورغبته العارمة في خدمة هذه الفكرة، وفي تغطية جوانبها المختلفة بحيث توضع لها أسسٌ ثابتة وقواعد محكمة، ثم تطبق هذه الفكرة على كل القرآن تطبيقاً دقيقاً واسعاً كاملاً، حتى يتسنى للدارس - إذا أراد - أن يتدبر آيات القرآن ويصل إلى نظامها الصحيح الدقيق، ويكتشف تلك الكنوز التي وضعها الله في النظام، بعيداً عن تلك التكلُّفات التي أساءت إلى سمعة تلك الفكرة وغضّت من قيمتها ونالت منها نيلاً عظيماً.

وكم أشكر الله على أن مَنَّ علي ويَسَّر لي إتمام هذا البحث العظيم، ووفقني لأن أُخصِّص جزءاً من أوقاتي لإمعان النظر في نظام الآي والسور، فقد كانت تلك الفترة - ولا شك - أحلى فترة وأعذبها في حياتي.

ويا ليتها دامت لي واستمرت، ودامت لي خيراتها وبركاتها!

هذا وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

* * * * *

# بين يدي البحث

يروى أن الإمام ابن المبارك ـ رحمه اللّه ـ كان يقول:

«مَثلُ الذي يطلب أمرَ دينه بلا إسنادٍ كمثلِ الذي يرتقي السطح بلا سلّم»[1].

وكذا الإمام الشافعي رحمه اللّه كان يقول:

«مثلُ الذي يطلب الحديث بلا إسناد كمثل حاطبِ ليل»[2]، وفي رواية: «الذي يطلبُ العلم بلا سندٍ كحاطب ليل يحمل حزمة حطب، وفيه أفعى وهو لا يدري»[3].

ويحلو لنا أن نقول:

مثل الذي يطلب فهمَ قرآنه بلا رعايةِ النظام كمثل الذي يرتقي السطحَ بلا سلم.

ويحلو لنا كذلك أن نقول:

الذي يطلب القرآن ولا يُعنى بسياقِ الكلام كحاطب ليل يحمل حزمة حطب وفيه أفعى وهو لا يدري.

ولعلّنا لن نتخطى الصدق ولن نتجاوز الصواب إذا قلنا ذلك، فإن ذلك هو الواقع. وهو من الوضوح بحيث لا يخفى إلا على مَنْ يَخفى عليه القمرُ الساطع.

أليست هذه الأسفار الضخام، التي أُلّفت في تفسير القرآن، تشهد بهذا الواقع؟

---

(١) شرف أصحاب الحديث / للخطيب البغدادي / ٤٢، فتح المغيث للسخاوي ٣ / ٤.

(٢) فتح المغيث للسخاوي ٣ / ٥.

(٣) فيض القدير ١ / ٤٣٣.

ولا بأس بأن ندع تلك الأسفار نفسها تنطق بحالها، حتى لا يقال، إنها دعوى بلا دليل وليست لها حجة ظاهرة.

**شواهد من كتب التفسير:**

يقول الإمام ابن جرير ـ رحمه الله ـ في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾ الآيات [ص: ٣٤].

«حدثنا بِشْر قال: ثنا يزيد قال: ثنا سعيد عن قتادة قوله: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾، قال: حدثنا قتادة أن سليمان أُمرَ ببناء بيت المقدس فقيل له: ابْنِه ولا يُسمع فيه صوتُ حديد. قال: فطلب ذلك فلم يقدر عليه. فقيل له: إن شيطاناً في البحر يقال له صخر شبه المارد. قال: فطلبه، وكانت عين في البحر يَرِدُها في كل سبعة أيام مرة، فنزح ماؤها وجُعلَ فيها خمرٌ، فجاء يوم وروده فإذا هو بالخمر فقال: إنك لشراب طيب إلا أنك تُصْبِينَ الحليم وتَزيدين الجاهلَ جهلاً. قال: ثم رجع حتى عطش عطشاً شديداً، ثم أتاها فقال: إنك لشراب طيب إلا أنك تصبين الحليم وتزيدين الجاهل جهلاً، قال: ثم شربها حتى غلبت على عقله. قال: فأري الخاتم أو ختم به بين كتفيه فذلّ.

قال: فكان مُلكه في خاتمه فأتى به سليمان. فقال: إنا قد أُمرنا ببناء هذا البيت وقيل لنا لا يسمعن فيه صوت حديد. قال: فأتى ببيض الهدهد فجعل عليه زجاجة فجاء الهدهد فدار حولها فجعل يرى بيضه ولا يقدر عليه، فذهب فجاء بألماس فوضعه عليه فقطعها به حتى أفضى إلى بيضه فأخذ ألماس فجعلوا يقطعون به الحجارة. فكان سليمان إذا أراد أن يدخل الخلاء أو الحمام لم يدخلها بخاتمه، فانطلق يوماً إلى الحمام وذلك الشيطان صخر معه وذلك عند مقارفة ذنب قارف فيه بعض نسائه. قال: فدخل الحمام وأعطى الشيطان خاتمه فألقاه في البحر فالتقمته سمكة ونزع ملك سليمان منه. وألقي على الشيطان شبه سليمان. قال: فجاء فقعد على كرسيه وسريره وسلّط على ملك سليمان كله غير نسائه.

قال: فجعل يقضي بينهم، وجعلوا ينكرون منه أشياء حتى قالوا: لقد فُتن نبيّ الله

وكان فيهم رجل يُشَبِّهونه بعمر بن الخطاب في القوة. فقال: واللّه لأجرّبنّه، قال: فقال له: يا نبيّ اللّه وهو لا يرى إلا أنه نبيُّ اللّه: أحدنا تُصيبهُ الجنابةُ في الليلة الباردة فيدع الغسل عمداً حتى تطلع الشمس، أترى عليه بأساً؟ قال: لا. قال: فبينا هو كذلك أربعين ليلة حتى وجد نبيُّ اللّه خاتمه في بطن سمكة فأقبل، فجعل لا يستقبله جنّي ولا طير إلا سجد له حتى انتهى إليهم، وألقينا على كرسيه جسداً. قال: هو الشيطان صخر.

حدثنا محمد بن الحسين قال: ثنا أحمد، قال: ثنا أسباط عن السدّي في قوله: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ﴾، قال: لقد ابتلينا وألقينا على كرسيّه جسداً. قال: الشيطان حين جلس على كرسيه أربعين يوماً. قال: كان لسليمان مائة امرأة، وكانت امرأة منهن يقال لها جرادة وهي آثرُ نسائهِ عنده وآمنهنّ عنده، وكان إذا أجنب أو أتى حاجة نزع خاتمه ولم يأتمن عليه أحداً من الناس غيرها فجاءته يوماً من الأيام. فقالت: إن أخي بينه وبين فلان خصومة وأنا أحب أن تقضي له إذا جاءك. فقال لها: نعم. ولم يفعل فابتُلِيَ وأعطاها خاتمه ودخل المخرج، فخرج الشيطان في صورته، فقال لها: هاتي الخاتم فأعطته فجاء حتى جلس على مجلس سليمان، وخرج سليمان بعد فسألها أن تعطيه خاتمه، فقالت: ألم تأخذه قبل؟ قال: لا. وخرج مكانه تائهاً، قال: ومكث الشيطان يحكم بين الناس أربعين يوماً، قال فأنكر الناس أحكامه فاجتمع قراء بني إسرائيل وعلماؤهم فجاءوا حتى دخلوا على نسائه، فقالوا: إنا قد أنكرنا هذا، فإنْ كان سليمان فقد ذهب عقله، وأنكرنا أحكامه. قال: فبكى النساء عند ذلك، قال: فأقبلوا يمشون حتى أتوه فأحدقوا به ثم نشروا التوراة فقرأوا. قال: فطار من بين أيديهم حتى وقع على شرفة والخاتم معه، ثم طار حتى ذهب إلى البحر فوقع الخاتم منه في البحر فابتلعه حوت من حيتان البحر. قال: وأقبل سليمان في حاله التي كان فيها حتى انتهى إلى صيّاد من صيّادي البحر، وهو جائع وقد اشتدّ جوعه، فاستطعمهم من صيدهم. قال: إني أنا سليمان، فقام إليه بعضهم فضربه بعصا شجّه، فجعل يغسل دمه وهو على شاطىء البحر فلاَمَ الصيادونَ صاحِبَهم الذي ضربه. فقالوا: بئس ما صنعتَ حيث ضربته. قال: إنه زعم أنه سليمان. قال: فأعطوه سمكتين مما قد مذر عندهم، ولم يشغله ما كان به من الضرر حتى قام إلى شط البحر فشق بطونهما، فجعل يغسل فوجد

خاتمه في بطن إحداهما فأخذه فلبسه فردّ اللّه عليه بهاءه وملكه، وجاءت الطيرُ حتى حامت عليه فعرف القومُ أنه سليمان، فقام القوم يعتذرون مما صنعوا، فقال: ما أحمدكم على عذركم ولا ألومكم على ما كان منكم. كان هذا الأمر لا بد منه، قال: فجاء حتى أتى ملكه فأرسل إلى الشيطان فَجِيءَ به، وسخر له الريح والشياطين يومئذ ولم تكن سُخِّرت له قبل ذلك وهو قوله: ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾، قال: وبعث إلى الشيطان فأتي به فأمر به فجعل في صندوق من حديد ثم أطبق عليه فأقفل عليه بقفل وختم عليه بخاتمه ثم أمر به فألقي في البحر فهو فيه حتى تقوم الساعة وكان اسمه حبقيق»[1].

لقد نقل الإمام ابن جرير في تأويل تلك الآيات مثل هذه الروايات. أو بعبارة أصح: مثل هذه الترّهات، ولم يعلّق عليها ولو بكلمة واحدة. مع أنها ـ بما فيها من علّة ونكارة ـ ليست بحيث تذكر أو تستساغ.

ثم يأتي بعده الإمام القرطبي وهو يذكر في تأويل تلك الآيات احتمالات عديدة، بعضها من بعض. يقول ـ رحمه اللّه ـ:

«قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ﴾ الآية». فتنّا أي: ابتلينا وعاقبنا. وسبب ذلك ما رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس. قال: اختصم إلى سليمان ـ عليه السلام ـ فريقان أحدهما من أهل جرادة امرأة سليمان، وكان يحبّها فهوى أن يقع القضاء لهم، ثم قضى بينهما بالحق. فأصابه الذي أصابه عقوبة لذلك الهوى. وقال سعيد بن المسيب: إن سليمان ـ عليه السلام ـ احتجب عن الناس ثلاثة أيام لا يقضي بين أحد، ولا ينصف مظلوماً من ظالم، فأوحى اللّه ـ تعالى ـ إليه: إنّي لم أستخلفك لتحتجب عن عبادي، ولكن لتقضي بينهم وتنصف مظلومهم. وقال شهر بن حوشب ووهب بن منبه: إن سليمان ـ عليه السلام ـ سبى بنت ملك، غزاه في البحر في جزيرة من جزائر البحر يقال لها صيدون، فألقيت عليه محبتها وهي تُعرِضُ عنه لا تنظر إليه إلا شزراً، ولا تكلمه إلا نزراً، وكان لا يرقأ لها دمع حزناً على أبيها وكانت في غاية من الجمال، ثم إنها سألته أن

---

(١) تفسير الطبري ٨/ ١٠١ ـ ١٠٢.

يصنع لها تمثالاً على صورة أبيها حتى تنظر إليه، فأمر، فَصنع لها، فعظَّمته وسجدت له، وسجدت معها جواريها، وصار صنماً معبوداً في داره وهو لا يعلم، حتى مضت أربعون ليلة، وفشا خبره في بني إسرائيل وعلم به سليمان فكسره، وحرّقه ثم ذرّاه في البحر. وقيل: إن سليمان لما أصاب ابنة ملك صيدون واسمها جرادة ـ فيما ذكر الزمخشري ـ أعجب بها، فعرض عليها الإسلام فأبت فخوّفها، فقالت: اقتلني ولا أسلم، فتزوجها وهي مشركة، فكانت تعبد صنماً لها من ياقوت أربعين يوماً في خِفْيَةٍ من سليمان، إلى أن أسلمت. فعوقب سليمان بزوال ملكه أربعين يوماً، وقال كعب الأحبار: إنه لما ظلم الخيل بالقتل سُلبَ ملكه. وقال الحسن: إنه قارب بعض نسائه في شيء من حيض أو غيره. وقيل: إنه أُمرَ ألا يتزوج امرأة إلا من بني إسرائيل فتزوج امرأة من غيرهم فَعُوقِبَ على ذلك، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا﴾، قيل: شيطان، في قول أكثر المفسرين، ألقى الله شبه سليمان ـ عليه السلام ـ عليه واسمه صخر بن عمير صاحب البحر. وهو الذي دلّ سليمان على ألماس حين أمر سليمان ببناء بيت المقدس، فصوتت الحجارة لما صنعت بالحديد، فأخذوا ألماس فجعلوا يقطعون به الحجارة والفصوص وغيرها ولا تصوت. قال ابن عباس: كان مارداً لا يقوى عليه جميع الشياطين. ولم يزل يحتال حتى ظفر بخاتم سليمان بن داود، وكان سليمان لا يدخلُ الكنيفَ بخاتمه، فجاء صخر في صورة سليمان حتى أخذ الخاتم من امرأةٍ من نساء سليمان أُمِّ ولدٍ له يقال لها الأمينة، قاله: شهر ووهب. وقال ابن عباس وابن جبير: اسمها جرادة فقام أربعين يوماً على مُلك سليمان، وسليمان هارب، حتى رد الله عليه الخاتم والملك.

وقال سعيد بن المسيب: كان سليمان قد وضع خاتمه تحت فراشه. فأخذه الشيطان من تحته. وقال مجاهد: أخذه الشيطان من يد سليمان، لأن سليمان سأل الشيطان وكان اسمه آصف: كيف تُضِلُّون الناسَ؟ فقال له الشيطان: أعطني خاتمك حتى أخبرك. فأعطاه خاتمه. فلما أخذ الشيطان الخاتم جلس على كرسيّ سليمان، متشبِّهاً بصورته، داخلاً على نسائه، يقضي بغير الحق ويأمر بغير

الصواب»[1].

تلك الروايات ذكرها الإمام القرطبي في تأويل تلك الآيات.

ثم يأتي بعدهما الإمام ابن كثير وهو أيضاً ينقل من الروايات مثلما نقلها الإمام ابن جرير إلا أنه يزيد فيقول وبذلك يضع النقاط على الحروف:

«إسناده إلى ابن عباس قويّ. ولكن الظاهر أنه إنما تلقاه ابن عباس، إنْ صحّ عنه، من أهل الكتاب، وفيهم طائفة لا يعتقدون نبوّة سليمان ـ عليه الصلاة والسلام ـ فالظاهر أنهم يكذبون عليه. ولهذا كان في هذا السياق مُنْكرات من أشدها ذكر النساء، فإن المشهور عن مجاهد وغير واحد من أئمة السلف أن ذلك الجنّي لم يسلّط على نساء سليمان بل عَصمهنّ اللّهُ ـ عز وجل ـ منه تشريفاً وتكريماً لنبيّه ـ عليه السلام ـ وقد رُويت هذه القصة مطوّلة عن جماعة من السلف ـ رضي اللّه عنهم ـ كسعيد بن المسيّب وزيد بن أسلم وجماعة آخرين. وكلها متلقاة من قصص أهل الكتاب. واللّهَ ـ سبحانه وتعالى ـ أعلم بالصواب»[2].

تلك العبارة واضحة صريحة في أنه ـ رحمه اللّه ـ غير مرتاح إلى تلك الروايات، وهو يحسبها من أكاذيب أهل الكتاب، إلا أنه مع هذا كله، يذكرها ويفسر بها الآيات، كأنه لا يجد له ملجأ منها إلا إليها!

**تقويم الوضع:**

هذا الوضع يصور لنا هؤلاء المفسرين ـ رحمهم اللّه ـ وكأنهم لا يحملون في أنفسهم صورة واضحة لمفهوم الآية. بل مثلهم في ذلك كمثل ناسٍ واقفين على مفترق الطرق. وهم لا يعرفون أيَّ طريقٍ يأخذون حتى يصلوا إلى مقصدهم.

فمنهم من يريح نفسه من عناء البحث عن الطريق الصحيح الموصل إلى مقصده ويعطي زمامه بيد رجل، من غير أن يتأكد من كفاءته للقيادة. وكان الرجلُ يُضمرُ له

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٥ / ١٩٨ ـ ٢٠٠.

(٢) تفسير ابن كثير ٤ / ٣٦.

شراً. فيسقط به على طريق يبعده كل البُعْدِ عن مقصده.

ومنهم من تَحيَّرَ في أمره، ولم يستبن الرشد من طريقه، فتارة يأخذ اليمين وأخرى يأخذ الشمال، ومرة يمشي مع هذا وأخرى مع ذاك. يقدّم رِجْلاً ويؤخر أخرى. وأنّى لشخص مثله أن يدرك الغاية!

ومنهم من يقدر خطورة الموقف، ولكن الطريق أمامه غير واضح، وليس معه دليل خِرّيت يكشف غمّته ويميل به إلى سواء السبيل. فهو أيضاً يعطي زمامه بيد رجل ويتبع أثره، مع أنه يعرف أن هذا الرجل غير موفق في قيادته. وأنه سيدخله في متاهات. فهو يُلازم الرجلَ على كُرْهٍ منه وامتعاض، لأنه هو نفسه لا يعرف الطريق. ولو أنه لم يبرح مكانه كان خيراً له من أن يتشبّث بذيل يبعده عن مقصده.

هذا هو مثل هؤلاء المفسرين بالترتيب. فابن جرير لم يتعب نفسه، في البحث عن التأويل الصحيح لتلك الآيات، أو البحث عن صحة الروايات التي اعتمد عليها في تأويلها، كأنه لم يتذكر ما قيل قديماً: «ما كُلُّ بيضاءَ شحمةٌ، وما كل سوداءَ تمرة»، فنظر إلى تلك الروايات بعين الاعتبار، ورضي بها تفسيراً لتلك الآيات مع أنها كانت من وضع الزنادقة الأعداء، فهي أبعدته كل البعد عن التأويل الصحيح المراد.

وأما الإمام القرطبي فهو متردد بين عدة روايات، ولا يدري أيتها يأخذ وأيتها يرفض فهو يسردها جميعاً، علماً بأنّها كلها بعيدة عن الصحة كل البعد، ولا تصلح لأن تذكر في حديث أو حوار فضلاً عن أنْ تُسَجَّلَ في كتب التفسير.

وأما الإمام ابن كثير فهو يدرك تماماً أن تلك الروايات جاءت عن طريق اليهود. وهو يصدع بذلك. ولكن مع ذلك يجد نفسه مضطراً إلى أن يعتمد عليها في تأويل الآيات، فإنه لا يملك عنها بديلاً.

وليس الأمر موقوفاً على هؤلاء الثلاثة. فبقية المفسرين أيضاً لا يختلف وضعهم عن وضع هؤلاء إلا من رحم ربك. حتى إن الأستاذ سيد قطب حين يصل في ظلاله إلى تلك الآيات يكون مضطراً إلى تسجيل تلك الكلمات:

«والإشارتان الواردتان هنا عن الصافنات الجياد وهي الخيل الكريمة. وعن

الجسد الذي ألقي على كرسي سليمان. . . كلتاهما إشارتان لم تَسترحْ نفسي لأيٍّ تفسيرٍ أو رواية مما احتوته التفاسير والروايات عنهما. فهي إما إسرائيليات منكرة، وإما تأويلات لا سند لها. ولم أستطع أن أتصور طبيعة الحادثين تصوراً يطمئن إليه قلبي، فأصوره هنا وأحكيه»[١].

هذا نموذج ذُكِرَ على سبيل المثال. ولا نريد أن نطيل وإلاّ فله إخوة وأخوات، يبلغ عددها إلى عشرات وعشرات.

والباحث إذا وقف على مثل تلك المواقف فهو يتعجب من هؤلاء المفسرين، ويستغرب أنهم كيف وقعوا في تلك المتاهات!

وربما يُغلظ لهم القولَ ويُنحي عليهم باللوائم.

ولكننا نقول: إن كل ما حدث لم يكن إلا حادثاً طبيعياً. ولم يكن منه بدّ. والذين وقعوا في تلك المتاهات لم يقعوا فيها عن رغبة ورضى وإنما وقعوا فيها، لأنهم لم يجدوا الطريق أمامهم واضحاً. فإن الموقف كان حالكاً جداً. وكان الطريق عاتماً حقاً.

فنحن نعذرهم ونعتذر عنهم. ثم نزيد فنقول:

إنهم ـ رحمهم الله ـ لو وضعوا أصابعهم على زرّ كهربائي، لم يكن بعيداً عنهم، فإنَّ حركة يسيرة كانت قد أوقدت أمامهم مصباحاً منيراً. وحينئذ وضحت أمامهم السبيل وطُوي عنهم بُعْدُ الطريق، وتبينت لهم تلك الآيات التي استغلقت عليهم.

فلعمري إن تلك الآيات، التي مضت معنا، والتي تحيّر فيها المفسرون وعجزوا دونها، لم تكن بذاك الإشكال، ولو أنهم وضعوا أصابعهم على ذلكم الزرّ الكهربائي. لكانوا أولى بالتوصل إلى تأويل صحيح يقرّ أعينهم ويثلج فؤادهم.

**زر كهربائي:**

فما هو ذلكم الزر الكهربائي يا ترى؟

---

(١) في ظلال القرآن ٧ / ٩٩.

إن ذلك الزر الكهربائي هو إمعانُ النظر في نظام السور ورعاية الرباط في معاني الآيات، فإن النظام هو الذي يعيّن سَمْتَ الكلام، ولا يدع أحداً يصرفه عن مجراه.

والنظام هو الذي ينفي عن كلام اللّه أهواء المبتدعين وانتحال المبطلين وزيغ المحرّفين حتى إننا نملك أن نمرّ على الروايات التفسيرية رواية رواية، وننقدها في ضوء نظام الآيات نقداً ونغربلها غربلة ونمحّصها تمحيصاً ونكشف عما دُسَّ فيها مهما خفي ودقّ مهما كان أرقّ من الشعر.

وسنعود إلى تلك الآيات وندرسها في ضوء نظامها ورباط معانيها في الفصل التاسع من الباب الثالث بإذن اللّه.

وبالجملة فالاهتمام بنظام الآيات يحفظ الباحث من الزيغ والانحراف في تأويل الآيات. ويجعله على بيّنةٍ من ربه ونورٍ من أمره. فلا يخدع بالباطل، وإن جاء في ثوب فاخر يُعجِبُ الخاطرَ ويُبهر الناظرَ، كما نرى الدكتور أحمد أمين ـ مثلاً ـ مخدوعاً بالروايات الموضوعة المكذوبة في التفسير مع علمه بأنها موضوعة مكذوبة. فهو يقول وبئس ما يقول:

### مقال خاطىء لأحمد أمين:

«على أن هذا التفسير الموضوع ـ والحق يقال ـ لا يخلو من قيمته العلمية، فلم يكن الوضع مجرد قول يُلْقى على عواهنه. إنما هو في كثير من الأحيان نتيجة اجتهاد علميّ قيّم. والشيء الذي لا قيمة له فقط هو إسناده إلى عليّ وابن عباس»[1].

### فلتة للشيخ الذهبي:

ومما يؤسف له أن هذه الفكرة لم تعد فكرة خاصة بالدكتور أحمد أمين بل وجدت لها أشياعاً وأتباعاً فتأثروا بفكرته الخاطئة. ثم ضمّوا أصواتهم إلى صوته، وطنطنوا بطنين مثله، بل بطنينٍ أرفع منه، فيقول ـ مثلاً ـ الدكتور محمد حسين الذهبي:

---

(١) فجر الإسلام للدكتور أحمد أمين ص: ٢٠٤.

«ثم إن هذا التفسير الموضوع، لو نظرنا إليه من ناحيته الذاتية، بصرف النظر عن ناحيته الإسنادية، لوجدنا أنه لا يخلو من قيمته العلمية، لأنه مهما كثر الوضع في التفسير فإن الوضع ينصبُّ على الرواية نفسها، أما التفسير في حدّ ذاته، فليس دائماً أمراً خيالياً بعيداً عن الآية. وإنما هو - في كثير من الأحيان - نتيجة اجتهاد علميّ له قيمته، فمثلاً من يضع في التفسير شيئاً وينسبه إلى عليّ أو إلى ابن عباس، لا يضعه على أنه مجرد قول يلقيه على عواهنه. وإنما هو رأي له واجتهاد منه في تفسير الآية، بناه على تفكيره الشخصي وكثيراً ما يكون صحيحاً. غاية الأمر أنه أراد لرأيه رواجاً وقبولاً فنسبه إلى مَنْ نسبه إليه من الصحابة. ثم إن هذا التفسير المنسوب إلى عليّ أو إلى ابن عباس لم يفقد شيئاً من قيمته العلمية غالباً. وإنما الشيء الذي لا قيمة له فيه هو نسبته إلى عليّ أو ابن عباس، فالموضوع من التفسير - والحق يقال - لم يكن مجرد خيال أو وهم خلق خلقاً، بل له أساسٌ ما يهمُّ الناظرَ في التفسير دَرْسُه وبحثه، وله قيمته الذاتية، وإن لم يكن له قيمته الإسنادية»[1].

هذا ما كتبه الشيخ الذهبي رحمه الله، فإلى الله المشتكى.

وإنْ تَعجبْ فعجبٌ قوله: إن هذه الروايات المكذوبة - التي وضعها أعداء القرآن وما وضعوها إلا لإطفاء نور القرآن - لها قيمتها العلمية!!! ولها قيمتها الذاتية!!!

هكذا يلتبس الحق بالباطل، إذا أراد الإنسان أن يخوض بحر التفسير غافلاً عن نظام الآيات ورباط معانيها.

وكم نتعجب لدهاء أعدائنا ولباقتهم إذ فطنوا لهذه الناحية فركّزوا اهتمامهم على تعمية نظام الآيات. وجاءوا بركامٍ من الروايات التي تفكك هذا النظام وتُقَطِّعهُ إرباً إرباً، حتى ينغلق على الناس فَهْمُ القرآن، وحتى يلتبس عليهم الأمر، ويصعب عليهم التمييز بين الحق والباطل.

---

(١) التفسير المفسرون للدكتور محمد حسين الذهبي: ١/ ١٦٤.

## لفتة موفقة للإمام الفراهي:

شمل اللّه الفراهي برحمته، وألبسه ثوب رضوانه، إذ انتبه لقيمة هذا العلم وأهمّيته فأشاد بذكره ونوّه بشرفه، حيث يقول:

«إنْ معرفة النظام من الضروريّات لعلماء الأمة، حتى يُعلِّموا الناس حسب ما فهموا، فإنهم إنْ لم يفهموه واختلفوا فيه كيف يرشدون الناس؟ بل يشتدّ ضرر قيادتهم لأنفسهم ولجميع المسلمين.

قد رأينا ذلك في أهل الكتاب فإنهم زاغوا عنه مع دعواهم بأنهم حافظوا عليه فكانوا كما قال اللّه ـ تعالى ـ فيهم:

﴿فلما زاغوا أزاغ اللّه قلوبهم﴾.

وكما قال المسيح ـ عليه السلام ـ في علماء اليهود: «العميان قادة العميان»، وقد نرى أنهم أقروا بذلك واشتغلوا بالعلوم التي هي وسائل إلى فهمه وأكثروا في تفسير الكتاب، ولم يتركوا من هذه العلوم ما ظنوه نافعاً لهذا المطلب الأسنى.

ومع ذلك تراهم مختلفين غاية الاختلاف. تكثر بهم الآراء.... فإنَّ فهمَ الكلام لا يمكن بدون معرفة النظام. وإنه لهو السبيل الوحيد إلى فهمه»[1].

ويقول ـ رحمه اللّه ـ:

«المعترفون بوجود التناسب جعلوا التناسب علماً شريفاً ولكن لم يجعلوه جزءاً عظيماً من مفهوم القرآن. ولذلك بقي متروكاً لإشكاله. وأما نحن فنقول: إن فهم القرآن محوّلٌ إليه. والوجوه الكثيرة في التأويل، وعدم الاعتماد على تأويلٍ صحيح إنما نشأ من عدم المعرفة بالنظام، فإنه هو المعتمد في صحيح التأويل ورفع الشكوك والحيرة»[2].

---

(١) دلائل النظام للإمام عبدالحميد الفراهي: ص ١٠.
(٢) دلائل النظام للإمام عبدالحميد الفراهي: ص ٧٥.

تلك كلمات سريعة عاجلة أردنا من خلالها أن نُقَرِّبَ إلى الأذهان موضوع فكرة النظام وأردنا أن ننبّه على قيمتها وأهميّتها من ناحية فهم القرآن.

والآن نريد أن ندخل في صلب الموضوع بعد ما كنا نحوم حوله. ونودّ أن نغطّي جوانبه ونرسم معالمه بعد أن أدركنا فضله واتضح لنا شرفه. سائلين اللّه ـ عز وجل ـ أن يرزقنا التوفيق والسداد ويحفظنا من الهيمان في كل واد، أو تأويل الآيات بغير ما أراد.

*****

# الباب الأول
# النظام في القرآن وما قيل فيه من نفي وإثبات

ما هو النظام؟

النظام في القرآن.

الرباط والمناسبة.

أقوال العلماء واتجاهاتهم في موضوع النظام.

# الفصل الأول
## ما هو النظام؟

قال الفيروز أبادي:

«النظم: التأليف وضم شيء إلى شيء آخر. ونَظَمَ اللؤلؤ ينظمه نَظْماً ونظاماً، ونظّمه: ألّفه وجمعه في سلك، فانتظم وتنظم، والنظام: كل خيطٍ يُنظم به لؤلؤ ونحوه جمع نظم»[1].

ومنه قول لبيد:

وتُضيءُ في وجه الظلام منيرةً | كجمانةِ البحري سلّ نظامها[2]

وقالت الخنساء ترثي أخاها صخراً:

ألا ما لعينيك لا تهجع | تُبكّي لو أن البكا ينفع
كأنّ جماناً هوى مرسلاً | دموعهما أوهما أسرع
تحدّر وانبتّ منه النظام | فانسلّ من سلكهِ أجمع[3]

---

(١) القاموس المحيط مادة: ن ـ ظ ـ م.

(٢) جمهرة أشعار العرب ص: ١٣٣. تضيء: يعني بقرة وحشية، افترس السبع ولدها، فهي تطوف وراءها في حيرة وتبحث عنها. منيرة: مضيئة. نظامها: سلكها. شبه البقرة في قلقها ولمعانها في وجه الظلام بالجمانة التي سلّ سلكها فطفقت تتحدّر وتنتثر. وتلك من التشبيهات التي يُؤخَذُ الإنسان بروعتها ولا يكاد يصفها.

(٣) ديوان الخنساء ٩٢. بكّى الميت: بكاه ورثاه. الجمان: اللؤلؤ. انبتّ: انقطع. تحدّر: نزل. =

## النظام في القرآن:

هذا هو النظام ومدلوله في لغة العرب. ويقرب منه النظام في مصطلح علماء القرآن، فإنهم يقصدون به ارتباط آي القرآن بعضها ببعض، حتى تكون كالكلمة الواحدة، مُتَّسقة المعاني، منتظمة المباني[1].

فإن السورة مهما تعددت قضاياها فهي كلام واحد، يتعلق آخره بأوله وأوله بآخره، ويترامى بجملته إلى غرض واحد، كما تتعلق الجمل بعضها ببعض في القضية الواحدة. وإنه لا غِنى لمتفهِّم نظمِ السورة عن استيفاء النظر في جميعها كما لا غنى عن ذلك في أجزاء القضية[2].

ويزيده الإمام الفراهي إيضاحاً فيقول:

«مرادنا بالنظام أن تكون السورة وحدة متكاملة. ثم تكون ذات مناسبة بالسورة السابقة واللاحقة أو بالتي قبلها أو بعدها على بُعدٍ مّا[3] كما قدمنا في نظم الآيات بعضها مع بعض، فكما أن الآيات ربما تكون كالجمل المعترضة، فكذلك السور قد تكون كالجمل المعترضة، وعلى هذا الأصل ترى القرآن كله كلاماً واحداً ذا مناسبة وترتيب في أجزائه من الأول إلى الآخر.

وإذا ظهر النظام في القرآن، فلا بد أن تظهر لكل سورة صورة مُشَخَّصة، فإن

---

= أي ما لعينيك! فأنت لا تنامين وتجهدين في البكاء، مع أن البكاء لا يجدي شيئاً ولا يردّ فائتاً، ويااليته فعل! ثم تصف بكاءها فتقول: تجري بدموع العينين، وهي تشبه في ترقرقها وسرعة انحدارها جماناً انقطع سلكه فهوى مرسلاً؛ بل عيناها ـ في سكبهما الدموع ـ أسرع من ذاك الجمان في هويّه!

(١) انظر البرهان في علوم القرآن ١ / ٣٦.

(٢) انظر الموافقات للإمام الشاطبي ٣ / ٤١٣. والنبأ العظيم للشيخ دراز / ١٥٩.

(٣) يريد الفراهي بقوله أن السورة تكون مرتبطة بأيّة سورة بعدها أو قبلها ولا يشترط أن تكون مرتبطة بما قبلها أو بعدها مباشرة.

معاني الكلام إذا ارتبط بعضها ببعض وجرت إلى عمود واحد، وكان الكلام ذا وحدانية فحينئذ لا يكون إلا وله صورة مشخّصة. فإذا نظرت إلى الكلام من هذه الجهة رأيت ما فيه من الجمال والإتقان والوضوح»[١].

**الرباط والمناسبة:**

هذا هو مفهوم النظام في القرآن. وقد يسمّيه العلماء «الرباط» أو «المناسبة». وهذا خلافٌ في اللفظ والمعنى واحدٌ، فإن الرباط ما رُبِطَ له[٢] كما أن النظام ما ينظم به. وكذلك المناسبة تعني المشاكلة وهي مأخوذة من النسب، وهو القرابة[٣].

قال الإمام الزركشي ـ رحمه الله ـ:

«المناسبة في اللغة: المُقاربةُ. وفلان يناسب فلاناً، أي يقرب منه ويشاكله، ومنه النسيب، الذي هو القريبُ المتصل، كالأخوين وابن العم ونحوه. وإن كانا متناسبين بمعنى رابطٍ بينهما، وهو القرابة. ومنه المناسبة في العلة في باب القياس: الوصفُ المقاربُ للحكم، لأنه إذا حصلت مقاربته له ظُنَّ عند وجود ذلك الوصف وجودُ الحكم، ولهذا قيل: المناسبة أمر معقول إذا عُرِضَ على العقول تَلَقَّته بالقبول. وكذلك المناسبة في فواتح الآي وخواتمها، ومرجعها ـ والله أعلم ـ إلى معنى ما رابطٍ بينهما: عام أو خاص، عقلي أو حسّي أو خيالي وغير ذلك من أنواع العلاقات. أو التلازم الذهني، كالسبب والمسبب، والعلة والمعلول، والنظيرين والضدين، ونحوه أو التلازم الخارجي كالمرتب على ترتيب الوجود الواقع في باب الخبر.

وفائدته جعلُ أجزاء الكلام بعضها آخذاً بأعناق بعض، فيقوى بذلك الارتباط ويصير التأليف حاله البناء المحكم، المتلائم الأجزاء»[٤].

---

(١) دلائل النظام ص ٧٥، مع تصرف يسير في بعض الكلمات بقصد الإيضاح.
(٢) القاموس المحيط ٢ / ٣٧٤.
(٣) القاموس المحيط ١ / ١٣٦ ـ ١٣٧.
(٤) البرهان في علوم القرآن ١ / ٣٥ ـ ٣٦.

وبذلك يظهر أن النظام والرباط والمناسبة شيء واحد، والكل يدل على معنى متقارب. وقبل أن نطرق جوانب أخرى من الموضوع نود أن نستعرض أقوال العلماء، ونطّلع على مواقف المفسرين واتجاهاتهم في ذلك.

* * * * *

# الفصل الثاني
# أقوال العلماء واتجاهاتهم في موضوع النظام

### مسلم بن يسار:

روي عن مسلم بن يسار ـ رحمه اللّه ـ أنه قال:

«إذا حدثتَ عن اللّه حديثاً فَقِفْ حتى تنظرَ ما قبله وما بعده»[1]

### أبو بكر النيسابوريّ (ت: ٣٢٤هـ):

وقال الشيخ أبو الحسن الشهراباني:

«أول من أظهر ببغداد علم المناسبة، ولم نكن سمعناه من غيره هو الشيخ الإمام أبو بكر النيسابوري[2]، وكان غزير العلم في الشريعة والأدب. وكان يقول على الكرسي إذا قرىء عليه الآية: لم جعلت هذه الآية إلى جنب هذه؟ وما الحكمة في جعل هذه السورة إلى جنب هذه السورة. وكان يُزري على علماء بغداد لعدم علمهم بالمناسبة»[3].

---

(١) عمدة التفسير لابن كثير ١ / ٤٨.

(٢) هو الحافظ أبو بكر عبداللّه بن زياد بن واصل النيسابوري الفقيه الشافعي، قال عنه الحاكم: كان إمام عصره من الشافعية بالعراق. وقال عنه الدارقطني: إنه أفقه المشايخ وإنه لم يرمثله. (شذرات الذهب ٢ / ٣٠٢، تذكرة الحفاظ ٣ / ٨١٩، كشف الظنون ص ١٦٣٦ هدية العارفين ١ / ٤٤٥).

(٣) البرهان في علوم القرآن ١ / ٣٦.

**العلامة الزمخشري:**

وقال العلامة الزمخشري (ت: ٥٣٨هـ) في فاتحة تفسيره:

«الحمد للّه الذي أنزل القرآن كلاماً مؤلفاً منظماً، ونَزَّلَهُ بحسبِ المصالح مُنَجَّماً، وجعله بالتحميدُ مفتتحاً وبالاستعاذة مُختتماً»[١].

**أبو بكر بن العربي:**

وقال القاضي أبو بكر بن العربي (ت: ٥٤٣هـ):

ارتباط آي القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة، متسقة المعاني، منتظمة المباني، علمٌ عظيم، لم يتعرض له إلا عالم واحد، عمل فيه سورة البقرة ثم فتح اللّه ـ عز وجل ـ لنا فيه. فلما لم نجد له حَمَلة، ورأينا الخلق بأوصاف البطلة، ختمنا عليه، وجعلناه بيننا وبين اللّه ورددناه إليه»[٢].

**الإمام الرازي:**

وقال الإمام الرازي (ت: ٦٠٦هـ):

«إن أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط»[٣].

وقال ـ رحمه اللّه ـ في تفسير قوله: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥] الآية.

«ومَنْ تأمل في لطائف نظم هذه السورة وفي بدائع ترتيبها، علم أن القرآن كما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه، فهو أيضاً بسبب ترتيبه ونظم آياته، ولعل الذين قالوا: إنه معجز بحسب أسلوبه أرادوا ذلك. إلا أني رأيت جمهور المفسرين معرضين عن هذه اللطائف، غير متنبهين لهذه الأسرار، وليس الأمر في هذا الباب إلا

---

(١) الكشاف عن حقائق التنزيل ١ / ٣ ـ ٥.
(٢) البرهان في علوم القرآن ١ / ٣٦.
(٣) البرهان في علوم القرآن ١ / ٣٦.

كما قيل:

والنجمُ تستصغر الأبصارُ صورته    فالذنبُ للطرفِ لا للنجم في الصِّغرِ[1]

وقال ـ رحمه الله ـ في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ﴾ [فصلت: ٤٤] الآية.

«نقلوا في سبب نزول هذه الآية أن الكفار لأجل التعنت قالوا: لولا نُزِّلَ القرآنُ بلغة العجم، فنزلت هذه الآية. وعندي أن أمثال هذه الكلمات فيها حَيْفٌ عظيم على القرآن، لأنه يقتضي ورود آيات لا تَعلُّقَ للبعض فيها بالبعض. وإنه يوجب أعظمَ أنواع الطعن. فكيف يتم مع التزام مثل هذا الطعن ادعاء كونه كتاباً منظماً فضلاً عن ادعاء كونه معجزاً؟ بل الحق عندي أن هذه السورة من أولها إلى آخرها كلام واحد».

وأفاض القول في تفسير السورة ثم قال:

«كل من أنصف ولم يتعسف علم أنّا إذا فسرنا هذه الآية على الوجه الذي ذكرناه صارت هذه السورة من أولها إلى آخرها كلاماً واحداً منتظماً مَسُوقاً نحو غرضٍ واحد فيكون هذا التفسير أولى مما ذكروه»[2].

**الشيخ الزملكاني:**

وقال الشيخ كمال الدين الزملكاني (ت: ٧٢٧هـ) في بعض دروسه بعد ما ذكر مناسبة استفتاح سورة الإسراء بالتسبيح وسورة الكهف بالتحميد، قال:

«وإذا ثبت هذا بالنسبة إلى السور، فما ظنك بالآيات وتَعلُّقِ بعضها ببعض! بل عند التأمل يظهر أنّ القرآن كله كالكلمة الواحدة»[3].

---

(١) التفسير الكبير ٧ / ١٢٨.
(٢) التفسير الكبير ٢٧ / ١٣٣.
(٣) البرهان في علوم القرآن ١ / ٣٩.

**ولي الله الملوي:**

وقال الإمام الزركشي: قال بعض مشائخنا[1] المحققين:

«قد وَهِمَ مَنْ قال: لا يُطلَبُ للآي الكريمة مناسبة، لأنها على حسب الوقائع المتفرقة. وفصلُ الخطاب أنها على حسب الوقائع تنزيلاً وعلى حسب الحكمة ترتيباً، فالمصحف كالصحف الكريمة على وفق ما في الكتاب المكنون، مرتبة سُورهُ كلها وآياته بالتوقيف.

وحافظُ القرآن العظيم لو استُفتي في أحكام متعددة أو ناظر فيها، أو أملاها لذكرَ آية كل حكم على ما سئل. وإذا رجع إلى التلاوة لم يتل كما أفتى، ولا كما نزل مفرقاً، بل كما أُنزلَ جملة إلى بيت العزة. ومن المعجز البين أسلوبهُ ونظمه الباهر فإنه ﴿كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير﴾.

قال: «والذي ينبغي في كل آية أن يبحث أول كل شيء عن كونها مكملة لما قبلها، أو مستقلة، ثم المستقلة ما وجه مناسبتها لما قبلها؟ ففي ذلك علمٌ جَمٌّ. وهكذا في السور يطلبُ وجه اتصالها بما قبلها وما سِيقَتْ له»[2].

**الإمام ابن القيم:**

وقال الإمام ابن القيم (ت: ٧٥١هـ):

«وأما السبك فهو أن تتعلق كلمات البيت أو الرسالة أو الخطبة بعضها ببعض من أوله إلى آخره. ولهذا قيل: خير الكلام المسبوك المحبوك، الذي يأخذُ بعضُه برقابِ بعض. والقرآنُ العظيم آياته كلها كذلك فاعرفه»[3].

---

(١) هو العارف ولي الله محمد بن أحمد الملوي المنفلوطي الشافعي. ذكر ذلك في كلام مفرد على قوله ـ تعالى ـ: ﴿وهو الذي جعلكم خلائف الأرض﴾، وعلى قوله ـ تعالى ـ ﴿ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا في الأرض﴾. (انظر نظم الدرر للإمام البقاعي: ١ / ٨ ـ ٩).

(٢) البرهان في علوم القرآن ١ / ٣٧.

(٣) كتاب الفوائد ص: ٢٢٤.

### الإمام الشاطبي:

وقال الإمام الشاطبي[1](ت: ٧٩٠هـ):

«فاعتبارُ جهةِ النظم مثلاً في السورة لا يتم به فائدة إلا بعد استيفاء جميعها بالنظر، فالاقتصار على بعضها فيه غير مفيد غاية المقصود، كما أن الاقتصار على بعضِ الآية في استفادةِ حكمٍ ما لا يفيدُ إلا بعد كمالِ النظر في جميعها.

فسورة البقرة ـ مثلاً ـ كلام واحد باعتبار النظم، واحتوت على أنواع من الكلام بحسب ما بُثَّ فيها، منها ما هو كالمقدماتِ والتمهيدات بين يدي الأمر المطلوب، ومنها ما هو كالمؤكّد والمتمم، ومنها ما هو المقصود في الإنزال. وذلك تقدير الأحكام على تفاصيل الأبواب، ومنها الخواتم العائدة على ماقبلها بالتأكيد والتثبيت وما أشبه ذلك»[2].

وقال ـ رحمه الله ـ:

«وهل للقرآن مأخذٌ في النظرِ على أن جميع سوره كلام واحد؟....

ثم قال: «فيصحُّ في الاعتبار أن يكون واحداً بالمعنى المتقدم أي يتوقفُ فهمُ بعضِهِ على بعض بوجهٍ ما، وذلك أنه يبين بعضه بعضاً، حتى إن كثيراً منه لا يُفهم معناه حق الفهم إلا بتفسير موضع آخر أو سورة أخرى. ولأن كلَّ منصوصٍ عليه فيه من أنواع الضروريات ـ مثلاً ـ مُقَيّدٌ بالحاجيات. فإذا كان كذلك فبعضه متوقف على البعض في الفهم. فلا محالة أن ما هو كذلك فكلام واحد، فالقرآن كله كلام واحد بهذا الاعتبار»[3].

---

(١) هو الإمام المجتهد الأصولي النظّار أبو إسحاق إبراهيم بن موسى اللخمي، الغرناطي المعروف بالشاطبي. ويجدر بالذكر عنه قول صاحب تفسير المنار: (العلماء المستقلون في هذه الأمة ثُلَّةٌ من الأولين وقليلٌ من الآخرين، والإمام الشاطبي من هؤلاء القليل) (انظر: الاعتصام ص٣ ج١).

(٢) الموافقات في أصول الشريعة ٣ / ٢٧٩ ـ ٢٨٠. المسألة الثالثة عشرة.

(٣) الموافقات في أصول الشريعة ٣ / ٢٨٤. المسألة الثالثة عشرة.

**الإمام الزركشي:**

ليكن مَحطَّ نظر المفسر مراعاةُ نظم الكلام الذي سيق له، وإنْ خالف أصلَ الوضع اللغوي لثبوت التجوز، ولهذا ترى صاحب «الكشاف» يجعل الذي سيق له الكلام معتمداً، حتى كأن غيره مطروح»[1].

**الإمام البقاعي:**

وقال الإمام البقاعي[2](ت: ٨٨٥هـ):

« . . . . . فعلمُ مناسبات القرآن علمٌ تُعرف منه عللُ ترتيبِ أجزائه، وهو سر البلاغة لأدائه إلى تحقيق مطابقة المعاني لما اقتضاه من الحال. . . فلذلك كان هذا العلم في غاية النفاسة. وكانت نسبتهُ من علم التفسير نسبةَ علمِ البيان من النحو.

وقال ـ رحمه اللّه ـ:

المقصود بالترتيب معان جليلة الوصف، بديعة الرصف، عالية الأمر، عظيمة القدر، مباعدة لمعاني الكلام على أنها منها أُخذت، فسبحان مَنْ أنزله وأحكمه وفصّله وغطّاه وجلاّه وبيَّنَهُ غاية البيان وأخفاه.

وبذلك أيضاً يوقف على الحق من معاني آياتٍ حارَ فيها المفسرون لتضييع هذا الباب من غير ارتياب.

وقال ـ رحمه اللّه ـ:

وبه يتبيّنُ لك أسرار القصص المكرَّرات، وأن كل سورة أُعيدت فيها قصة فالمعنى أدعى في تلك السورة، استُدلَّ عليه بتلك القصة، غير المعنى الذي سيقت له

---

(١) البرهان في علوم القرآن ١ / ٣١٧.

(٢) هو الإمام برهان الدين إبراهيم بن عمر البقاعي الشافعي، المحدث المفسر الأديب المؤرخ. وله تفسير كبير أسماه (نظم الدرر) يقول عنه صاحب كشف الظنون: (هو كتاب لم يسبقه إليه أحد، جمع فيه من أسرار القرآن ما تتحير منه العقول... أتقن فيه المناسبات وأوضح المعاني المشكلات) (كشف الظنون ص ١٩٦١ ـ ١٩٦٢).

في السورة السابقة.

ومن هنا اختلفت الألفاظ بحسب تلك الأغراض وتغيرت النظوم بالتأخير والتقديم والإيجاز والتطويل، مع أنها لا يخالفُ شيءٌ من ذلك أصلَ المعنى الذي تكونت به القصة. وعلى قدر غموض تلك المناسبات بانَ وضوحُها بعد انكشافها»[1].

**الإمام عبدالحميد الفراهي:**

وقال الإمام عبدالحميد الفراهي (ت: ١٣٤٩هـ):

«إني رأيت جُلَّ اختلافِ الآراء في التأويل من عدم التزام رباط الآيات، فإنه لو ظهر النظام واستبان لنا عمودُ الكلام لجمعنا تحت راية واحدة وكلمة سواء ﴿كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء﴾، وجعلنا معتصمين بحبلِ كتابهِ كما قال: ﴿واعتصموا بحبل اللّه جميعاً ولا تفرقوا﴾، وكيف الخلاصُ من التفرق الأصلي وقد جعلوا هذا الحبل أشتاتاً في ظنونهم وهو بحمد اللّه متين ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾، فيؤوِّلُه كلُّ فريقٍ حسب ظنه ويحرف طريقَ الكلام عن سمته، وبالنظام يتبين سمتُ الكلام، فينفي عن آياتِ اللّه أهواء المبتدعين وانتحَال المبطلين وزيغ المحرفين ﴿الذين يحرفون الكلم عن مواضعه﴾، والذين يقلعون كلام اللّه عما بين يديه وما خلفه ويضمون إليه ما يعجب هوى نفوسهم».

وقال ـ رحمه اللّه ـ:

«إنه لا يخفى أن نظم الكلام جزء منه، فإنْ تركته ذهب بعض معناه، فإن للتركيب معنى زائداً على معنى الأجزاء. فلا شك أن من حُرِمَ فهمَ النظام فقد حرم حظاً وافراً من معنى الكلام. ويوشك أن يشبه حالُه حالَ من قبله من أهل الكتاب كما أخبر اللّه تعالى عنهم: ﴿فنسوا حظاً مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة﴾، وأخاف أن تكون هذه العداوة والبغضاء، التي تراها في المسلمين، من هذا النسيان، فلا تهدأ عداوتهم ولا يرجعون عن اختلافهم. وسبب ذلك ما ذكرنا في الأمر الأول،

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ١/ ٦، ١٢، ١٣، ١٤.

لأنا إذا اختلفنا في معاني كلامه اختلفت أهواؤنا وصرنا مثلَ أهلِ الكتاب. غير أن رجاءهم كان معقوداً بهذا النبي، وهذا القرآن الذي يرفع اختلافهم. وأما نحن فليس لنا إلا هذا الكتاب المحفوظ»[1].

**العلامة الدكتور دراز:**

ويقول العلامة الدكتور محمد عبدالله دراز (ت: ١٩٥٨م):

أجل، إنك لتقرأُ السورةَ الطويلة المنجَّمة، يحسبها الجاهل أضغاثاً من المعاني حُشيت حشواً، وأوزاعاً من المباني جُمعت عفواً، فإذا هي لو تدبرتَ بُنيةٌ متماسكة قد بُنيت من المقاصد الكلية على أسسٍ وأصول، وأُقيمَ على كل أصل منها شعبة وفصول، وامتد من كل شعبةٍ منها فروع تقصر أو تطول. فلا تزال تنتقل بين أجزائها كما تنتقل بين حجراتٍ وأفنية في بنيان واحد قد وُضِعَ رسمهُ مرة واحدة: لا تُحِسُّ بشيء من تَناكرِ الأوضاع في التقسيم والتنسيق، ولا بشيء من الانفصال في الخروج من طريق إلى طريق، بل ترى بين الأجناس المختلفة تمام الألفة، كما ترى بين آحاد الجنس الواحد نهاية التضام والالتحام. كل ذلك بغير تكلّف ولا استعانة بأمر من خارج المعاني أنفسها، وإنما هو حُسنُ السياقةِ ولطف التمهيد في مطلعِ كل غرض ومقطعه وأثنائه، يُريكَ المنفصلَ متصلاً والمختلفَ مؤتلفاً.

ولماذا نقول إن هذه المعاني تَنتسقُ في السورة كما تنتسق الحجرات في البنيان؟ لا، بل إنها لتلتحمُ فيها كما تلتحمُ الأعضاء في جسم الإنسان: فبين كل قطعة وجارتها رباط موضعي من أنفسهما، كما يلتقي العظمان عند المفصل ومن فوقهما تمتد شبكةٌ من الوشائج تحيط بهما عن كثب، كما يشتبك العضوان بالشرايين والعروق والأعصاب. ومن وراء ذلك كله يسري في جملة السورة اتجاهٌ معين. وتؤدي بمجموعها غرضاً خاصاً، كما يأخذ الجسم قواماً واحداً ويتعاون بجملته على أداء غرض واحد مع اختلاف وظائفه العضوية»[2].

---

(١) فاتحة تفسير نظام القرآن للإمام الفراهي ص: ٣ ـ ٤.

(٢) النبأ العظيم ص: ١٥٥.

**الإمام سيد قطب:**

ويقول الإمام سيد قطب (ت: ١٩٦٦م) في تقديم سورة التوبة:

«وهذه الرواية[١] أقرب الروايات إلى تقديم تفسيرٍ مقبول لوضع السورتين هكذا، وعدمِ الفصلِ بينهما بسطر «بسم اللّه الرحمن الرحيم»، كما أنها تفيدنا في تقرير أن وضع الآيات في السور، وترتيبها في مواضعها كان يتم بأمرِ رسولِ اللّه ـ ﷺ ـ في حياته. وأن سوراً متعددة كانت تظل مفتوحة في الوقت الواحد، فإذا نزلت آية أو آيات في مناسبة واقعة تواجه واقعاً قائماً، أو تكمل حكماً أو تعدله، وفق المنهج الحركي الواقعي لهذا الدين، أمر رسول اللّه ـ ﷺ ـ أن تُوضعَ في موضعها من سورتها... وبذلك كانت هناك حكمةٌ معينة في أن تتضمن كل سورة ما تَضمَّنتهُ من الآيات، وحكمة معينة كذلك في ترتيبها في مواضعها من السورة.

ولقد لاحظنا ـ كما أثبتنا ذلك مراراً في التعريف بالسور ـ أن هناك شخصية خاصة لكل سورة، وسمات معينة تُحدِّدُ ملامحَ هذه الشخصية. كما أن هناك جواً معيناً وظلالاً معينة. ثم تعبيرات بعينها في السورة الواحدة، تؤكد هذه الملامح وتبرز تلك الشخصية! ولعل في الفقرة السابقة، وفي حديث ابن عباس قبلها، ما يفسر هذه الظاهرة الواضحة التي أثبتناها مراراً في التعريف بالسور في هذه الظلال»[٢].

تلك النصوص إن دلت على شيء فإنما تدل على أن فكرةَ النظام ليست فكرة غريبة ولا نادرة ولا شاذة وإنما هي فكرةٌ أصيلة وقضية مسلمة بين علماء الأمة وأعلامها.

ولا غرو فإن حُسْنَ الترتيب وجمال التناسق من أعظم محاسن الكلام. وهو الفارق بين كلام العقلاء وكلام المجانين، ولقد صدق من قال:

---

(١) أي رواية الترمذي ـ بإسناده ـ عن ابن عباس قال: «قلت لعثمان بن عفان ما حملكم أن عمدتم إلى الأنفال» الخ.

(٢) في ظلال القرآن ٤ / ١١١ ـ ١١٢.

«من محاسنِ الكلام أن يرتبطَ بعضُه ببعض لئلا يكون منقطعاً»[1].

فإذا كان من محاسن الكلام ـ على العموم ـ أن يكون بعضه مرتبطاً ببعض فما ظنك بالقرآن، الذي حوى جميعَ محاسن الكلام، وكان قمةً عالية لا تُطالُ في الفصاحة والبلاغة وجودة البيان؟

ولذلك فلا عجب أن كان علماء الأمة وأعلامها مجمعين على أن هذا القرآن يَتَّسمُ بحسن الترتيب وجمال التناسق ورصانة النظام، بصرف النظر عما يوجد بينهم من فارق كبير في مجال تطبيقه، فإنه لم يتيسر لكل واحد منهم أن يتبنّاه ويطبّقه عملياً أو يبرزه للناس على وجهه الصحيح القويم. فكانوا درجات بعضها فوق بعض. إلا أننا نجدهم طُرّاً يحملون فكرة واحدة. ونجدهم جميعاً ينوّهون بشأنها وشرفها وجلالة قدرها.

**موقف الإمام الشوكاني:**

قد يقال: كيف تَصحُ دعوى الإجماع على فكرة النظام مع أن الإمام الشوكاني يرفضها رفضاً باتّاً، وينعى على الذين يحملونها وينوهون بشأنها؟

فهل يقال: إنه كان من أنصار هذه الفكرة مع أنه سجل في شأنهم تلك العبارة القاسية اللاذعة؟ حيث يقول:

«اعلمْ أن كثيراً من المفسرين جاءوا بعلم متكلَّفٍ، وخاضوا في بحرٍ لم يكلفوا سباحته، واستغرقوا أوقاتَهم في فنّ لا يعود عليهم بفائدة. بل أوقعوا أنفسهم في التكلم بمحض الرأي المنهي عنه في الأمور المتعلقة بكتاب الله ـ سبحانه ـ وذلك أنهم أرادوا أن يذكروا المناسبة بين الآيات القرآنية المسرودة على هذا الترتيب الموجود في المصاحف. فجاءوا بتكلفات وتَعسُّفات يتبرأ منها الإنصاف. ويتنزه عنها كلام البلغاء فضلاً عن كلام الرب سبحانه. حتى أفردوا ذلك بالتصنيف. وجعلوه المقصدَ الأهم من التأليف، كما فعله البقاعي في تفسيره ومَنْ تَقدَّمه حسبما ذكر في خطبته[2].

---

(١) البرهان في علوم القرآن ١ / ٣٦.

(٢) فتح القدير ١ / ٧٢.

فإذا كان الشوكاني يندد بهذه الفكرة ويثور عليها وينحى باللائمة على مَنْ يحملها ويشتغل بها فكيف تجوز دعوى الإجماع على أهميتها وأصالتها؟ وهل يقال: إنه ممن لا يعبأ به، والإجماع قائم على رغم مخالفته؟

## الشوكاني ليس معارضا للمناسبة:

والجواب: إن الإمام الشوكاني له فضلةُ ومكانته بحيث لا يُقطع دونه الأمر، إلا أنّ عبارته هذه لا تكفي للقطع بأنه من المعارضين لتلك الفكرة. كيف؟ وهو ينهج في تفسيره القيم نهجاً يشدُّ أزرَ القائلين بها، ولا يجد فرصة لإبراز النظام إلا وينتهزها، ويقف عندها وقفة لا بأس بها.

ونذكر هنا بعض النماذج من تفسيره حتى نطلع على موقفه من هذه الفكرة.

**المثال الأول:**

يقول رحمه اللّه في تفسير قوله تعالى:

﴿إن اللّه اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين﴾ [آل عمران: ٣٣].

«لما فرغ سبحانه من بيان أن الدين المَرْضي هو الإسلام، وأن محمداً - ﷺ - هو الرسول الذي لا يصحُّ لأحدٍ أن يحب اللّه إلا باتباعه، وأن اختلاف أهل الكتابين فيه إنما هو لمجرد البغي عليه والحسدِ له، شرع في تقرير رسالة النبي - ﷺ - وبيّن أنه من أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة»[١].

**المثال الثاني:**

ويقول - رحمه اللّه - في تفسير قوله - تعالى -:

﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم﴾ [آل عمران: ٦٤]، الآية.

---

(١) فتح القدير ١ / ٣٣٣.

«قيل: الخطابُ لأهل نجران بدليلِ ما تقدم قبل هذه الآية، وقيل: ليهود المدينة، وقيل: لليهود والنصارى جميعاً، وهو ظاهر النظم القرآني»[1].

**المثال الثالث:**

ويقول ـ رحمه الله ـ في تفسير قوله ـ تعالى ـ:

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ [آل عمران: ٣٨]، الآية.

«والمعنى أنه دعا في ذلك المكان الذي هو قائم فيه عند مريم، أو في ذلك الزمان، أن يَهبَ اللّه له ذريةً طيبة. والذي بعثه على ذلك ما رآه من ولادة حنّة لمريم وقد كانت عاقراً، فحصل له رجاءُ الولدِ وإنْ كان كبيراً وامرأته عاقراً، أو بَعَثهُ على ذلك ما رآه من فاكهة الشتاء في الصيف والصيف في الشتاء عند مريم، لأن مَنْ أوجد ذلك في غير وقته يقدر على إيجادِ الولد من العاقر، وعلى هذا يكون هذا الكلامُ قصةً مُستأنفةً سِيقَتْ في غضون قصة مريم لما بينهما من الارتباط»[2].

**المثال الرابع:**

ويقول ـ رحمه اللّه ـ في تفسير قوله ـ تعالى ـ:

﴿واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق، إذ قربا قرباناً﴾ [المائدة: ٢٧]، الآية.

«وجهُ اتصال هذا بما قبله التنبيه من اللّه على أن ظلمَ اليهودِ ونقضهم المواثيق والعهود هو كظلمِ ابنِ آدمَ لأخيه. فالداءُ قديم والشرُّ أصيل»[3].

**المثال الخامس:**

ويقول ـ رحمه اللّه ـ في تفسير قوله ـ تعالى ـ:

---

(١) فتح القدير ١ / ٣٤٨.

(٢) فتح القدير ١ / ٣٣٧.

(٣) فتح القدير ٢ / ٣٠.

﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا ﴾ [المائدة: ٣٨]، الآية.

«لما ذكر اللّه سبحانه حكم مَنْ يأخذ المال جهاراً وهو المحارب، عَقَّبه بذكر من يأخذ المال خِفْية وهو السارق»[١].

تلك بعض النماذج من تفسيره، وفيها غُنيةٌ وكفاية للاطلاع على موقفه من فكرة النظام، وإلا فتفسيرهُ حافلٌ طافحٌ بأمثالها.

إذن فكيف يجوز مع وجود تلك النصوص الواضحة الصريحة في تفسيره أن يقال: إنه ـ رحمه اللّه ـ من المعارضين لفكرة النظام؟ كلاّ! فالإمام الشوكاني أرفعُ وأجلُّ من أن يعارض فكرةً لا تَقلُّ في وضوحها من وضوح الشمس في رابعة النهار.

**الإمام الشوكاني ينكر التكلف:**

وإنما الذي حداه إلى تسجيل تلك الكلمات القاسية اللاذعة، هو أن الذين تبنّوا هذه الفكرة، لم يتعاطوها على وجهها، ولم يراعوا طِبيعتها.

إنهم نهضوا لخدمة هذه الفكرة، قبل أن يأخذوا لها أُهبتها، وخاضوا في المعمعة قبل أنِ يعدوا للأمور أقرانها.

إنهم بدأوا مسيرهم قبل أن يضعوا الأسس التي تُعدِّلُ لهم المسيرَ وتُذلِّلُ لهم الصعاب، وقبل أن يرسموا المعالم التي تعصمهم من الحيرة وتقيمهم على الجادّة.

فكان أن بذلوا لتحقيق هذه الغاية جهوداً مضنية جبارة ولكنها ـ مع الأسف ـ كانت أشبه شيء بتلك الأشعة التي تتبدد في الفضاء ولا تحقق هدفها إذا لم تصادف نقطة تتركز عليها.

فالمطلع على تلك الجهود يجدها كثيراً ما تُخطىء الهدف، ويجد جزءاً كبيراً منها يغلب عليه لونُ التكلُّفِ والتعسف. فهي أقرب إلى التكلفات منها إلى المناسبات.

وهذا ما هيّج الإمام الشوكاني وأثار حميته، وجعله يشدد القول. فلننظره كيف

---

(١) فتح القدير ٢ / ٣٩.

يركز في تهجمه على تلك الناحية، إذ يقول:

«وذلك أنهم أرادوا أن يذكروا المناسبة بين الآيات القرآنية المسرودة على هذا الترتيب الموجود في المصاحف. فجاؤوا بتكلفات وتعسفات يتبرّأ منها الإنصاف، ويتنزّه عنها كلام البلغاء، فضلاً عن كلام الرب سبحانه. وحتى أفردوا ذلك بالتصنيف، وجعلوه المقصد الأهم من التأليف، كما فعله البقاعي في تفسيره، ومَنْ تقدّمه، حسبما ذكر في خطبته»[1].

## نماذج من النظام المتكلف:

وإذا كان الإمام الشوكاني يذكر في مقاله هذا، الإمام البقاعي ويسمّيه فإننا نحب أن ننقل هنا بعض النصوص من تفسيره، حتى يظهر للناظر عذره، ويتضح أنه ـ رحمه اللّه ـ ليس مُنكراً للنظام أو المناسبات مرة واحدة. وملامه هذا ليس منصبّاً على فكرة النظام أو المناسبات. وإنما هو مُنْصَبٌّ على تلك التكلفات التي ليست من المناسبات في شيء.

فمنها ما يقوله البقاعي في تفسير سورة الفاتحة:

«شُرعت التسمية أول كل شيء، فَصُدِّرت بها الفاتحة، وقُدِّمَ التعوذُ الذي هو من درء المفاسد تعظيماً للقرآن بالإشارة إلى أن يتعين لتاليه أنْ يجتهدَ في تصفية سرّه وجمع متفرّقِ أمره لينال سُؤْله ومراده مما أودعه من خزائن السعادة بإعراضه عن العدو الحسود وإقباله على الوليِّ الودود. ومن هنا تعرف مناسبة المعوّذتين بالفاتحة. ولما افتتح التعوُّذَ بالهمزة إشارة إلى ابتداء الخلق، وختم بالميم إيماءً إلى المعاد، جعلت البسملة كلها للمعاد لابتدائها بحرف شفويّ، وختام أول كلماتها وآخرها بآخر إشارة إلى أن الرجوع إليه في الدنيا معني بتدبير الأمور وإن كان أكثر الخلق غافلاً عنه. وفي البرزخ حسّاً بالموت، وفي الآخرة كذلك بالبعث، كما أشار إلى ذلك تكرير الميم المُخْتَتِمِ بها

(1) فتح القدير ١ / ٧٢.

في اسمها بذكرها فيه مرتين إشارة إلى المَعَادين الحِسِّيين، والله أعلم»[1].

ويزيد ـ رحمه الله ـ فيقول:

«ولما كان اسم الجلالة عَلَماً، وكان جامعاً لجميع معاني الأسماء الحسنى أُوْلِيَهُ «الرحمن» مِن حيث أنه كالعَلَمِ في أنه لا يُوصَفُ به غيره. ومن حيث أنه أبلغ من «الرحيم» فأُولِيَ الأبلغُ الأبلغ، وذلك موافق لترتيب الوجود، الإيجاد، ثم النعم العامة، ثم الخاصة بالعبادة. وذكر الوصفان ترغيباً، وطُويت النقمةُ في إفهام اختصاص الثاني لتمام الترغيب بالإشارة إلى الترهيب والمراد بهما هنا أنه سبحانه يستحق الاتصاف بهما لذاته وكررهما بعدُ تنبيهاً على وجوب ذلك للربوبية والملك، وللدلالة على أن الرحمة غلبت الغضب. وفيهما إلى ما ذكر من الترغيب الدلالة على سائر الصفات الحسنى، لأن من عَمَّتْ رحمته امتنع أن يكون فيه شَوْبُ نقصٍ.

وفي آخر سبحان لهذا المَكان مزيدُ بيان، وكونها تسعة عشر، حرفاً خطّيّة وثمانية عشر لفظيّة إشارة إلى أنها دوافع النقمة من النار، الّتي أصحابها تسعة عشر وجوالب للرحمة بركعات الصلوات الخمس وركعة الوتر اللاتي من أعظم العبادات الكبرى[2].

تلك بعض النصوص من تفسير الإمام البقاعي وهي ليست بحاجة إلى أي تعليق أو تعقيب فهي واضحة ظاهرة، وهي تحكي بلسانها عن حالها.

ولا شك أن علم المناسبات إنْ كان عبارة عن تلك التكلفات وعن تلك المجازفات، فهو لا يخدمُ القرآن في قليل ولا كثير، وليس له مبرّرٌ من كتابٍ منير أو فكرٍ بصير.

ولعل تلك التكلفات هي التي هيّجت الإمام الشوكاني وأثارت حميّته وألجأته إلى أن يقول ما يقول. وإنْ كنا لا نرتاح إلى أسلوبه لما فيه من العنف والجفاف. ولما أنه يحمل لوناً من الاستخفاف.

---

(١) نظم الدرر ١ / ٢٢ ـ ٢٣.

(٢) نظم الدرر ١ / ٢٦ ـ ٢٧.

وليس ذلك إلا لأنه مَلَكَتْهُ سَوْرةُ الغضب على الذين يتكلفونه كما تَشِي به عبارتهُ الطويلة الساخنة اللاذعة بما فيها من تخلخلٍ واضطراب. فكان أنْ عَدَلَ عن الاعتدال وبالغ في الإنكار.

وإلا فكيف يُتَصوَّر أنْ يُنكِرَ فكرةَ النظام مرة واحدة ثم يعود هو فيتعاطاها في تفسيره؟

والذي يظهر للمطّلع على تفسيره القيّم أنه يأخذه آونة ويتركه أخرى. يأخذه إذا كان واضحاً شاخصاً ولا يتعب وراءه إن كان خافياً غامضاً وكان بحاجة إلى طول صبر وأناة وتأمل وإمعان.

**موقفه موقف الشيخ عزّ الدين:**

وعلى هذا فموقفه من النظام موقف الشيخ عز الدين[1] بن عبدالسلام إذ يقول: «المناسبةُ عِلْمٌ حسن ولكن يُشترط في حُسنِ ارتباط الكلام أن يقع في أمر متّحد مرتبط أوله بآخره فإنْ وقع على أسبابٍ مختلفة، لم يُشترطْ فيه ارتباطُ أحدهما بالآخر.

ويقول: ومَنْ ربط ذلك فهو متكلف بما لا يقدر عليه إلا برباط ركيك يُصان عنه حُسْنُ الحديث فضلاً عن أحسنه، فإن القرآن نزل في نيف وعشرين سنة في أحكام مختلفة ولأسباب مختلفة. وما كان كذلك لا يتأتى ربطُ بعضهِ ببعض إذ لا يحسن أن يرتبط تصرفُ الإله في خَلْقهِ وأحكامه بعضها ببعض، مع اختلاف العلل والأسباب. كتصرفِ الملوك والحكام والمفتين، وتصرف الإنسان نفسه بأمور متوافقة ومتخالفة ومتضادة. وليس لأحد أن يطلب ربط بعض تلك التصرفات مع بعض، مع اختلافها في نفسها واختلاف أوقاتها»[2].

---

(١) هو الإمام عبدالعزيز بن عبدالسلام المشهور بالعزّ. ولد سنة ٥٧٧هـ وتوفي سنة ٦٦٠هـ (وانظر ترجمته في طبقات الشافعية ٥ / ٨٠ ـ ١٠٧).

(٢) البرهان في علوم القرآن ١ / ٣٧.

## هل لهذا الموقف من أساس؟

وهناك ناحية لا بد أن نتنبه لها، وهي أن هذين الشيخين الجليلين لم يلجآ إلى هذا الموقف من فكرة النظام إلا لأن النظام لم يتَّضِحْ لهما في كثير من المواطن. وعلى هذا بنيا فكرتهما وقالا: إنه يوجد في موطن دون آخر.

فهما لا ينكرانه في القرآن مرة واحدة. وإنما ينكران تصوره الواسع الشامل الذي يتناول القرآن كله كأنه سلسلة من ذهب، متماسكة الحلقات، آخذ بعضها برقاب بعض.

ثم هذا الإنكار لا يعتمد على دليل قوي؛ بل لا يعتمد على دليل أصلاً. وإنما هي شُبهات ليس لها أساس.

وهل ظهور بعض الشيء دون بعض ينهضُ دليلاً على وجود بعضِه دون بعض؟

وهل يجوز إنكار الشيء بحجة أننا لم نُحِطْ بجميع جوانبه؟

ثم إنْ ظهرَ لنا النظامُ في موطن، أليس من الواجب أن نبحث عنه في موطن آخر؟

ثم إنْ حاوله غيرُنَا، وآنسنا فيه أوداً، أليس من الواجب أن نثقّفه ونقدّر جهده؟ بدلاً من أن نُوسِعه لوماً وتعنيفاً، ثم نتذرّع به إلى إنكار ذلك العلم رأساً.

الحق أن هذا الموقف ضعيف جداً. وهو بحاجة إلى أن نقف عنده، وندرس نقاطه، وندرس تلك الشبهات التي هي لحمته وسداته، حتى نكون على بيِّنةٍ منه.

* * * * *

# الباب الثاني
# شبهات حول النظام

الشبهة الأولى والرد عليها.

أنموذج للنظام في آيات تضم أمورا مختلفة.

الشبهة الثانية والرد عليها.

الشبهة الثالثة والرد عليها.

اهتمام العرب بحسن النظام.

منشأ فكرة الاقتضاب.

المقتضب من كلام العرب وأسبابه.

قصة آدم وارتباطها بما بعدها.



الشبهات التي أُثيرت حول فكرة النظام يمكن تحديدها في ثلاث نقاط كما يلي:

**الشبهة الأولى:**

التماس المناسبة في الآيات تكلُّفٌ وتكلُّمٌ في القرآن بمحض الرأي المنهي عنه، فإن القرآن نزل مفرّقاً حسب الحوادث المقتضية لنزوله منذ بدء الوحي إلى انتهائه. وتلك الحوادث متخالفة باعتبار نفسها بل وقد تكون متناقضة. فإذا كانت هي مختلفة ومتباينة بحيث لا يتيسر معه الائتلاف، فالقرآن النازل فيها هو باعتباره نفسه مختلف كاختلافها، والتماس المناسبة فيه تكلف محض وتعسف بيِّن.

**الشبهة الثانية:**

طلب المناسبة بين الآيات مع العلم بأنه قد تقدم في ترتيب المصحف ما أنزله الله متأخراً وتأخر ما أنزله متقدماً أمرٌ غير معقول. فإن هذا عمل لا يرجع إلى ترتيب نزول القرآن، بل إلى ما وقع من الترتيب عند جمعه ممن تصدى لذلك من الصحابة.

**الشبهة الثالثة:**

وصف الله ـ سبحانه ـ هذا القرآن بأنه عربيّ. وأنزله بلغة العرب. وسلك فيه مسالكهم في الكلام. وكانت عادتهم أن يأتوا بفنونٍ متخالفة وطرائقَ متباينة في المقام الواحد، فضلاً عن المقامين، فضلاً عن المقامات.

تلك ثلاث شبهات رئيسية تثار حول موضوع النظام. وممن أثارها الإمام الشوكاني في تفسيره (فتح القدير)[1] فلنقف عندها طويلاً. ولندرسها دراسة موضوعية جادّة. فإنه سينكشف ما فيها من ضعف وستظهر الحقيقة واضحة سافرة بإذن الله، فإن الصريح تحت الرغوة.

* * * * *

---

(١) انظر فتح القدير ١ / ٧٢، ٧٣.

# الفصل الأول
# الشبهة الأولى والرد عليها

أما الشبهة الأولى فهي شبهة ضعيفة لا تقوم على ساقين. وهي تنادي على نفسها بالبطلان، فإنه قد انعقد الإجماع على أن القرآن الموجود بين أيدينا ليس على ترتيب نزوله. وإنما هو حسب ترتيبه في اللوح المحفوظ.

يقول الإمام البغوي ـ رحمه الله ـ:

«... فإن القرآن مكتوب في اللوح المحفوظ على الترتيب الذي هو في مصاحفنا. أنزله الله تعالى جملة واحدة في شهر رمضان ليلة القدر إلى السماء الدنيا كما قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿شهر رمضان الذي أُنزل فيه القرآن﴾، وقال الله ـ عز وجل ـ: ﴿إنا أنزلناه في ليلة القدر﴾، ثم كان ينزله مُفَرَّقاً على رسوله ـ ﷺ ـ مدة حياته عند الحاجة، وحدوث ما يشاء الله ـ عز وجل ـ قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ [الإسراء: ١٠٦].

فترتيبُ النزول غير ترتيب التلاوة. وكان هذا الاتفاق من الصحابة سبباً لبقاء القرآن في الأمة رحمةً من الله ـ عز وجل ـ على عباده، وتحقيقاً لوعده في حفظه، كما قال الله ـ عز وجل ـ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩][1].

وقال الطيبي ـ رحمه الله ـ:

«أُنزل القرآن أولاً جملة واحدة من اللوحِ المحفوظ إلى السماء الدنيا ثم نزل مفرّقاً

---

(١) شرح السنة ٤ / ٥٢٢، ٥٢٣.

على حسب المصالح، ثم أُثبت في المصاحف على التأليف والنظم المُثبتِ في اللوح المحفوظ»[1].

فإذا كان ترتيب قرآننا هذا في تلاوته يختلف عن ترتيب نزوله، فليس من المعقول أن يكون نزوله في ظروف مختلفة وتحت حوادث متباينة مُفْضياً إلى تفكّك نظامه. بل الأمر على العكس، فإن العدول عن ترتيب النزول إلى ترتيب آخر لا يخلو من حكمة مَرْعية فيه.

فما هي الحكمة إذاً إنْ لم تكن هي مراعاة النظام؟

**أنموذج للنظام في آيات تضم أمورا مختلفة:**

ولعل الأمرَ فيه دقةٌ وغموض. وما قَلَّ اعتناءُ المفسرين به إلا لدقّته وغموضه، كما أشار إليه الإمام الزركشي[2].

فنحن نذكر هنا مثالاً، حتى يزداد وضوحاً. ويتبرهن أن اختلاف أسباب النزول لا ينافي النظام في القرآن. فكثيراً ما نرى المجموعة من الآيات، تضم أموراً مختلفة، وجاءت في أوقات مختلفة. ويُخَيَّلُ إلينا بادىء ذي بدء أن هناك اقتضاباً بيّناً، ولكن إذا أنعمنا فيها النظر، وجدنا الأمر على العكس. ورأيناها آيات مسبوكة محبوكة آخذاً بعضها برقابِ بعض.

فلنأخذ ـ مثلاً ـ الآيات التالية من سورة البقرة ولنتأملْ وجوه الربط والمناسبة فيها.

قال تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى، الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى الخ﴾.

(١) الإتقان في علوم القرآن ١ / ٦٢.
(٢) البرهان في علوم القرآن ١ / ٣٦.

ثم قال تعالى:

﴿كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إنْ ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقاً على المتقين...﴾.

ثم قال تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون﴾.

ثم قال تعالى:

﴿ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون﴾.

فإذا مررنا على سطح تلك الآيات مَرّاً سريعاً خُيِّلَ إلينا أنه ليس هناك ارتباط. وأيّ ارتباطٍ بين القصاص والوصية والصيام والرشوة والارتشاء!

ويتحول هذا الوهم إلى اليقين، إذا علمنا أن تلك الآيات ما نزلتْ مرةً واحدة، وإنما جاءت في نجوم مختلفة كما يظهر بالاطلاع على أسباب نزولها.

ولكن هل الأمر هكذا؟ أهكذا نُسجت تلك الآيات دون أن يكون بينها أي ارتباط؟ كلا! فهناك انسجامٌ تام وارتباط محكم وتناسق بديع.

ولا غرو، فإنها جاءت من لدن عليٍّ حكيم. الذي أَحسنَ كل شيءٍ خلقه وأحكم نَسْجه. ولكن لن نشعر بهذا التناسق والانسجام إذا مررنا بتلك الآيات مراً سريعاً. وإنما الأمر هنا كما قيل:

وفيهـــنَّ مَلْهـــىً لِلَّطِيـــفِ ومنظـــر أنيـقٌ لعيـنِ النـاظـرِ المُتَـوسِّـم

فلنمعن النظر في تلك الآيات، حتى نعلم ما فيها من محاسن النظم وروائع الارتباط.

لقد كان الموضوع فيما سبقها من الآيات موضوع الترغيب في أكل الطيبات حيث قال تعالى:

﴿يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين﴾.

وقال تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا للّه إن كنتم إياه تعبدون﴾.

ثم جاء ذِكْرُ ما حرّم من الطعام، وكان ذلك تكملةً لحديثِ الأكل من الطيبات، حيث قال تعالى:

﴿إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير اللّه، فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه إن اللّه غفور رحيم﴾.

ثم جاء الوعيدُ على تكسب المال بكتمان ما أنزل اللّه، وهو ـ كما لا يخفى ـ من جنسِ ما حرم من الطعام، بل من أقبح أنواعه، حيث قال تعالى:

﴿إن الذين يكتمون ما أنزل اللّه من الكتاب ويشترون به ثمناً قليلاً أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار ولا يكلمهم اللّه يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم﴾.

ثم جاءت آية البِرّ، وما جاءت هذه الآية إلا لتفضح بني إسرائيل وتسلبهم الشرفَ الذي كانوا يتبجّحون به. إنها جاءت لتخلع عنهم فضيلة البرّ نهائياً، حيث إنهم كتموا الحق وكتموا ما أنزل اللّه واشتروا به ثمناً قليلاً.

وكان هذا الكتمان من أفدح ما اجترحه بنو إسرائيل فَحَسُنَ التعقيبُ هنا بذكر تلك الفضيحة تنبيهاً على فداحة خَطْبِهم وشناعته.

ثم عاد الكلام إلى نصابه وجاءت آيات القصاص والوصية لتحذّر المؤمنين من هضم حقوق الآخرين وتعصمهم من التقصير في أدائها. وكل ذلك مما يكمِّلُ حديث الأكل من الطيبات والابتعاد من المحرمات.

فأُمروا أن يُنصِفوا في شأن الديات ويوفوا الحقوق إلى أهلها إلا أن يتنازلوا هم أنفسهم عن بعض حقوقهم.

وأُمروا بالوصية قبل الموت حتى يصيب كل ذي حق حقه مما تركوه من الخير ولا يهضم القوي حق الضعيف ولا يعتدي بعضهم على بعض. وحُذِّرُوا من تبديلها حتى لا يعبثَ بها من أراد التطاول على حقوق الآخرين، فيفوت الغرض منها.

اللهم إلا إذا كان هناك جَنَفٌ أو إثم في الوصية فلا إثمَ عليهم في إصلاحها. فإن الوصية في ذاتها لا حرمةَ لها إلا إذا كانت تحقق غرضها، وكانت محفظة لحقوق من يستحقها.

وكان هذا الأمر بالوصية قبل نزول آية المواريث، فلما نزلت المواريث وعرفت الفرائض تعيّن على المؤمنين التمسك بها. فإن المصلحة من الوصية ـ وهي سدُّ بابٍ من أبواب أكل المال بالباطل ـ قد تحققت بها على أكمل وجه.

وبعد هذه الآيات مباشرة جاءت آيات الصيام، ثم بعدها مباشرةً جاءت الآية الكريمة: ﴿ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون﴾.

هذا النظم ينبيء أن السياق ما زال في موضوع التحذير من أكل الأموال بالباطل. وأنه ما تخللّته آيات الصيام إلا لتخدم هذا الموضوع. فلننظر في آيات الصيام من هذه الناحية.

إن قوله تعالى: ﴿وعلى الذين يطيقونه فِدْيةٌ طعام مسكين﴾، واضح في أن الموسعين منّا والموسرين مطالبون في أيام الصيام بأن يجمعوا بين الصيام وإطعام مسكين.

وعلى هذا فيكون الصيام دورة تربوية يتربى فيها الأغنياء والموسرون على حب المساكين وتفقّد أحوالهم.

ومن هنا قال نبينا ـ عليه الصلاة والسلام ـ عن شهر رمضان: إنه شهرُ المواساة.

هذه ناحية، ومن ناحية أخرى فإن حلول رمضان ـ وهو شهر الصيام ـ يُذكِّرنا ـ معشر المؤمنين ـ بتلك النعمة الجسيمة التي منّ الله بها على هذه البشرية، ألا وهي

نعمة القرآن. وتلك النعمة إذا تذكَّرها المؤمن وعرف قدرها فإنها تزهّده في كل نعمة سواها، وتميل به وبرغباته واهتماماته عن حطام الدنيا إلى ما هو خير وأبقى وأنفع له عند اللّه، فهو يتجافى عن دار الغرور وشهواتها ويتجافى عن أهلها وحكّامها المغترين بزينتها.

فماذا يفتنه من الدنيا وقد ملأ يديه بنعمةٍ تهونُ في جنبها كل نعمة سواها؟ وما الذي يذهب به إلى حكام السوء وهو في شغلٍ شاغل عنهم وموصول الحبل بربّهم ومليكهم؟

وعلى هذا فالصوم بأعماله وبرامجه والقرآن بتوجيهاته وإيماءاته يزرع في نفس المؤمن حب اللّه وحبَّ عملٍ يُرضيه، ويُحبِّب إليه كل حلال طيّب ويكرّه إليه كل حرام خبيث، ويدفعه إلى الجود والسخاء وتفقّد أحوال الضعفاء، فضلاً عن أن يأكل أموال الناس بالباطل.

ولذلك كان أعلم الناس بالقرآن أجود الناس بالخير، وكان يبلغ منه الجود ذروته حين كان يتدارس القرآن مع جبريل ـ عليهما السلام ـ في شهر رمضان.

ولعل هذا المثال الواحد يكفينا للاقتناع بأن تعدد الموضوعات واختلاف أسباب النزول لا ينافي وجود النظام في تلك الآيات. ولَنِعْمَ ما قال الشيخُ ولي اللّه الملويّ المنفلوطي حيث قال:

«قد وَهِمَ مَنْ قال لا يُطلبُ للآي الكريمة مناسبة، لأنها على حسب الوقائع المتفرقة. وفصلُ الخطاب أنها على حسب الوقائع تنزيلاً وعلى حسب الحكمة ترتيباً، والمصحف كالصحف الكريمة على وفق ما في الكتاب المكنون مرتبة سوره كلها وآياته بالتوقيف. وحافظُ القرآن العظيم لو استفتي في أحكام متعددة أو ناظر فيها أو أملاها لذكر آية كل حكم على ما سئل. وإذا رجع إلى التلاوة لم يتلُ كما أفتى ولا كما نزل مفرّقاً بل كما أنزل جملة إلى بيت العزة[1].

---

(١) البرهان في علوم القرآن ١ / ٣٧.

## موقف عجيب للإمام الشوكاني:

رحم الله الإمام الشوكاني، فقد وصل إلى النبع ثم تقهقر!

إنه أراد أن ينفي النظام في القرآن. ولكن أبى الله إلا أن يسخّر قلمه لإثباته. وقد أثبته فعلاً. فلنتأمّل فيما يقوله ـ رحمه الله ـ:

«وكل عاقل ـ فضلاً عن عالم ـ لا يشك أن هذه الحوادث المقتضية نزول القرآن متخالفة باعتبار نفسها، بل وقد تكون متناقضة، كتحريم أمر كان حلالاً وتحليل أمر كان حراماً وإثبات أمر لشخص أو أشخاص يناقض ما كان قد ثبت لهم قبله. وتارة يكون الكلام مع المسلمين، وتارة مع الكافرين، وتارة مع من مضى، وتارة مع من حضر، وحيناً في عبادة، وحينا في معاملة، ووقتاً في ترغيب ووقتاً في ترهيب، وآونة في بشارة وآونة في نذارة، وطوراً في أمر دنيا وطوراً في أمر آخرة، ومرة في تكاليف آتية ومرة في أقاصيص ماضية. وإذا كانت أسباب النزول مختلفة هذا الاختلاف ومتباينة هذا التباين الذي لا يتيسرّ معه الائتلاف فالقرآن النازل فيها هو باعتباره نفسه مختلف كاختلافها. فكيف يطلب العاقل المناسبة بين الضب والنون والماء والنار والملاح والحادي»[1].

فلننظر كيف اجتمعت في حديثه وجوه الربط والمناسبة مع أنه أراد أن يبطلها!

فهل هناك ما يدعو إلى الاستنكار إذا قيل: إن هناك مناسبة بين التحريم والتحليل أو الترغيب والترهيب، أو البشارة والنذارة، أو الجنة والنار، أو الدنيا والآخرة، وما إلى ذلك؟

فإننا كثيراً ما نرى في القرآن أنه يجمع بين تلك الأمور في آية واحدة أو جملة واحدة.

قال ـ تعالى ـ:

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦].

---

(١) فتح القدير: ١ / ٧٢.

﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴾ [الحجر : ٤٩ ـ ٥٠].

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم : ٧].

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأعراف : ١٦٧].

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ۝ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ۝ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ﴾ [الكهف : ١ ـ ٤].

فنراه ـ تعالى ـ في تلك الأمثلة جمع بين ترغيب وترهيب وبشارة ونذارة في آية واحدة أو جملة واحدة، فهل ننكر المناسبة بين أجزاء آية واحدة أو جملة واحدة؟ وهل نقول إنها تضم أموراً متناقضة دون أن توجد بينها رابطة تربط بعضها ببعض؟

وهنا تحضرنا وصية سيدنا أبي بكر لسيدنا عمر ـ رضي الله عنهما ـ فإنه قال الأول للآخر ـ فيما قال له ـ حين حضرته الوفاة:

«وذكرَ (الله) آيةَ الرحمة مع آية العذاب ليكون العبد راغباً راهباً ولا يتمنى على الله غير الحق ولا يلقي بيده إلى التهلكة»[1].

فهذه العبارة تبيّن لنا أنْ القرآن إن ذكر آية الرحمة مع آية العذاب فإنه لم يذكرها إلا لحكمة بالغة ومناسبة ظاهرة.

وقال ـ تعالى ـ:

﴿ وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ

---

(١) جمهرة خطب العرب ١ / ٧٧.

﴿أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ﴾ [يونس: ٦١].

فنرى الله ـ تعالى ـ قد جمع في الخطاب بين المؤمنين والكافرين أو بين النبيّ والكافرين في آية واحدة. فالخطاب في الشطر الأول من الآية ـ وهو ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٖ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٖ﴾ ـ موجّه إلى النبي ـ ﷺ ـ وإلى المؤمنين. وفي الشطر الثاني ـ وهو ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِۚ﴾ ـ موجّه إلى الكفار والمشركين فقد روي عن الضحاك أنه قال:

إذ تفيضون فيه «يقول: فتشيعون في القرآن من الكذب»[1].

فهل ننكر المناسبة بين أجزاء تلك الآية الواحدة بحجة أنها تضم خطابين مختلفين: خطاباً إلى النبي ـ عليه السلام ـ وخطاباً إلى الكفار والمشركين؟

ويشبه تلك الآية قوله تعالى:

﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَاۚ وَٱسْتَغْفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾ [يوسف: ٢٩].

فقد اجتمع فيه خطابان مختلفان: خطاب إلى يوسف البريء النزيه وخطاب إلى امرأة العزيز التي راودته عن نفسه. فهل نقول: لا توجد المناسبة بين أجزاء تلك الآية بدليل أن شطرها الأول موجّه إلى نبي الله يوسف وشطرها الثاني موجّه إلى امرأة العزيز التي أرادت به السوء؟

ومن هذا القبيل قوله ـ تعالى ـ: ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ * ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَٱلَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ * وَٱلَّذِيٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوْمَ ٱلدِّينِ * رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ * وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٖ فِي ٱلْأٓخِرِينَ * وَٱجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [الشعراء: ٧٥ ـ ٨٥].

---

(١) تفسير الطبري: ٧/ ٩٠، والجامع لأحكام القرآن: ٨/ ٣٥٦.

فهذا الكلام ـ وهو يشتمل على جملة من الآيات ـ كلامٌ واحد صدر بمناسبةٍ واحدة وهو ينقسم إلى شطرين: شطر يحتوي ما وجّهه إبراهيم إلى قومه المشركين. وشطر يحتوي تلك الكلمات الضارعة التي وجّهها إلى ربّه.

فهل يعتبر هذا الكلام خالياً من المناسبة بحجّة أنه يضمّ نوعين من الخطاب: خطاب إلى اللّه الذي يحوطه برعايته، وخطاب إلى القوم الذين كانوا يحاربونه في دينه؟

وقال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ * وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ * فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ * فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ * أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥١ ـ ٥٦].

تلك عدّة آيات آخذ بعضها بأعناق بعض، بحيث رَبَطها السياقُ برابطة «الفاء» أحكمَ رباط فقال:

﴿فاتقون. فتقطعوا أمرهم... فذرهم﴾، فتلك الآيات مربوطٌ بعضها ببعض بحيث لا يمكن أحداً أن يقول، إنها جاءت في نجوم مختلفة أو إنها ينقصها التناسق والائتلاف.

مع أننا نلاحظ في الآيتين الأوليين أنه وجّه فيهما الخطاب إلى الرسل الذين خلوا منذ قرون. ثم توجّه الكلام في الآية الثالثة إلى المشركين المعاصرين لعهد نزول القرآن. ثم التفت الخطاب في الآية الرابعة إلى النبي ـ عليه السلام ـ.

أليس يصدق على تلك الآيات كلام الإمام الشوكاني إذ يقول:

«تارة يكون الكلامُ مع المسلمين وتارة مع الكافرين وتارة مع مَنْ مضى وتارة مع مَنْ حضر».

ولكن مع ذلك فهل يُفهم منه ما فهمه الإمام الشوكاني؟ وهل يقال: إن هذا الوضع أخلّ بوجودِ المناسبة في تلك الآيات؟

ولا نريد أن نسترسل في الأمثلة، ففيما ذكرناه كفاية لتضعيف موقف الإمام الشوكاني. ويمكن أن نقيس عليه بقيّة كلامه. ونعرف كيف وصل ـ رحمه اللّه ـ إلى النبع ثم عاد على أدراجه!

إنه وضع يده على وجوه المناسبة. ولكنه ـ مع الأسف ـ عدل بها إلى غير وجهها. وأراد أن يستدلّ بوجودها على عدمها!!

**كلمة موفقة للإمام الزركشي:**

ولا شك أن الإمام الزركشي كان موفّقاً في مقاله إذ قال:

«ذكر الآية بعد الأخرى، أما أن يظهر الارتباط بينهما لتعلق الكلام بعضه ببعض وعدم تمامه بالأولى فواضح. وكذلك إذا كانت الثانية للأولى على جهة التأكيد والتفسير أو الاعتراض والتشديد وهذا القسم لا كلام فيه»، إلى أن قال:

«وقد تكون العلاقةُ بينهما المُضَادّة، وهذا كمناسبة ذِكْرِ الرحمة بعد ذكر العذاب والرغبة بعد الرهبة. وعادةُ القرآن إذا ذكر أحكاماً ذكر بعدها وعداً ووعيداً ليكون ذلك باعثاً على العمل بما سبق. ثم يذكر آيات التوحيد والتنزيه، ليعلم عظم الآمر والناهي».

وقال ـ رحمه اللّه ـ:

«القسم الثاني ألا تكون معطوفة فلا بدّ من دعامةٍ تُؤْذِنُ باتصَالِ الكلام. وهي قرائن معنويّة مؤذنة بالربط. والأول مزج لفظي، وهذا مزج معنوي. تنزل الثانية من الأولى منزلة جزئها الثاني، وله أسباب:

أحدها: التنظير، فإن إلحاق النظير بالنظير من دأب العقلاء.

والثاني: المضادّة، وحكمته التشويق والثبوت على الأول كما قيل: «وبضدّها تتبيّن الأشياء.

والثالث: الاستطراد، ومنه الانتقال من حديث إلى آخر تنشيطاً للسامع»[1].

---

(١) البرهان في علوم القرآن ١ / ٤٠، ٥٠ ونجد مثل هذا الكلام للسيوطي في الإتقان ٢ / ١٠٨، =

ولا نريد أن نطيل، فالأمر قد بلغ غايته من الوضوح والبيان. ولم يعد هناك مجال، لأن يستدلّ أحد بنزول القرآن في ظروف مختلفة وبموضوعات متنوعة ويقول: إن التماس المناسبة في آياته تكلُّفٌ وتعسف.

نعم، إن التكلف فيه تكلف بلا شك. والتعسّف فيه تعسف. وجديرٌ بأن يُرفضَ على طول الخطّ.

وأما التماس المناسبة بالذات فليس من التكلف في شيء. وإنما هو تكليفٌ كلّف به العلماء. ومسؤولية ألقيت على أعناقهم.

فلننظر كيف يدعونا ربنا إلى تدبر القرآن والتفكر في آياته. ويثني على الذين يعيشونه ويطيلون الوقوف في رحابه. وينعى على الذين يخرّون عليه صماً وعمياناً. تأمل معي تلك الآيات.

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤].

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [محمد: ١٦].

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ﴾ [الأنعام: ٢٥].

فماذا يعني ربّنا حين يدعونا إلى تدبّر القرآن والتفكر في آياته؟ وماذا ينكر على الذين ينكر عليهم؟

---

= ١٠٩.

**دلائل من الآثار:**

ثم ماذا كان يعمل الصحابة رضي الله عنهم حين كانوا يقيمون على سورة واحدة أعواماً طوالاً؟ فقد روى الإمام مالك أن ابن عمر رضي الله عنه أقام على حفظ البقرة عدة سنين، وقيل ثمان سنين[1].

وقال أبو عبدالرحمن السلمي: حدثنا الذين كانوا يُقْرِئوننا القرآن كعثمان بن عفان وعبدالله بن مسعود رضي الله عنهما وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ـ ﷺ ـ عشر آيات لم يجاوزوهنّ حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل.

قالوا: «فتعلَّمنا القرآنَ والعلمَ والعملَ جميعاً»[2].

حتى إن أنساً رضي الله عنه يقول: «كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جَلَّ في أعيننا»[3].

فكيف نؤول هذه الآيات؟ وبماذا نفسّر تلك الروايات؟

ثم كيف كان الرجل يجلّ في أعينهم إذا قرأ البقرة وآل عمران؟

وهل يقصدُ أنس رضي الله عنه بحديثه هذا قراءة عاديّة لا تزيد على أداء الحروف، وفقه المفردات، وفهم الكلمات، والاطلاع على أسباب النزول؟

وهل كان ابن عمر يريد ـ إذ أقام على حفظ البقرة ثمان سنين ـ أو كان عثمان بن عفان وعبدالله بن مسعود وغيرهما يريدون ـ إذ كانوا يقيمون على عشر آيات أيّاماً طوالاً ـ تلك القراءةَ الظاهرةَ العابرةَ؟

وهل كان ربهم يطلب إليهم ـ إذ يطلب إليهم تدبّر القرآن والتفكر في آياته ـ هذا النوع من القراءة والاطلاع؟

---

(١) موطأ الإمام مالك / تصحيح وتعليق محمد فؤاد عبدالباقي ١ / ٢٠٥.

(٢) تفسير الطبري: ١ / ٢٧.

(٣) شرح ثلاثيات مسند الإمام أحمد للسفاريني: ٢ / ٢٧٦.

علماً بأن الذين وُجِّه إليهم الخطابُ، ونزل عليهم القرآن كانوا أصحابَ اللسان وفرسان الكلام. وكانوا بين أديبٍ لا يُبارى وبليغ لا يُشَقُّ له غبار.

**قول وجيه لابن خلدون:**

ولقد أصاب ابن خلدون إذ قال:

«إن القرآن نزل بلغة العرب، وعلى أساليب بلاغتهم، فكانوا كلهم يفهمونه ويعلمون معانيه في مفرداته وتراكيبه»[1].

نعم، إذا كانت اللغة لغتهم، والأسلوب أسلوبهم، والحديث حديثهم، فلا جَرَمَ أن كل واحد منهم كان يفهم معاني القرآن بمجرد سماعه له. ولذلك لا نجد أحداً من الصحابة يسأل رسول الله ـ ﷺ ـ عن معنى كلمةٍ من كلماته أو آية من آياته.

وبذلك نعلم أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ كان يطلب منهم أكثر من ذلك الفهم، حينما كان يحثهم على تدبر القرآن.

فما هو الأكثر إذاً إن لم يكنْ معرفة مناسباتِه والبحث عن رباط آياته، والاطلاع على علوم غزيرة وحِكَمٍ غالية وضعت في نظامه؟

**هل طلب المناسبة تكلم بالرأي؟**

وأما القول بأن طلب المناسبة في الآيات تكلم بمحض الرأي وهو مَنْهيٌّ عنه، فهو قولٌ لا ينهض به دليل، فإن التفسير بالرأي ـ كما نصّ عليه العلماء ـ هو التفسير الذي لا يستند إلى دليل. ولا يكون له أصل من الكتاب والسنّة أو أساليب اللغة. وإنما يكون ذلك وليد الهوى، أو نتيجة لقلَّةِ الفقه وعدم الاطلاع. مثل أن يميل الرجل إلى شيء ويهواه، فيتأول القرآن وفق ميله وهواه. وإن كان يعرف أن القرآن لا يُقِرُّ ما ذهب إليه وأن الحق يخالف ما قاده إليه هواه.

أو تكون الآية محتملة لوجوهٍ من التأويل فيحملها على ما يوافق هواه، ويهمل

(١) تاريخ ابن خلدون: ١ / ٣٦٦.

الوجوه الأخرى، وإن كانت تلك الوجوه أوفق لنظم الآية وسياقها وكانت أوجه وأقوى حسب قواعد اللغة وأساليبها.

أو يكون له غرض صحيح ولكن يستدل عليه بما لا يدلّ عليه. ولعلَّ ذلك لقلة وعيه وقلة رصيده من العلم، كما أن رجلاً يدعو إلى مجاهدة النفس ويستدل عليه بقوله ـ تعالى ـ:

﴿ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾ [النازعات: ١٧].

ويُفَسِّرَ فرعونَ بالنفسِ.

فهذا كله من التفسير بالرأي وهو مَنْهِيٌّ عنه ولا شك.

ولكنه إذا كان التفسير بحيث يتفق مع سياق الآيات ولا يتعارض مع صحيح الروايات، ويتمشى مع طبيعة اللغة وأساليبها، فكيف يقال إنه تفسير بالرأي؟

وإن قال ذلك أحد فقد قال ما ليس له به علم، وهو يحسبه هيّناً وهو عند اللّه عظيم!

ثم إن كان هذا تفسيراً بالرأي، فما هو ذلك التفسير، الذي كان عليه السلف الصالح؟

**التفسير بالرأي كما يراه الغزالي:**

وللإمام الغزالي لفتاتٌ رائعة في هذا الباب. والموقف يتطلّب أن نمرّ بها ولو مرّاً سريعاً. يقول ـ رحمه اللّه ـ:

«. . . . فهذه الأمور تدل على أن في فهم معاني القرآن مجالاً رحباً ومتسعاً بالغاً. وأن المنقول من ظاهر التفسير ليس منتهى الإدراك فيه. فأما قوله ـ ﷺ ـ: «من فسّر القرآن برأيه» ونهيه عنه ـ ﷺ ـ وقول أبي بكر ـ رضي اللّه عنه ـ «أيُّ أرضٍ تقلني وأي سماء تُظِلّني إذا قلتُ في القرآن برأيي»؟ إلى غير ذلك مما ورد في الأخبار والآثار في النهي عن تفسير القرآن بالرأي، فلا يخلو إما أن يكون المراد به الاقتصار على النقل والمسموع وترك الاستنباط والاستقلال بالفهم. أو المراد به أمر آخر. وباطلٌ قطعاً أن

يكون المراد به ألا يتكلم أحدٌ في القرآن إلا بما يسمعه لوجوه:

أحدها: أنه يشترط أن يكون ذلك مسموعاً من رسول الله ـ ﷺ ـ ومسنداً إليه وذلك مما لا يصادف إلا في بعض القرآن. فأما ما يقوله ابن عباس وابن مسعود من أنفسهم فينبغي ألا يقبل، ويقال: هو تفسير بالرأي، لأنهم لم يسمعوه من رسول الله ـ ﷺ ـ وكذا غيرهم من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ.

والثاني: أن الصحابة المفسرين اختلفوا في تفسير بعض الآيات فقالوا فيها أقاويل مختلفة لا يمكن الجمع بينها. وسماعُ جميعها من رسول الله ـ ﷺ ـ محالٌ. ولو كان الواحد مسموعاً لَرُدَّ الباقي. فتبيّن على القطع أن كل مفسر قال في المعنى بما ظهر له باستنباطه، حتى قالوا في الحروف التي في أوائل السور سبعة أقاويل مختلفة لا يمكن الجمع بينها، فقيل: إنّ ﴿المرٓ﴾ هي حروف من الرحمن، وقيل: إن الألف الله واللام لطيف. والراء رحيم، وقيل غير ذلك. والجمع بين الكل غير ممكن. فكيف يكون الكل مسموعاً؟

والثالث: أنه ـ ﷺ ـ دعا لابن عباس وقال: «اللهم فقّهه في الدين وعلّمه التأويل» فإن كان التأويل مسموعاً كالتنزيل ومحفوظاً مثله، فما معنى تخصيصه بذلك؟

والرابع: أنه قال ـ عزّ وجلّ ـ: «لَعَلِمَهُ الذين يستنبطونه منهم» فأثبتَ لأهلِ العلم استنباطاً. ومعلوم أنه وراء السماع.

وجملة ما نقلناه من الآثار في فهم القرآن يناقض هذا الخيال. فبطل أن يشترط السماع في التأويل. وجاز لكل واحد أن يستنبط من القرآن بقدر فهمه وحدّ عقله[1].

**رأي الإمام ابن تيمية:**

ويقول الإمام ابن تيمية رحمه الله:

«فأما تفسير القرآن بمجرد الرأي فحرام. ولهذا تحرّج جماعة من السلف عن

---

(١) إحياء علوم الدين: ١ / ٢٩٠.

تفسير ما لا علم لهم به كما روي . . .

فهذه الآثار الصحيحة وما شاكلها عن أئمة السلف محمولة على تحرّجهم عن الكلام في التفسير بما لا علم لهم به. فأما من تكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعاً فلا حرج عليه»[1].

**لفتة هامة للفراهي:**

وللإمام الفراهي لفتة هامّة في هذا الباب، حيث يقول:

«لما رأى أهل السنة أن أهل البدعة والباطل جعلوا يؤوّلون القرآن إلى الهوى وجعلوا يحملون النصوص على غير مرادها، تحرّجوا من الاشتغال بالأقاويل في التفسير إلا بما روي عن الصحابة والتابعين. ولا شك أنهم لم يريدوا بذلك إلا سدّاً لأبواب الفتنة. وكان ذلك هو الطريق. فإنّ التأويل إذا لم يُؤَسَّسْ على قواعده، التي تكون فارقة بين الحق والباطل، لم يمنع عن القول بالرأي المحض. وأما الصحابة والتابعون فأوّلوا القرآن بالعلم والنظر الصحيح، فإن تصفحنا الأصول التي جروا عليها كانت لنا أسوة حسنة في تدبر كتاب اللّه. وقد جمع أهل التأويل نبذاً من أقوالهم ولكنهم لم يجمعوا أصول تدبرهم. والحاجة إلى ذلك شديدة، فإن اللّه تعالى أوجب التفكر في كتابه بصريح القول في غيرِ ما آية. وقد حثّ النبي ـ ﷺ ـ على ذلك وعلّمهم النظر والاستنباط. وكان ذلك مما فرض اللّه عليه.

وإذ غلب على ظنّ أكثرَ الناس أن القول بما لم يُرْوَ عن السلفِ هو القولُ بالرأي، وصار ذلك مانعاً من التفكر والتدبر احتجنا إلى بيان الفرق بين القول بالرأي المنهيّ عنه وبين طريق السلف الذين تفكروا وتديروا في القرآن، وإلى بيان الحاجة الشديدة إلى استعمال الفكر والتدبر في كتاب اللّه.

من العجائب بل من المصائب أن يشتبه الحق بالباطل عند أهل الحق فيتعصبوا للباطل ويعثروا في وضح النهار بعد ما جاءتهم البينات. ويمتنعوا عن الفكر والنظر في

---

(١) مقدمة في أصول التفسير: ص ٤٦، ٥٠.

آيات اللّه المشهودة والمَتلوَّة، ويجعلوا السنة بدعة والبدعة سنة. وذلك بعد أن علموا أن القرآن قد حثّ على الفكر والتدبر في كليهما. وأن الصحابة ـ رضي اللّه عنهم ـ كانوا يتدبرون القرآن وكانوا يقولون بما فهموا منه، وينقلون ذلك عنهم...»[1].

### حقائق في ضوء النصوص:

تلك النصوص تبين لنا عدة حقائق وهي كما يلي:

١ ـ معايشة كتاب اللّه، والتفكر في آياته، والبحث عن أسراره وحكمه، والفحص عن كنوزه وفرائده بأسلوب علميّ نزيه، مع إخلاص النية والتجرد للّه، فضيلةٌ ومَحمدةٌ حثّ عليها ربنا، وسنة سنيّة كان عليها سلفنا الصالحون.

٢ ـ محاولة التوصل إلى أسرار كلام اللّه في ظل أصول محكمة وقواعد ثابتة لا تسمّى تفسيراً بالرأي.

٣ ـ التصدي لتفسير كتاب اللّه تحت سيطرة الهوى، أو بدون كفاءة علميّة كافية هو التفسير بالرأي المنهي عنه في دين اللّه.

٤ ـ من كره العدول عن تفسير مأثور إلى تفسير آخر إنما كرهه خوفاً من البدعة وسدّاً لأبواب الفتنة وإلا فإعمال الفكر والرويّة في كتاب اللّه ومحاولة الكشف عن أسراره وعلومه واجب من واجبات علماء الأمة.

٥ ـ الصحابة ـ رضي اللّه عنهم ـ كانوا يجتهدون رأيهم وما كانوا يمتنعون أبداً عن تفسير القرآن إذا لم يكن عندهم شيء ثابت عن رسول اللّه ـ ﷺ ـ ومعظم التفاسير المروية عنهم ليست إلا نتائج تدبرهم وتفكرهم في كتاب اللّه.

### النور نور وليس ظلاماً:

وبناءً على تلك الحقائق الساطعة نملك الجزم بأن طلب المناسبات في الآيات ليس من التفسير بالرأي. وإنما هو ـ إذا كان موافقاً لسياق الكلام، وكان متمشياً مع

---

(١) التكميل في أصول التأويل ص: ٨، ٩.

قواعد اللغة وأساليب البيان ـ علمٌ عظيم من علوم القرآن وناحية كبيرة من نواحي جماله وإعجازه. وهو مما حثّ عليه ربنا، إذ قال:

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

ولقد أبعدَ مَنْ قال: إنه تكلمٌ بالرأي المنهي عنه، فإنه لم يفرّق بين الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور، ولم يفرق بين الفرائد ولا الأحجار فإلى اللّه المفزع وإليه المشتكى!

اللهم إلا إذا خاض أحد هذا اليمَّ ولم يحسن السباحة فيه وخرج منه بتكلفات وتعسفات لا تنسجم مع طبيعة القرآن وجمال أسلوبه، فلا شك أنه من التفسير بالرأي المنهي عنه في دين اللّه. نسأل اللّه أن يسلّمنا منه.

* * * * *

# الفصل الثاني
# الشبهة الثانية والرد عليها

وأما الشبهة الثانية فهي أضعف من أختها، فإنها نسجت على أن ترتيب الآيات والسور ليس من عند الله وإنما هو من عمل الصحابة، الذين تصدوا لجمع القرآن بعد رسول الله.

ولا شك أنها شبهة داحضة، لا يروج قبولها إلا عند مَنْ أغمض عينيه عن جميع مصادر العلم، من القرآن والسنة وإجماع الأمة.

## جمع القرآن وتدوينه في ضوء القرآن:

فالقرآن نفسه يبيّن وضعه ويكشف القناع عن ترتيبه. ويعلن أنه مطابق تماماً لأصلِه في اللوح المحفوظ. ولا فرق بينه وبين الصحف التي في أيدي الملائكة المقرَّبين. فلنتأمل في هذه الآيات:

﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ * فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ * فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ * مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ * بِأَيْدِى سَفَرَةٍ * كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: ١١ ـ ١٦].

﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: ٣ ـ ٤].

﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ * فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾ [البروج: ٢١ ـ ٢٢].

ثم إن القرآن صريح في أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ هو الذي تولّى جمعه وترتيبه حيث يقول:

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۞ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۞ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۞ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٦ ـ ١٩].

كما أنه ـ تعالى جدّه ـ تكفَّل بحفظ هذا القرآن حيث يقول:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

ولا شك أن حفظ القرآن يتضمن حِفْظَ نَظْمِه وترتيبه، فإنَّ نظمَ الكلام جزء من الكلام. ولا معنى لحفظ الكلام بدون المحافظة على نظمه.

**استنباطات قيمة من القرآن:**

ولقد دبّجت يراعة الإمام الفراهي في تأويل قوله تعالى:

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۞ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۞ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۞ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾، كلاماً رائعاً جميلاً ونرى من المناسب جداً أن نثبته هنا. يقول ـ رحمه الله ـ:

«لا يخفى عليك أن قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۞ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۞ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾، يحتوي ثلاثة أمور:

الأول: أن القرآن سيجمع في عهد النبي ـ ﷺ ـ ويُقرأ عليه بنسقٍ واحد، فإنه لو أُنجزَ هذا الوعدُ بعد عهده ـ ﷺ ـ لم يأمره باتباعه.

والثاني: أنه ـ عليه السلام ـ مأمور بالقراءة حسب هذه القراءة الثانية، التي تكون بعد الجمع. وليس له ـ عليه السلام ـ أن يُلقى عليه شيءٌ من الوحي، ولا يبلّغه الأمة فهذا لا يجوز عقلاً كما لا يجوز شرعاً لقوله تعالى:

﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المائدة: ٦٧].

وقد أمره تعالى أمراً عاماً. فلا بد أن يكون ـ عليه السلام ـ قد علّم الأمة قراءته الأخيرة، التي عليها القرآن في اللوح المحفوظ، فإنّ العرضة الأخيرة لا بدّ أن تكون مُطابقةً للأصل.

والثالث: أن بعد هذا الجمع والترتيب بيّن اللّه ما شاء بيانه بتعميمٍ وتخصيص

وتكميل وتخفيف.

وقد وقعت هذه الأمور الثلاثة، فإن النبي - ﷺ - كان يقرأ عليهم سورة القرآن كاملة. وهذا لا يكون إلا بعد أن قُرِىءَ عليه بنسقٍ خاص فأخذوها منه. وكان يأمرهم بوضع الآيات في محلّها الخاصّ بها. ثم بعد ذلك إذا أنزلت عليه آيات مبيّنة ضمّها إلى القرآن. فترى هذه المبيّنات ربما وضعت بجنب ما تبيّنه، وربما وضعت في آخر السورة إذا كانت متعلقة بعمودها.

ونرى في أكثر هذه الآيات تصريحاً بأنها بيان من اللّه تعالى كقوله - عزّ من قائل -:

﴿كذلك يُبَيِّنُ اللّهُ آياتِه للناس﴾.

ثم عرض عليه جبريل الأمينُ العرضةَ الأخيرة بعد تمام القرآن، كما جاء في الخبر الصحيح المتفق عليه. وهذا يزيل أكثر معضلات النظام[1].

تلك لوامع تلوح للباحث من داخل القرآن نفسه. وهي تفيد أن القرآن الذي بأيدينا هو نفس القرآن الذي في أم الكتاب لدى رَبِّنا. مصوناً عن أي زيادة أو نقصان، بريئاً من أيّ تقديم أو تأخير.

**روايات في أن ترتيب الآيات من عند الله:**

كما أن هناك من صحيح الآثار ما يؤكد لنا أن هذا القرآن الذي بأيدينا، هو نفسه عند ربنا في أمّ الكتاب، وأن الصحابة - رضي الله عنهم - تلقوه من نبيّهم بِنَظْمِه وترتيبه، ثم أدّوه إلينا كما أخذوه من غير تقديم فيه أو تأخير.

ولا بأس بأن نمرّ على طائفة من تلك الروايات، حتى يكون الأمر واضحاً شاخصاً أمام أعيننا:

١ - «فعن عثمان بن أبي العاص قال: كنت عند رسول اللّه - ﷺ - جالساً إذ

---

(١) تفسير سورة القيامة للإمام الفراهي ص: ١٥، ١٦ بتصرف يسير في العبارة بقصد الإيضاح.

شخص ببصره ثم صوّبه حتى كاد أن يلزقه بالأرض قال ثم شخص ببصره فقال: أتاني - جبريل عليه السلام - فأمرني أن أضع هذه الآية بهذا الموضع من هذه السورة: ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون﴾»[1].

٢ - «وعن ابن الزبير قال: قلت لعثمان: هذه التي في البقرة ﴿والذين يُتَوفَّوْنَ منكم ويَذَرون أزواجاً﴾ إلى قوله ﴿غير إخراج﴾، قد نسختها الآية الأخرى فَلِمَ تكتبها؟ قال: تدعها؟ يا ابن أخي، لا أُغَيِّرُ شيئاً منه من مكانه»[2].

٣ - «وعن عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه قال: «كان النبي ﷺ مما تنزل عليه الآيات فيدعو بعض من كان يكتب له ويقول له: «ضَعْ هذه الآية في السورة التي يُذكر فيها كذا وكذا»، وتنزل عليه الآية والآيتان فيقول مثل ذلك»[3].

٤ - «وعن ابن عباس قال: كان رسول الله - ﷺ - لا يعرف فصل السورة حتى تنزل عليه بسم الله الرحمن الرحيم».

«وعنه قال: كان المسلمون لا يعلمون انقضاء السورة حتى تنزل بسم الله الرحمن الرحيم فإذا نزلت بسم الله الرحمن الرحيم علموا أن السورة قد انقضت»[4].

٥ - روى الشيخان وغيرهما أن النبي - ﷺ - قال:

«من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة في ليلةٍ كَفَتَاهُ»[5].

وروى مسلم عن أبي الدرداء - رضي الله عنه - مرفوعاً:

---

(١) مسند الإمام أحمد: ٤ / ٢١٨.

(٢) صحيح البخاري مع فتح الباري: ٨/ ١٥٠.

(٣) سنن أبي داود. كتاب الصلاة رقم ٧٨٦.

(٤) السنن الكبرى للبيهقي: ٢ / ٤٢، ٤٣.

(٥) رواه أبو داود في كتاب الصلاة رقم ١٣٩٧، والبخاري في فضائل القرآن ومسلم في الصلاة رقم الحديث ٧٠٨.

«مَنْ حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عُصِمَ من الدجال»[١].

وروى مسلم عن عمر ـ رضي الله عنه ـ أنه قال:

«ما راجعتُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ في شيء ما راجعته في الكلالة. وما أغلظَ لي في شيء ما أغلظ لي فيه حتى طعن بإصبعه في صدري. وقال: يا عمر ألا تكفيك آية الصيف التي في آخر سورة النساء»[٢].

٦ ـ تضافرت الروايات على أن النبي ـ ﷺ ـ كان يقرأ سوراً كاملة في صلاته بمشهد من الصحابة. ففي حديث حذيفة، الذي رواه مسلم، أنه قرأ في صلاته ذات ليلة البقرة وآل عمران والنساء.[٣] وفي صحيح البخاري وسنن أبي داود والنسائي أنه قرأ الأعراف في صلاة المغرب[٤].

وروى مسلم أنه ـ عليه السلام ـ كان يقرأ في صلاة الفجر يوم الجمعة ﴿بالٓمٓ تنزيل السجدة﴾، ﴿وهل أتى على الإنسان حين من الدهر﴾[٥].

وفي صحيح مسلم أنه ـ عليه السلام ـ كان يقرأ بـ ﴿ق والقرآن المجيد﴾ على المنبر في كل جمعة[٦]، وعند مسلم أنه ـ عليه السلام ـ كان يقرأ في الأضحى والفطر بـ ﴿ق والقرآن المجيد﴾ و﴿اقتربت الساعة وانشق القمر﴾[٧].

وعنده أيضاً أنه ـ عليه السلام ـ كان يقرأ في صلاة الجمعة بسورة الجمعة في السجدة الأولى وفي الآخرة ﴿إذا جاءك المنافقون﴾[٨].

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي: ٦ / ٩٢.
(٢) صحيح مسلم بشرح النووي: ١١ / ٥٧، كتاب الفرائض.
(٣) صحيح مسلم بشرح النووي: ٦ / ٦١.
(٤) رواه البخاري ٢ / ٢٠٤، ٢٠٥، باب القراءة في المغرب وأبو داود في الصلاة رقم ٨١٢، والنسائي ٢ / ١٦٩، ١٧٠، باب القراءة في المغرب.
(٥) صحيح مسلم بشرح النووي: ٦ / ١٦٨.
(٦) صحيح مسلم بشرح النووي: ٦ / ١٦٠، ١٦١.
(٧) صحيح مسلم بشرح النووي: ٦ / ١٨١.
(٨) صحيح مسلم بشرح النووي: ٦ / ١٦٦.

وعن عبدالله بن سلام ـ رضي الله عنه ـ قال: تذاكرنا أيكم يأتي رسول الله ـ ﷺ ـ فيسأله أي الأعمال أحبّ إلى الله؟ فلم يقمْ أحدٌ منا. فأرسل رسول الله ـ ﷺ ـ رجلاً فجمعنا، فقرأ علينا هذه السورة يعني سورة الصف كلها[1].

إلى غيرها من الروايات الكثيرة التي جاءت من هذا القبيل.

**حقائق في ضوء الروايات:**

تلك الروايات توقفنا أمام حقائق آتية:

١ ـ ترتيب الآيات ليس من عند النبي ـ ﷺ ـ وإنما كان جبريل ـ عليه السلام ـ هو الذي يحدّد لكل آية مكانها طبقاً لما في اللوح المحفوظ. ثم هو الذي كان يُعلمه بنهايةِ السورة إذا انتهت.

٢ ـ كان من شدة محافظة النبي ـ ﷺ ـ على هذا الترتيب أنه كان يملي الوحي على كتّابه ويُعْلِمُهم بمكانهِ بعدما ينجلي عنه مباشرة.

٣ ـ الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ التزموا بهذا الترتيب التزاماً كاملاً كما يدل عليه قول سيدّنا عثمان: «يا ابن أخي، لا أغيّر شيئاً من مكانه».

٤ ـ كان هذا الترتيب مألوفاً لدى الجميع. ولذلك نرى النبي ـ ﷺ ـ يكتفي بالإشارة فيقول: «آخر سورة البقرة» أو «أول سورة الكهف» أو «آخر سورة النساء»، وما إلى ذلك.

٥ ـ كان النبي ـ ﷺ ـ يقرأ سوراً كاملة ومرتّبة في صلاته، وكان يقرأها بمشهد من الصحابة. ومن المستحيل أن يرى الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ شِدَّةَ اهتمامه ـ عليه السلام ـ بترتيبِ الآيات، ثمّ يتساهلوا فيه، أو ينصرفوا عنه إلى غيره. وبناءً على تلك الحقائق الظاهرة لم يكن للأمة إلا أن تجمع على أن هذا القرآن طبقٌ لأصله في اللوح المحفوظ. وقد حصل ذلك فعلاً والحمد لله.

---

(١) أخرجه الترمذي في التفسير رقم (٣٣٠٦) وصحّحه الحاكم ٣ / ٤٨٧، وأخرجه أحمد في المسند: ٥ / ٤٥٢.

**إجماع الأمة على أن ترتيب الآيات من عند الله:**

قال الإمام البغوي (المتوفى سنة ٥١٠هـ):

«الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ جمعوا بين الدفتين القرآن الذي أنزله الله ـ سبحانه وتعالى ـ على رسوله ـ ﷺ ـ من غير أن زادوا فيه أو نقصوا منه شيئاً. إنهم كتبوه كما سمعوا من رسول الله ـ ﷺ ـ من غير أن قدموا شيئاً أو أخروا أو وضعوا له ترتيباً لم يأخذوه من رسول الله ـ ﷺ ـ وكان رسول الله ـ ﷺ ـ يلقّن أصحابه ويُعْلِمُهم ما ينزل عليه من القرآن على الترتيب الذي هو الآن في مصاحفنا بتوقيف جبريل ـ صلوات الله عليه ـ إياه على ذلك، وإعلامهِ عند نزولِ كل آية أن هذه الآيةَ تُكتب عقيب آية كذا في السور التي يذكر فيها كذا. فترتيب النزول غير ترتيب التلاوة. وكان هذا الاتفاق من الصحابة سبباً لبقاء القرآن في الأمة رحمة من الله عز وجل على عباده وتحقيقاً لوعده في حفظه»[1].

وقال القاضي أبو بكر (ت: ٥٤٣هـ):

ترتيبُ الآيات أمرٌ واجب وحكمٌ لازم، فقد كان جبريل يقول: «ضعوا آية كذا في موضع كذا»[2].

وقال الإمام الزركشي (ت: ٧٩٤هـ):

«فأما الآيات في كل سورة ووضع البسملة أوائلها فترتيبها توقيفي بلا شك ولا خلاف فيه ولهذا لا يجوز تعكيسها»[3].

وقال الإمام السيوطي (ت: ٩١١هـ):

«الإجماع والنصوص المترادفة على أن ترتيب الآيات توقيفي ولا شبهة في

---

(١) شرح السنة: ٤ / ٥٢١، ٥٢٣.

(٢) البرهان في علوم القرآن: ١ / ٢٥٦.

(٣) البرهان في علوم القرآن: ١ / ٢٥٦.

ذلك»[١].

## ترتيب السور توقيفي:

بعد ما ثبت أن ترتيب الآيات ليس هكذا اعتباطاً. وأنه أمر توقيفي، نضيف إليه فنقول: إن ما جرى في ترتيب السور لا يختلف عما جرى في ترتيب الآيات، وما حصل هنا إلا ما حصل هناك. فكما أن الآيات وضعت في المصحف في مواضعها من أمِّ الكتاب فكذلك السور أيضاً ما وضعت إلا في مواضعها منه. وكان جبريل ـ عليه السلام ـ هو الذي يُحدِّدُ للنبي ـ ﷺ ـ مواضعها ثم كان هو يحدّدها للصحابة.

فالمصاحف المتداولة في الأمة ليست إلا على النسق الذي ترك عليه النبي ـ ﷺ ـ أمته. وما جاء في الروايات من أنه كان يوجد في بعض مصاحف الصحابة اختلاف في ترتيب السور فلا يبعد أن يكون ذلك من وضع الأعداء، ولا يبعد أن يكون من محاولات التشكيك في القرآن.

ولنذكر هنا ما قالته اللجنة المؤلفة لوضع تقرير عن كتاب (المصحف المرتّل):

«أما الروايات التي ذكرها السيوطي لإثبات أن بعض الصحابة كانت لهم مصاحف خالفت مصحف عثمان في ترتيب السور، فهي واردة في كتبٍ لم يلتزمْ مؤلّفوها الصحةَ فيما يروونه فيها الخ»[٢].

نأخذ ـ مثلاً ـ عليّاً وأُبيَّ بن كعب وعبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنهم ـ وهم من كبار الصحابة وعلماء القرآن، فهل يعقل أن يكون قد تمّ هذا العملُ من جمع القرآن وتدوينه في عهد أبي بكر ثم نَسْخِه في عهد عثمان بدون أن يفتح لهم مجال لكي يسهموا فيه أو يطّلعوا عليه؟

---

(١) الإتقان في علوم القرآن: ١ / ٦٠.

(٢) من تقرير لجنة كلية أصول الدين بجامعة الأزهر المؤلفة من الأستاذ الشيخ عبدالوهاب غزلان والأستاذ الشيخ أحمد السيد الكرمي والأستاذ الشيخ محمد عبدالوهاب بحيري لتقويم كتاب الأستاذ لبيب العيد (المصحف المرتل) ص: ٢٠.

وهل يعقل أن يرمى بأقوالهم عرض الحائط، إن كانت لهم أقوال في نسق السور وترتيبها؟

ثم إذا تمّ الإجماع من الصحابة على هذا الترتيب فهل يعقل منهم الإصرار على مخالفة إجماع الصحابة ومخالفة خلفاء رسول اللّه ـ ﷺ ـ بالاحتفاظ بمصاحفهم المتغايرة في الترتيب للترتيبِ الثابت عند الجميع؟

تلك الملابسات تجعلنا نشك في صحة الروايات التي توهم أنه كانت بأيدي بعض الصحابة مصاحف مخالفة لمصحف عثمان في الرسم والترتيب.

ولو كان لعليٍّ مصحفٌ مخالف لمصحفِ أبي بكر وعثمان في ترتيبه لَعضَّتْ عليه الشيعة بالنواجذ كدأبهم في كل ما يتصل بعلي من قريب أو من بعيد ولكن الواقع أنه لم يعثر على هذا المصحف أحد وما رآه. ولقد روي عن محمد بن سيرين أنه قال:

«تَطلّبتُ ذلك الكتاب وكتبتُ فيه إلى المدينة فلم أقدر عليه»[(١)].

ومن هنا نملك الجزم بأنه لم يكن في الأمة قطّ قرآن غير هذا القرآن. ولم يُعرفْ له ترتيبٌ غير هذا الترتيب. فإن هذا الترتيب من عند اللّه وليس من عند الناس كما أن هذا القرآن من عند اللّه وليس من عند الناس.

**نظم السور دليل على أنه توقيفي:**

وللإمام السيوطي نكتة لطيفة في هذا الباب، فإنه يستدلّ بنظم السور على أن ترتيبها توقيفي.

يقول ـ رحمه اللّه ـ:

«قلت: وما يدل على أنه توقيفيٌّ كون الحواميم رُتِّبت ولاء وكذا الطواسين. ولم ترتّب المسبّحات ولاء. بل فُصلَ بين سورها. وفصل بين «طسم» الشعراء و«طسم» القصص «بطس» مع أنها أقصر منها. ولو كان الترتيب اجتهادياً لَذُكرت المسبّحاتُ ولاءً

---

(١) الإتقان في علوم القرآن: ١ / ٥٨.

وأُخِّرَتْ «طس» عن القصص»[1].

وللإمام الزركشي أيضاً لفتة إلى هذا الجانب، حيث يقول:

«لترتيب وضع السور في المصْحف أسباب تُطْلِعُ على أنه توقيفي صادر عن حكيم»[2].

## روايات في أن ترتيب السور توقيفي:

ثم هناك روايات تقطع بأن ترتيب السور في مصحفنا ليس من عمل الصحابه الذين تصدوا لجمع القرآن. وإنما هو مما تَلقّوه من رسولهم ـ ﷺ ـ.

فعن ابن مسعود أنه قال في بني إسرائيل والكهف ومريم وطه والأنبياء:

«إنهن من العتاقِ الأُول وهُنَّ من تِلادي»[3].

وعن أوس بن أبي أوس حذيفة الثقفي قال: «كنتُ في الوفد الذين أسلموا من ثقيف». فذكر الحديث وفيه:

«فقال لنا رسول اللّه ـ ﷺ ـ: طرأ عليَّ حزبي من القرآن فأردتُ ألا أخرج حتى أقضيه»، قال: فسألنا أصحاب رسول اللّه ـ ﷺ ـ قلنا: كيف تُحزِّبونَ القرآن؟ قالوا:

«نُحزِّبهُ ثلاثَ سور وخمسَ سور وسبع وتسع سور وإحدى عشرة وثلاث عشرة وحزب المفصّل من «ق» حتى نختم»[4].

وعن أبي عبدالرحمن السلمي قال: كانت قراءة أبي بكر وعمر وعثمان وزيد بن ثابت والمهاجرين والأنصار واحدة. كانوا يقرؤون قراءة العامة. وهي القراءة التي قرأها رسول اللّه ـ ﷺ ـ على جبريل مرتين في العام الذي قُبض فيه. وكان على طول أيامه

---

(١) الإتقان في علوم القرآن: ١ / ٦٣، أسرار ترتيب القرآن ص: ٧٢.

(٢) البرهان في علوم القرآن: ١ / ٢٦٠.

(٣) صحيح البخاري مع فتح الباري: ٩ / ٣٧، باب تأليف القرآن.

(٤) رواه أبو داود في باب تحزيب القرآن رقم ١٣٩٣، وأخرجه ابن ماجه في إقامة الصلاة باب في كم يستحب أن يختم القرآن رقم ١٣٤٥.

يقرأ مصحف عثمان رضي الله عنه ويتخذه إماماً.

ويقال إن زيد بن ثابت شهد العرضة الأخيرة التي عرضها رسول اللّه - ﷺ - على جبريل - عليه السلام - وهي التي بيّن فيها ما نسخ وما بقي.

قال أبو عبدالرحمن السلمي: قرأ زيد بن ثابت على رسول اللّه - ﷺ - في العام الذي توفّاه اللّه فيه مرتين. وإنما سميت هذه القراءة قراءة زيد بن ثابت لأنه كتبها لرسولِ اللّه - ﷺ - وقرأها عليه. وشهد العرضة الأخيرة. وكان يُقرىءُ الناسَ بها حتى مات. ولذلك اعتمده أبو بكر وعمر في جمعه، وولّاه عثمان كتبة المصاحف - رضي اللّه عنهم - أجمعين[1].

وقال عثمان - رضي اللّه عنه - «إن رسول اللّه - ﷺ - كان مما ينزل عليه من السور التي يذكر فيها كذا وكذا فإذا أنزلت عليه الآيات يقول: ضعوا هذه الآيات في موضع كذا وكذا. فإذا نزلت عليه السورة يقول: ضعوا هذه في موضع كذا وكذا»[2].

تلك الروايات صريحة جازمة بأن السور في مصاحفنا هذه على نفس الترتيب الذي كانت عليه في عهد رسول اللّه، وأنه - عليه السلام - هو الذي حدّد لكل سورة مكانها في المصحف حسبما أمره وجبريل - عليه السلام -.

أما رواية ابن مسعود - رضي اللّه عنه - فوجه الدلالة فيها أن السور جاءت فيها نسقاً كما هي في المصحف الآن.

وأما الرواية الثانية - وهي رواية أوس - فهي أيضاً واضحة في دلالتها فإن عدد السور من البقرة إلى الحجرات ثمانية وأربعون. ومجموع عدد السور المحزّبة في الرواية أيضاً ثمانية وأربعون. فهذه دلالة حاسمة على أنّ ترتيب السور لم يختلف شيئاً عمّا كان عليه في عهد رسول اللّه - ﷺ -.

وأما الرواية الثالثة - وهي رواية أبي عبدالرحمن السلمي - فهي تفيد أن النبي

---

(١) شرح السنة: ٤/ ٥٢٥، ٥٢٦.

(٢) السنن الكبرى للبيهقي: ٢/ ٤٢.

ـ ﷺ ـ كان يجلس مع جبريل ـ عليه السلام ـ في كل رمضان وكان يقرأ عليه كل ما نزل عليه من القرآن. فلما كان عامه الأخير عرض عليه القرآن كله مرتين. وكانت العرضة الأخيرة تضمّ معهما زيدَ بن ثابت ـ رضي اللّه عنه ـ.

فهل كان النبيُّ ـ ﷺ ـ يعرضُ السور على جبريل ـ عليه السلام ـ بدون ترتيب، وكان يسردها سرداً كيفما اتفق؟ أم كان هناك ترتيبٌ حكيم يلتزمه في كل مرة؟

ثم إذا كان معهما زيد بن ثابت في العرضة الأخيرة، وسمع القرآن كله من رسول اللّه بترتيب خاص ونسق معيّن في سوره وآياته، فهل يتصور عنه أن يعدل عن ذلك الترتيب حين وكل إليه جمعُ القرآنِ في عهد أبي بكر ـ رضي اللّه عنه ـ؟

وأما الرواية الأخيرة وهي رواية عثمان رضي اللّه عنه فهي أيضاً صريحة في هذا المعنى، فإنها تفيد أن النبي ـ عليه السلام ـ هو الذي كان يبيّن موضع كل سورة في المصحف بعد ما كان ينجلي عنه الوحي. وكان يبيّن حسبما كان يعلّمه شديد القوى.

تلك الملابسات تلزمنا إلزاماً بأن نقول:

لم يكن في الأمة قطّ قرآن غير هذا القرآن. ولم يُعرفْ له ترتيبٌ غير هذا الترتيب، فإن هذا الترتيب من عند اللّه، كما أن هذا القرآن من عند اللّه.

## شبه إجماع على أن ترتيب السور توقيفي:

وبفضل هذه الحجج القوية الصارمة لم يُسمعْ بين أعلام الأمة وعلمائها خلافٌ في هذا الشأن، فهم شِبْهُ مجمعين على أن ترتيب السور توقيفي. ولهم أقوال وجيهة في هذا الباب فمن ذلك ما ذكره برهان الدين الكرماني في تفسير قوله تعالى[1]:

﴿يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم...﴾ حيث قال:

«إن التوحيد أول ما يلزم من المعارف، فكان هذا أول خطاب خاطب اللّه به

---

(١) توفي الكرماني بعد سنة ٥٠٠ وكتابه (البرهان في متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان) مخطوط بالأزهرية (١٩٤) علوم قرآن.

الناس في القرآن. ثم قال ـ رحمه الله ـ:

«فإن قيل: سورة البقرة ليست من أول القرآن نزولاً فيحسن فيها ما ذكرت، قلت: أول القرآن سورة الفاتحة ثم البقرة ثم آل عمران، على هذا الترتيب إلى سورة الناس، وهكذا هو عند الله في اللوح المحفوظ، وهو على هذا الترتيب كان يعرضُ ـ عليه الصلاة والسلام ـ على جبريل ـ عليه السلام ـ كل سنةٍ ما كان يجتمعُ عنده منه، وعرض ـ عليه الصلاة والسلام ـ في السنة التي توفي فيها مرتين، وكان آخر الآيات نزولاً ﴿واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله﴾ فأمره جبريل أنْ يضعَها بين آيتي الربا والدين. . . ) إلى أن يقول:

ولو حلف إنسان أن يقرأ القرآن على الترتيب لم يلزم إلا على هذا الترتيب، ولو نزل جملة كما اقترحوا عليه بقوله ﴿لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة﴾ لنزل على هذا الترتيب.

وإنما تفرقت سُورهُ وآياته نزولاً، لحاجة الناس حالة بعد حالةً، ولأن فيه الناسخ والمنسوخ، ولم يكن ليجتمعا نزولاً، وأبلغ الحكم في تفرقه ما قاله سبحانه: ﴿وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث. . .﴾[1].

وقال أبو جعفر النحاس ـ رحمة الله ـ:

«المختار أن تأليف السور على هذا الترتيب من رسول الله ـ ﷺ ـ وروي ذلك عن علي ـ رضي الله عنه ـ[2].

وقال أبو بكر بن الأنباري في كتاب (الرد على من خالف مصحف عثمان):

إن الله تعالى أنزل القرآن جملة إلى سماء الدنيا، ثم فرّق على النبي ـ ﷺ ـ في عشرين سنة. وكانت السورةُ تنزل في أمرٍ يحدث، والآية جواباً لمستخبرٍ يسأل. ويُوقِفُ جبريل رسولَ الله ـ ﷺ ـ على موضع السورة والآي. فاتّساقُ السور كاتّساق الآيات

(١) البرهان في متشابه القرآن ص: ٥.
(٢) البرهان في علوم القرآن ١ / ٢٥٨.

والحروف. فكلّه عن محمد خاتم النبيّين - عليه السلام - عن رب العالمين. فمن أخّر سورة مقدمة أو قدّم أخرى مؤخرة فهو كمن أفسد نظم الآيات وغيّر الحروف والكلمات. ولا حجة على أهل الحق في تقديم البقرة على الأنعام، والأنعام نزلت قبل البقرة لأن رسول اللّه - ﷺ - أُخِذَ عنه هذا الترتيبُ وهو كان يقول: ضعوا هذه السورة موضع كذا وكذا من القرآن[١].

وقال القاضي أبو بكر - رحمه اللّه -:

«ومَنْ نَظَمَ السورَ على المكي والمدني لم يَدْرِ أين يضعُ الفاتحة، لاختلافهم في موضع نزولها. ويضطرُّ إلى تأخير الآية في رأس خمس وثلاثين ومائتين من البقرة إلى رأس الأربعين. ومَنْ أفسدَ نظمَ القرآن فقد كفرَ به»[٢].

وقال ابن الحصار - رحمه اللّه -:

«ترتيب السور ووضع الآيات مواضعها إنما كان بالوحي. وكان رسول اللّه ﷺ يقول: ضعوا آية كذا في موضع كذا. وقد حصل اليقين من النقل المتواتر بهذا الترتيب من تلاوة رسول اللّه - ﷺ - ومما أجمع الصحابةُ على وضعه هكذا في المصحف»[٣].

وذكر ابن وهب في جامعه وابن أشتة في كتاب المصاحف من طريق ابن وهب عن سليمان بن بلال، قال: «سمعت ربيعة يسأل: لِمَ قدمت البقرة وآل عمران، وقد نزل قبلهما بضع وثمانون سورة وإنما نزلتا بالمدينة؟ فقال ربيعة: قد قُدِّمتا وأُلِّفَ القرآنُ على علمٍ ممن ألفه، وقد اجتمعوا على العلم بذلك، فهذا مما ننتهي إليه ولا نسأل عنه»[٤].

وقال الزركشي - رحمه اللّه -:

«وأما ترتيب السور على ما هو عليه الآن فاختلف: هل هو توقيف من النبي

---

(١) التذكار في أفضل الأذكار ص: ٢٠، ٢١.

(٢) البرهان في علوم القرآن: ١ / ٦٢.

(٣) الإتقان في علوم القرآن: ١ / ٦٢.

(٤) تفسير القرطبي ١ / ٥٩، ٦٠، والإتقان ١ / ٦٣.

ـ ﷺ ـ؟ أو من فعل الصحابة؟ أو يفصّل؟ في ذلك ثلاثة أقوال:

مذهب جمهور العلماء، منهم مالك والقاضي أبو بكر بن الطيب ـ فيما اعتمده واستقرّ عليه رأيه من أحد قوليه ـ إلى الثاني. وأنه ـ ﷺ ـ فوّض ذلك إلى أمتّه بعده.

وذهبت طائفة إلى الأول. والخلاف يرجع إلى اللفظ، لأن القائل بالثاني يقول: إنه رمز إليهم بذلك لعلمهم بأسباب نزوله ومواقع كلماته؟ ولهذا قال الإمام مالك: إنما ألّفوا القرآن على ما كانوا يسمعونه من النبي ـ ﷺ ـ مع قوله بأن ترتيبَ السورِ اجتهاد منهم فآلَ الخلاف إلى أنه: هل ذلك بتوقيفٍ قولي أم بمجرد استناد فعلي»[1].

ولا نريد أن نطيل. فقد بلغ الأمر غايته من الوضوح ولم يبق مجال للشك في أن ترتيب الآيات والسور يختلف تماماً عن ترتيب نزولها. وأن هذا الترتيب ليس هكذا اعتباطاً. وليس من عند الناس. وإنما هو ترتيب حكيم صدر عن عَليٍّ حكيم، فإنه جاء عن طريق الوحي إلى النبي ـ ﷺ ـ ومنه إلى الأمة.

والإمام الشوكاني أيضاً يعترف بأن هذا الترتيب يختلف عن ترتيب النزول، وأنه قد قُدِّمَ فيه ما نزل متأخّراً وأخّر ما نزل متقدماً، إلا أن الذي أفسد عليه القضية، هو أنه يعتبر ـ خطأً ـ هذا التقديمَ والتأخير من عمل الصحابة الذين تصدوا لجمع القرآن، ولا يعتبره من عند الله مع تضافرِ الأدلةِ وانعقادِ الإجماع عليه.

ثم هو يتدرّج من ذلك إلى دعوى كبيرة مذهلة، ويقول:

أيّ معنى لطلب المناسبة بين آيات القرآن في مثل هذه الحالة؟

ويسمّيه تضييع الأوقات وإنفاق الساعات في أمرٍ لا يعود بنفعٍ على فاعله ولا على من يقف عليه من الناس.

ولا شك أن هذه الدعوى أصبحت الآن دعوى منقوضة بعد ما أُتي بنيانُها من القواعد، فخرّت جدرانها وانهدّت أركانها، ولم يبق لها أساس تعتمد عليه.

* * * * *

---

(١) البرهان في علوم القرآن: ١ / ٢٥٧.

# الفصل الثالث
## الشبهة الثالثة والرد عليها

بقيت هنا شبهة ثالثة: وهي أن كلام العرب ـ في عمومه ـ كان يحمل طابع الاقتضاب. وكان عارياً من النظم والارتباط. فلا جرم أن يكون القرآن على شاكلته، لأنه نسج على منواله، حيث قال ـ تعالى ـ:

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [إبراهيم: ٤].

وقال ـ تعالى ـ:

﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الزخرف: ٣].

وتلك شبهة أثارها الإمام الشوكاني في تفسيره حيث قال:

«إن اللّه ـ سبحانه ـ وصف هذا القرآن بأنه عربي. وأنزله بلغة العرب. وسلك فيه مسالكهم في الكلام. وجرى به مجاريهم في الخطاب. وكانت عادتهم أن يأتوا بفنون متخالفة وطرائق متباينة في المقام الواحد، فضلاً عن المقامين، فضلاً عن المقامات»[(١)].

وسبقه بنفس الشبهة أبو العلاء محمد بن غانم، حيث قال:

«إن القرآن إنما وقع على الاقتضاب، الذي هو طريقة العرب من الانتقال إلى غير ملائم»[(٢)].

---

(١) فتح القدير: ١ / ٧٣.

(٢) الإتقان في علوم القرآن: ٢ / ١٠٩.

### شبهة لا يقرها الواقع:

وتلك شبهة قد تبدو لبعض الناس وجيهة وقوية. ولكنها مثل أختيها لا تكاد تثبت أمام النقد. ولا تكاد تروج أبداً إلاّ عند من لم يتضلع من لسان العرب ولم يتذوّق طعمه.

وأما من عاش فترة في جوّها وبيئتها وعبّ وارتوى من معينها فهو يعلم جيداً، أن العرب كانوا أبعدَ الناس عن الاقتضاب وكانوا أرغبهم في دقّة السبك وحسن النظام. حتى إنه كان يُعتبر عندهم مقياساً لجودة الكلام وبلاغته. فقد قال بعض بلغاء العرب:

«البلاغة أن يكون أول كلامك يدل على آخره، وآخره يرتبط بأوله»[(١)].

وقال بعضهم: «البلاغة: القوة على البيان مع حسن النظام»[(٢)].

وقال آخر: «أبلغ الكلام ما حَسُنَ إيجازُهُ، وقَلَّ مجازه، وكثر إعجازه وتناسبت صدوره وأعجازه»[(٣)].

### اهتمام العرب بحسن النظام:

وقال بعض الشعراء ـ وهو عمر بن لجاء ـ لصاحبه: أنا أشعر منك. قال: ولِمَ؟ قال: لأني أقول البيت وأخاه، وتقول البيت وابن عمّه[(٤)].

فلننظر كيف يجعل هذا الشاعر البيت أخا البيت إذا أشبهه وارتبط به ارتباطاً كاملاً، وكان حقه أن يوضع إلى جنبه. فأما إذا كان دون ذلك، فهو يسمّيه ابن عمّه ولا يعترف له بالأخوة.

ومن هنا نعرف أن العرب ما كانوا يقنعون بمجرد وجود الارتباط بين الأبيات، فهذا شيء بدهيّ، ولا بدّ منه، بل كانوا فوق ذلك يقيسون ضعفه وقوته وجودته

---

(١) العمدة لابن رشيق: ١ / ٢٤٤.
(٢) العمدة: ١ / ٢٤٤.
(٣) العمدة: ١ / ٢٤٦.
(٤) البيان والتبيين للجاحظ: ١ / ١٢٨، ١٢٧.

وركاكته. فإن كان الارتباط قوياً مستجاداً نال إعجابهم وتقديرهم، وإلاّ سقط من أعينهم وأصبح سلعة كاسدة في سوقهم.

وقال نوفل بن سالم لرؤبة بن العجاج: يا أبا الجحاف، مت متى شئت. قال: وكيف ذلك؟ قال: رأيت عقبة بن رؤبة ينشد رجزاً أعجبني. قال: إنه يقول، لو كان لقوله قِران.

وأنشد ابن الأعرابي:

وبــاتَ يــدرسُ شعــراً لا قــران لــه　　　قــد كــان ثقّفــه حــولاً فمــا زادا[1]

فنرى رؤبة لا يعيب على ابنه إلا عدمَ تَمكُّنِه من القران. وكذا ابن الأعرابي لا يشكو في بيته إلا قلة القران. فإن القران هو الذي يعطي الكلام رونقاً وبهاء. وهو الذي يجعل الكلام كلاماً. فإذا لم يكن فيه قران. فهو ليس كلاماً، وإنما هو نوع من الهيمان كما قال تعالى: ﴿ألم تر أنهم في كل واد يهيمون﴾.

وأنشد أبو عبيدة في الخطيب يُطَوِّلُ كلامه، ويكون ذَكُوراً لأول خطبته، وللذي بنى عليه أمره، وإنْ شَغَبَ شاغب فقطع عليه كلامه، أو حدث عند ذلك حَدَثٌ يحتاج فيه إلى تدبير آخر، وصل الثاني من كلامه بالأول، حتى لا يكون أحد كلاميه أجود من الآخر:

فــإنْ أحــدثــوا شغبــاً يقطّــع نظمهــا　　　فــإنــك وَصّــالٌ لمــا قطــع الشغــب

ولــو كنــت نســاجــاً ســدوت خطــابهــا　　　بقولٍ كطعمِ الشهدِ بالباردِ العذب[2]

وقال أبو العاص: أنشدني في ذلك أبو البيداء الرياحي:

وشعــرٍ كبعــرِ الكبــش فــرّق بينــه　　　لسان دَعِيٍّ في القريض دخيل[3]

---

(١) البيان والتبيين: ١ / ٥٠.

(٢) البيان والتبيين: ١ / ١٢٢.

(٣) البيان والتبيين: ١ / ٤٩.

أي كما أن بعر الكبش يقع متفرقاً، غير مؤتلف ولا متجاور، فكذلك أبيات الشعر تراها أحياناً مختلفة متباينة متنافرة، مع أن الأصل في الشعر أن يكون مُحْكَمَ النسج، متلاحم الأجزاء، متداخلاً بعضه في بعض، حتى كأن القصيدة أو المقطوعة بأسرها كلام واحد.

**كلمة جميلة لابن رشيق:**

ولابن رشيق كلمة جميلة في هذا الموضوع، وهي تدل على دقة نظره وتذوّقه للشعر العربي. يقول ـ رحمه الله ـ:

«ومن الشعر مطبوع ومصنوع. فالمطبوع هو الأصل الذي وضع أولاً. وعليه المدار. والمصنوع ـ وإن وقع عليه هذا الاسم ـ فليس متكلفاً تكلّف أشعار المولّدين. لكن وقع فيه هذا النوع الذي سموه صنعة من غير قصد ولا تعمّل، لكن بطباع القوم عفواً. فاستحسنوه ومالوا إليه بعض الميل، بعد أن عرفوا وجه اختياره على غيره. حتى صنع زهير الحوليات على وجه التنقيح والتثقيف: يصنع القصيدة ثم يُكَرِّرُ نظره فيها خوفاً من التعقب بعد أن يكون قد فرغ من عملها في ساعة أو ليلة. وربما رصد أوقات نشاطه فتباطأ عملُه لذلك. والعرب لا تنظر في أعطاف شعرها بأن تجنّس أو تطابق، أو تقابل، فتترك لفظةً للفظةٍ أو معنى لمعنى كما يفعل المحدثون. ولكن نظرها في فصاحة الكلام وجزالته، وبسط المعنى وإبرازه، وإتقان بنية الشعر، وإحكام عقد القوافي، وتلاحم الكلام بعضه ببعض، حتى عَدّوا من فضل صنعة الحطيئة حسن نسقه الكلام بعضه على بعض في قوله:

فـلا وأبيـك مـا ظلمـت قُـرَيـع ... بـأن يبنـوا المكـارم حيـث شـاءوا

ولا وأبيـك مـا ظلمـت قُـرَيـع ... ولا بَـرِمـوا لـذاك ولا أسـاءوا[1]

بِعَثْـرةِ جـارهـم أن يُنعِشُـوهَـا ... فيَغْبُـرَ حـولـه نَعَـمٌ وَشـاء[2]

---

(١) ويروى: (ولا برموا بذاك) ويروى: (ولا عنفوا بذاك) أي بالأمر الذي كسبوا به المحامد. ولكنهم أحسنوا إليّ حين طردتموني فآووني.

(٢) معنى ينعشوها: يرفعوها، أي: يعطونه عطية تسدّ خلته، ويبقى له مال من نعم وشاء. ويروى: =

فَيَبْنِي مجدهم ويُقِيمَ فيها ... ويُمشِي إن أُرِيدَ به المَشَاء[1]

وإنّ الجارَ مثلُ الضيفِ يَغدو ... لِوِجهَتِه وَإن طالَ الثَّواء

وإني قد عَلِقتُ بحبل قوم ... أَعَانَهُمُ على الحَسَبِ الثَّرَاء[2]

وكذلك قول أبي ذؤيب يصف حمر الوحش والصائد:

فوردنَ والعَيّوقُ مقعدَ رابىءِ ... الضرباء خلف النجم لا يتتلّع[3]

فكَرَعن في حَجَرات عذبٍ باردٍ ... حَصِبِ البطاح تغيب فيه الأَكْرُع[4]

فشربن ثم سمعن حسّاً دونه ... شَرَفُ الحجاب وَرَيبَ قرع يُقْرَع[5]

فنَكِرْنَه فنَفَرنَ فامتَرست به ... هَوجَاء هاديةٌ وهادٍ جُرشُعُ[6]

فَرَمى فأنفذَ من نَحوصٍ عائطٍ ... سهماً فخرّ وريشُه متصمّع[7]

---

= لعثرة جاركم، يعني الحطيئة نفسه.

(١) يبني مجدهم: يمدحهم ويذكر مآثرهم. يمشي: تكثر ماشيته، وهو من الإمشاء. والاسم: المشاء بفتح الميم ـ وهو الكثرة، وقد مشى المال: إذا تناتج وتناسل.

(٢) الثراء: كثرة المال. أي أعانهم المال على كسب المحامد وإنجاز معالي الأمور.

(٣) «فوردن» يعني الحمر، و«العيوق»: النجم الذي يطلع خلف الثريا «الرابىء» المرتقب. و«يتتلّع» يتقدم، و«النجم»: الثريا. يقول: وردت هذه الحمر الماء في السحر وهو وقت تميل فيه الثريا للغروب. والعيوق خلفها قريب قرب الرقيب من المتقامرين.

(٤) كَرَع في الماء يَكرَع كُرُوعاً: إذا تناوله بفيه من موضعه من غير أن يشرب بكفّيه ولا بإناء. أي: مدت الحمير أعناقها لتشرب، وحَجَرات الشيء: جوانبه. «الحصب» الذي فيه حصباء. و«البطاح»: بطون الأودية. وإذا كان الماء على حصباء كان أعذب له وأمرأ و«الأكرع»: القوائم.

(٥) «الحس» الصوت الخفي. «شرف»: المكان العالي. و«الحجاب»: حجاب الصائد لأنه يستتر بشيء. و«ريب قرع يقرع» أي: وسمعن ما يريبهن من قرع قوس وصوت وتر.

(٦) «امترست»: دنت منه «هادية»: متقدمة، «وجرشع»: حمار عريض الجنبين، «هوجاء»: الأتان التي ترفع رأسها لتتقدمه، أو التي فيها هَوَج من سرعتها، يقول: نكرت الحمير صوت الصائد، فنفرت والتصقت أتان متقدمة هوجاء بالحمار الضخم المتقدم، والتصق هو بها أيضاً.

(٧) «فرمى»: أي الصائد، «أنفذ» السهم الرميّة: جعله ينفذها، «نحوص»: التي لم تحمل. =

فبـــدا لـــــه أقـــرابُ هـــــاد رائغـــاً عنه فعيَّثَ في الكنانة يُرجِعُ[1]
فَـرَمَـى فـألحَـقَ صـاعـديّـاً مِطْحَـراً بالكشحِ فاشتملت عليه الأضلُع[2]
فــأبــدَّهُــن حتــوفَهُــنَّ فهــارب بــذَمــائــه أو بـارك مُتَجَعْجِـعُ[3]

فأنت ترى هذا النسق بالفاء كيف اطّرد له ولم ينحلّ عقده، ولا اختلّ بناؤه ولولا ثقافة الشاعر ومراعاته إياه لما تمكن له هذا التمكن»[4].

## حجة داحضة للأصمعي:

ومن هنا نرى ابن رشيق أقرب إلى سداد القول وأشدّ إدراكاً لطبيعة الموضوع من الأصمعي، إذ يعيب الحطيئة ويقول:

«وجدت شعره كله جيداً، فدلّني على أنه كان يصنعه، وليس هكذا الشاعر المطبوع إنما الشاعر المطبوع الذي يرمي بالكلام على عواهنه وجيّده على رديئه».

وكم نتعجب حين نرى الشاطبي أيضاً يوافق الأصمعي في قوله ويؤيّده في رأيه حيث يقول:

«وما قال (الأصمعي) هو الباب المنتهج والطريق المهيع عند أهل اللسان»[5].

---

= و«عائط»: عاقر. متصمّع: أي ملتزق بالدم.

(١) «أقراب هاد» أي خواصر هذا الحمار المتقدم، «رائغاً»: أي منصرفاً. عيّث في الكنانة: أدار يده فيها لطلب السهم. «يرجع» أي: يأخذ مرة ثانية من السهام ليرمي به.

(٢) بنات صعدة: حمر الوحش، والنسبة إليها صاعديّ على غير قياس، و«مطحر» بكسر الميم: السهم البعيد الذهاب، و«الكشح»: الخاصرة.

(٣) فأبدّهن حتوفهن: أي أعطى كل واحدة منهن حتفها على حدة، لم يقتل اثنتين بسهم واحد، ولم يقتل واحداً ويدع واحداً، وهو مأخوذ من البدّة وهي النصيب، يقال: أبدّهم العطاء: إذا أعطى كل واحد منهم بدّته، أي نصيبه على حدة، ولم يجمع بين اثنين، و«الذماء» بقية النفس، و«المتجعجع»: الذي ضرب بنفسه الأرض من وجع أصابه.

(٤) العمدة لابن رشيق: ١ / ١٢٩، ١٣٠.

(٥) الموافقات في أصول الشريعة: ٢ / ٨٥.

ليت شعري هل جودة القصيدة تنهض دليلاً على كونها مصنوعة؟ وهل يكون عاراً على الشاعر أن يكون شعره كله جيداً؟ وماذا يقال إذاً في زهير وحولياته؟ وهل يقال: إن زهيراً لم يكن شاعراً مطبوعاً؟ لأنه لم يكن يرمي بالكلام على عواهنه وجيّده على رديئه!

علماً بأن صَيْرفيَّ الشعر والأدب، أعني سيدنا عمر بن الخطاب كان يفضّله على سائر الشعراء، وكان يقول: «أشعر الشعراء صاحب من، ومن، ومن»[١].

كان يقصد بذلك أبياته الحكميّة في معلقته، تلك الأبيات التي تبتدىء بمن، مثل قوله:

| | |
|---|---|
| ومَنْ يجعل المعروفَ من دون عرضه | يفره ومن لا يتّق الشتمَ يُشتمِ |
| ومن يجعل المعروف في غير أهله | يَعُدْ حَمدُه ذماً عليه ويندم |
| ومن يغترب يحسب عدواً صديقه | ومن لا يكرِّمْ نفسه لا يكَرَّمِ[٢] |

**الارتجال من سجية العرب ولا عجب:**

وهنا تحضرنا كلمة رائعة ناضجة للإمام الفراهي حيث يقول:

«الذي لا يجد في نفسه قدرة على الارتجال يظنّه أمراً بعيداً، ولا يؤمن به. لا سيما إذا رأى كلاماً مُلِيءَ حكمةً ودقة وتنوعاً وإصابة، فإذا رأى سرعةَ تصنيفٍ في أحدٍ ظن أنه إنما ألّف ما جمع من المطالب في مدة طويلة. وأما أنا فلا أشك أن الارتجال سواء كان في خطبة أو شعر أو كان في تأليف أو تصنيف حكمي أمر ممكن وليس من المستبعد الذي يُعَدُّ محالاً، فإنه أمر قد وقع ويقع. نعم إنه قليل. وأكثر هذا القليل غير مستجاد. كما هو الشأن عند الرازي في سرعة تصنيفه فإنّه ما جاء إلا في وهن كنسجِ العناكب.

ولكي أُقَرِّبَ لك هذا الأمرَ أضرب لك مثل الريح المعصرة فحين لا ترى السماء

---

(١) ديوان زهير: ص ٥.

(٢) جمهرة أشعار العرب: (١ / ٢٩٨، ٢٩٩) ت: الدكتور محمد علي الهاشمي.

إلا كحلبة فإذا بريح باردة ثم بقطعة غمامة. وبينما ننظر إذ هي غطّت السماء ثم ما هي إلا سَحٌّ وتَسْكاب حتى فاض السهلُ وأفعم البطاح.

فكما أن الجوّ ممتلىء بالبخار، ومَسُّ الريح جعله غمامةً ثم وابلاً ثم سيلاً كأن مُحْتَلِباً يمسُّ ضرعَ لَقحةٍ، فكذلك عقلك ممتلىء خيالاً وعلماً لا تحسّ به، ولا تريد أن تقول أو تكتب شيئاً حتى إن وافته باعثةٌ ودعته داعية أنشأت العجائب لا تدري أين كانت ومن أين جاءت. فتسمّيها إلهاماً وإلقاء ولستَ مخطئاً في هذه التسمية.

وليس الارتجال في الأقوال بأعجب من الارتجال في الفعال. ألا ترى أن العرب كيف بلغوا الغاية في التمدّن في قليل من الزمان.

فقوم تراهم يمشون وكأنهم واقفون. وقوم يمرّون كأنهم برق خاطف. فإذا سمعت أن العرب كانوا يلقون من غير رويّة خطباً بليغة طوالاً، أو ينشدون القصائد الغرار ارتجالاً، أفلا تظنهم أجدر بهذا من أقوام يدبّون دبيب النّمل.

وقد علمت مما نطقوا في مواسمهم وحروبهم من الخطب والقصائد والرجز حتى كأنهم لم يملكوا أن يردّوا شقشقة لسانهم وجيش صدورهم فتراهم أولى باسم الحيّ الناطق ممن سواهم»[1].

وعلى هذا فلا يصحُّ أبداً أن نُصِرَّ على القول بأن الأصل في العرب هو الاقتضاب، فإذا فوجئنا بما يخالف ذلك علّلناه بأنه لا يصلح أن يكون مقياساً لطبيعة الكلام العربي، وأنه كلام مصنوع وليس مما جاء على طبيعة العرب.

ثم نضيف إليه ما هو أشد منه وأدهى فنقول: إن القرآن أيضاً نزل على الاقتضاب مراعاة لطبيعة العرب!

### منشأ فكرة الاقتضاب:

قد يقال: إذا كان الأصل في الكلام ـ ولا سيّما في كلام العرب ـ هو جودة السبك

---

(١) جمهرة البلاغة للإمام الفراهي ص: ٨٣، ٨٤.

وحسن النظام فكيف سار مع الركبان ووقر في الأذهان أن الطابع الغالب في كلام العرب هو الاقتضاب، وعادتهم في كلامهم هي الانتقال من أمر إلى أمر غير ملائم؟

ويمكن أن يقال ردّاً على هذا السؤال، إن العرب لكونهم أغنى الأمم فطنة، وأخصبهم مادة وأذكاهم أفئدة كانوا يأنفون فضول الكلام. وكانوا يستحلون منه ما كان على غاية الإحكام، ولذلك نرى أبا تمام لما أراد أن يعطي البحتريّ معياراً للكلام المستجاد قال له:

«ولتكن كأنك خيّاط يقطع الثياب على مقادير الأجساد»[١].

ومثله ما روي عن الثعالبي حيث قال:

«البليغ مَنْ يحوكُ الكلام على حسب الأماني ويَخيطُ الألفاظ على قُدودِ المعاني»[٢].

وكان من المثل السائر عندهم:

«حَسْبكَ من القلادةِ ما أحاطَ بالعنق»[٣].

وناهيك به شاهداً على ذوقهم وطبيعتهم في كلامهم.

ثم ليس هذا غاية الأمر بل الكلام الذي كان يهزّهم وكان يحوز إعجابهم هو ما كان على غاية الإيجاز وكانت هي ضالة بلغائهم، فإذا تَيسَّرتْ لأحدهم أصبحت ملء عين أديبهم وأمنية أريبهم وهتف كلّهم: هي هي. هذي التي كنت أريدها ولا أدركها.

ونذكر هنا بعض ما أُثِرَ في تعريف البلاغة، حتى نستوعب صورة واضحة عنها، ونعرف مكانتها عند أهلها وذويها من العرب الأقحاح. قال بعضهم:

«البلاغة إجاعة اللفظ وإشباع المعنى»[٤].

---

(١) زهر الآداب للقيرواني ١ / ١٥٢.
(٢) العمدة ١ / ١٢٨، زهر الآداب ١ / ١٥٣.
(٣) قيل لعقيل بن علّفة: لِمَ لا تطيل الهجاء؟ فقال: ذلك يضرب في وجوب الاكتفاء من الشيء بما تتم به الحاجة (المستقصى في أمثال العرب ٢ / ٦٢).
(٤) العمدة لابن رشيق ١ / ٢٤٢.

وسئل آخر فقال: «معان كثيرة في ألفاظ قليلة»[1].

وقيل لأحدهم: ما البلاغة؟ فقال: إصابة المعنى وحسن الإيجاز[2].

وقال خلف الأحمر: البلاغة لمحة دالة[3].

وقال الخليل بن أحمد: البلاغة كلمة تكشف عن البقية[4].

وقال معاوية لعمرو بن العاص: من أبلغ الناس؟ فقال: من اقتصر على الإيجاز وتنكب الفضول[5].

وقال ابن المعتز: البلاغة بلوغ المعنى ولمّا يطّل سفر الكلام[6].

فلما كان الأصل في كلام العرب تنكب الفضول وبلوغ المعنى ولمّا يطل سفر الكلام، كانوا يقفزون في كلامهم قفزات واسعة، وكانوا يحذقون من الحديث، ما كان مفهوماً لدى السامع، ولو لم يفعلوا ذلك لكان عاراً عليهم، فإنهم بطبيعتهم كانوا يحبون الكناية في الكلام، وكان ذكاؤهم يُريهم الكثيرَ في القليل، وكانوا يقولون ـ هم ينوّهون بميزتهم هذه ـ: «الحُرُّ تكفيه الإشارة».

وهذا الإيجاز في الكلام وسرعة الانتقال من مقال إلى مقال أصبحت آفة عند الذين جاءوا من بعدهم، فإنهم نشأوا على الإسهاب في القول والإفاضة في الكلام لقلة حظّهم من ذوق البلاغة وذكاء القريحة وحسن البيان.

فلما استعصت عليهم متابعة الشاعر العربي في تخلصاته السريعة اللطيفة اتّهموه بالاقتضاب، وكان أولى بهم أن يتّهموا أنفسهم هم بالعجز، دون أن يتّهموا التراث

---

(١) العمدة لابن رشيق ١ / ٢٤٢.
(٢) العمدة لابن رشيق ١ / ٢٤٢.
(٣) العمدة لابن رشيق ١ / ٢٤٢.
(٤) العمدة لابن رشيق ١ / ٢٤٢.
(٥) العمدة لابن رشيق ١ / ٢٤٣.
(٦) العمدة ١ / ٢٤٦.

الأدبي العربي بما هو منه بريء.

**كلمة لابن القيم:**

وقد نستأنس هنا بمقال الإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ حيث يقول:

«قال علماء علم البيان: التخلص هو أي يأخذ المؤلف في معنى من المعاني، فبينما هو فيه، إذ أخذ في معنى آخر غيره، وجعل الأول سبباً إليه، فيكون بعضه آخذاً برقاب بعض من غير أن يقطع المؤلف كلامه ويستأنف كلاماً آخر؛ بل يكون جميع كلامه كأنما أفرغ إفراغاً. . .

وقد ورد في القرآن العظيم من هذا النوع آيات كثيرة»[1].

وعلى هذا فنرى كثيراً من الأشعار يعدّه الناس من قبيل الاقتضاب، وما هو من الاقتضاب، وإنما هو لون من القفزات الواسعة البارعة والتخلصات السريعة البديعة، التي تكون من نتائج العقول المتوثّبة والقرائح المتوقّدة، ولكنها لا تكون إلا في متناول مَنْ تَذَوَّقَ اللغةَ واستأنس بها حتى صار من أهلها.

وللإمام الفراهي أيضاً كلمة عن الشعر الجاهلي فلننظر ماذا يقول، فإنه عاشه ردحاً من الزمان، وتأزّر به وارتدى وعَبَّ منه وارتوى حتى صار كأنه نشأ في عصره ودرج في عشّه، فأجدر به وأحرى أن يكون في رأيه فيه، كأنه واحد من أهله وذويه. يقول ـ رحمه الله ـ:

**الحذق في كلامهم يشبه كلامهم بالوثبات:**

«الحذق في كلامهم يشبه كلامهم بالوثبات، والقرآن كمطر السحاب من وجوه مختلفة، وهذه الوثبة من بعض وجوه المطر. قال امرؤ القيس في صفة السحاب ومطره:

لـــه وثبـــاتٌ كـــوثـــبِ الظبـــاء ... فـــواد خطـــاء وواد مطـــر

---

(١) كتاب الفوائد ص: ١٤٠، ١٤١.

فالكلام الذي لا حذفَ فيه لا محل فيه للعقل والنظر، وهو كدبيب النمل، والعرب لا تستجيده ولا تتأثر به لذكائهم وسرعة فهمهم وتنفّرهم عن الفضول، وإن كان ضرورياً عند غيرهم، وهذا مبسوط في بحث الحذف»[1].

ولا يعجزنا أن نسوق هنا نماذج من الشعر الجاهلي ونشبع الكلام على وجوه الربط فيها، ولكن المقام لا يسمح لنا بأن نفيض فيه الكلام، ونطيل عنده الوقوف أكثر مما وقفنا، فلا بأس بأن نؤجّله لفرصة أخرى.

وبالجملة، فإن ولوع العرب بالإيجاز وميلهم إلى إجاعة اللفظ وإشباع المعنى، مضافاً إليه تأثر الأجيال اللاحقة بالعجم وأساليبهم ومقاييسهم، هو الذي أوقع مَنْ أوقع في هذا الوهم ـ الوهم القائل بأن الاقتضاب من طبيعة العرب، ولو أنهم تخلصوا من رواسب العجمة ومقاييسها العجاف ثم تذوقوا كلام العرب وتَمَلّوهُ لما ذهبوا إلى ما ذهبوا إليه.

**المقتضب من كلام العرب وأسبابه:**

ومع ذلك فإننا لا نزعم أن كل ما وقع تحت أيدينا من كلام العرب على هذا النمط العاليَ، ولا نزعم أنه كلّه متّسم بحسن الارتباط وجمال النسق، ولا نزعم أنه لا يوجد هناك أصلاً ما يحكم عليه بالاقتضاب وعدم الانسجام أو افتراق الأجزاء وسوء التأليف.

ولكن لا يرجع ذلك إلى أن العرب كان من عادتهم الاقتضاب، أو أنهم ما كانوا يدركون ما للارتباط والانسجام من روعة وبهاء، وإنما الأمر على العكس، فإن العرب كانوا أعرفَ الناس بمزايا النظم وحسن التأليف.

يروى أن بنت الحطيئة قالت مرة للحطيئة:

«تركت قوماً كراماً ونزلت في بني كليب بعر الكبش»[2].

فنرى تلك الجارية كيف تَعيبهم بتفرق بيوتهم، وتَنزعُ عنهم وصفَ الكرامة لعدم

---

(١) دلائل النظام: ص ٦٧، ٦٨.
(٢) البيان والتبيين: ١ / ٤٩.

انتظامهم، وتبلغ كراهيتها إلى أنها تشبّههم ببعر الكبش الذي يقع متفرقاً غير مؤتلف ولا متجاور.

فالقوم الذين كانوا يعيبون تفرق البيوت لهذه الدرجة، وكانت أولادهم تشرب تلك المعاني السامية منذ نعومة أظفارها كيف نتصورهم يرضون بتفرقِ أبياتهم ولا يهتمّون بِحُسْنِ تأليفها مع أحاسيسهم المرهفة نحوها؟

فإن كنا نلمس اليوم اقتضاباً أو سوء تأليف في مواضع من كلامهم فلنلتمس له سبباً لا يتعارض مع هذه الظاهرة.

والذي يظهر لنا في هذا الموضوع هو أنه لا يوجد فيما يوجد فيه الاقتضاب أو سوء التأليف من قصائدهم وأشعارهم إلا بسبب أنها لم تدوّن لساعتها حين أنشدها أصحابها، وإنما بقيت تروى هكذا فترة طويلة مديدة من الزمان، فلم يكن لها أن تصمد أمام تطاول الزمان ولم يكن لها أن تنجو من تلاعب رواتها بين تقديم وتأخير وحذف وتغيير.

وإذ لم تصل إلينا تلك القصائد كما كانت عند أصحابها، فهي لا تصلح أبداً لأن تعتبر مادة أمينة للحكم على أصحابها في جميع أحوالها، كما أنها لا تصلح لأن تكون قاعدة ثابتة للحكم على منهج القرآن الذي نزل بلغتها وعلى أسلوبها.

ولقد تناول الدكتور عمر فروخ هذا الموضوع بدراسة موضوعية جادة، ووقف منه موقفاً رائعاً حيث يقول:

«الشعر الجاهلي» حقيقة تاريخية، ولكن بما أن العرب لم يدوّنوا هذا الشعر، بل اكتفوا بأن يتناقلوه خلفاً عن سلف وفي أزمنة متطاولة، وفي أحوال مؤاتية وغير مؤاتية فقد:

١ ـ نُسي بعضه فضاع.

٢ ـ نسب الراوون بعض هذا الشعر عمداً أو سهواً إلى غير قائله.

٣ ـ رغب بعض الأفراد بالدفاع عن أنسابهم أو باختلاق أحساب لهم ولأسلافهم،

فعمدوا إلى نظم أبيات، أو مقطعات، أو قصائد، أو أنهم سألوا بعض شعرائهم المعاصرين لهم مثل ذلك ثم نسبوه إلى شعراء متقدمين.

٤ ـ كذلك أراد نفر من اللغويّين أن يستروا خطأ وقعوا فيه فاختلقوا له شاهداً و«نحلوه» شاعراً قديماً، أو دسّوه في قصيدة قديمة معروفة، وربما فعل بعض رواة التاريخ والحديث واللغة مثل ذلك، ولقد كان للنزاع بين الأحزاب السياسيّة على الأخص يد غير مشكورة في «نحل الشعر»...

«وإذا كان الشك يتطرق إلى الشعر، فإن تطرّقه إلى النثر أسرع وأكثر، ذلك لأن النثر غير منظوم، فيسهل التلاعب به على الألسن، وبما أننا لسنا على ثقة من أن جميع النصوص النثرية قد رويت لنا عن الجاهلية بلفظها الأول. فقد أصبح لزاماً على من أراد أن يتعرف إلى أساليب الجاهليين في نثرهم أن يتلمسها في القرآن الكريم، فإن حجة ذلك الآية الكريمة ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبيّن لهم﴾[1].

وكم كان حسناً لو أن الناس وقفوا من الموضوع موقف الدكتور وجعلوا القرآن هو الحكم فيما التبس عليهم من أساليب العرب.

ولو أن الإمام الشوكاني ومن احتذى حذوه انتبهوا لتلك النقطة، ونحوا في الموضوع هذا المنحى لكانوا أولى بألا يقعوا فيما وقعوا فيه، ولكن لكل جواد كبوة ولكل صارم نبوة.

## كبوة إلى كبوة:

ثم إن تلك الكبوة أفضت بالإمام الشوكاني إلى كبوة أخرى أكبر منها، وهي أن يقيس نزول القرآن طوال فترة نزوله، وهي تمتدّ إلى نيف وعشرين سنة، على كلام شاعر أو خطيب في مختلف مراحل حياته.

وما هي حياته؟ حياة تمرّ بأطوار مختلفة متباينة وتكون مهدّدة دائماً بأزمات شرسة ونكبات قاسية، تفرض على الإنسان أحكامها، وتنتقل به من حالة إلى حالة أخرى لا

---

(١) تاريخ الأدب العربي للدكتور عمر فروخ: ١ / ٨٩، ٨٧، ٨٦.

يرضاها.

ولو افترضنا لإنسان حياة هادئة سعيدة مستقرة منذ أول لحظة من حياته إلى أن يجود بأنفاسه الأخيرة فهل تبقى هذه الحياة بمعزل عن الطوارىء الطبيعية، التي تطرأ على الحياة لا محالة، والتي ذكرها القرآن أكثر من مرّة، مثل ما جاء في سورة الحج:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ﴾ [الحج: ٥] الآية.

فإذا كان الإنسان دائماً عرضة للتغير، وكان في تغيّراته وتقلّباته أشبه شيء بريشة في فلاة تقلبها الرياح ظهراً لبطن فأيّ شَبَهٍ وأي مقارنة بين كلامه وكلام من تَنَزَّه عن جميع صفات النقص والضعف وله المثلُ الأعلى في السماوات والأرض؟!

إذاً فلا ندري كيف استساغ الإمام الشوكاني ـ واللّه يسامحه ـ أن يقيس كلام ربنا العزيز الجليل على كلام إنسان تافه حقير!!

ثم لا ندري كيف ذهل هو أو الشيخ عز الدين ـ رحمهما اللّه ـ عن الفارق الكبير بين التأليف والتنزيل، فإن القرآن إنما نزل في نيف وعشرين سنة، لا أنه أُلِّف في نيّف وعشرين سنة، وشتّان بينهما!!

* * *

تلك الشبهات الرئيسية التي أثيرت حول فكرة النظام، وهي من الوهن والضعف بحيث قد عرفنا ورأينا، وليس الخبر كالعيان.

ولا نريد أن نرخي للقلم عنانه بعدما صرّح الحق عن محضه وبرز الصريح بجانب المتن، وتبرهن تماماً أن تلك الشبهات ليس لها أساس، وأن مثلها كمثل شجرة خبيثة اجْتُثَّتْ من فوق الأرض مالها من قرار.

### قصة آدم وارتباطها بما بعدها:

ويعدما انتهينا من الردّ على تلك الشبهات، نودّ أن نبيّن وجوه المناسبة في تلك الآيات التي قال عنها الإمام الشوكاني:

«وإنما ذكرنا هذا البحث في هذا الموطن لأن الكلام هنا قد انتقل مع بني إسرائيل بعد أن كان قبله مع أبي البشر آدم ـ عليه السلام ـ فإذا قال متكلّف: كيف ناسب هذا ما قبله؟ قلنا: لا كيف:

فَـدَعْ عنـك نهبـاً صِيْـحَ فـي حجـراتـه وهاتِ حديثاً ما حديث الرواحل[1]

فلا بأس بأن نعرّج إلى وجوه المناسبة في تلك الآيات حتى يتبلور الموضوع تماماً ولا يقال: إنك ما زلت تجول وتصول حتى مزّقت تلك الشبهات مزقاً وبدّدتها بدداً، ولكنك لم تعالج أصل المشكلة، التي صار لأجلها ما صار وفار لأجلها من فار، فنقول وباللّه التوفيق:

إن المناسبة بين تلك الآيات وما قبلها ليست عزيزة المنال، كما يراه الشوكاني، فقد قصّ القرآن على بني إسرائيل قصة آدم وإبليس قبل أن يواجههم بالكلام مباشرة، وإذ قَصّ عليهم تلك القصة فكأنما وضع أمامهم مرآة مصقولة يرون فيها حالهم ومآلهم ويدركون بها موقفهم وموردهم!

فقد كان موقف بني إسرائيل من هذا النبي نفس الموقف الذي وقفه إبليس من سيدنا آدم عليه السلام.

إنهم رفضوا دعوة هذا النبي ﷺ بعدما عرفوا أنها الحق، إنهم آثروا أن يكونوا مع الكفار بدلاً من أن يكونوا مع رسول اللّه، الذي جاء مصدّقاً لما معهم، والذي بشّر به أنبياؤهم!

وهل كان وراء صنيعهم هذا إلّا الإباء والاستكبار؟

---

(١) فتح القدير: ١ / ٧٣.

وهل كان موقفهم هذا يختلف عن موقف إبليس، الذي أمره ربه بالسجود فأبى واستكبر وكان من الكافرين؟

ثم ليس فقط أنهم لم يؤمنوا بهذا النبي ﷺ، وتركوا الناس وشأنهم، بل قاموا ضدّه وصدوا الناس عنه، وقادوا حملة الغواية والضلال، وما رضوا أن يسعد الناس بالحق الذي رفضوه.

ألم يكونوا في عملهم هذا يتأسون بإبليس، الذي ضلّ عن سبيل الحق، ثم سعى سعيه لِيُخرج آدم وزوجه من الجنة، ويطرحهما في الهوّة التي هوى فيها، وما رضي أن ينعما بالجنة التي طُردَ منها؟

فلما قام بنو إسرائيل لمحادّة هذا النبي ﷺ وناصبوه العداء قصّ عليهم القرآن تلك القصة حتى يتبيّن لهم أنهم بموقفهم هذا اتبعوا سنن إبليس واحتذوا أثره حذو القذّة بالقذّة، وأولى بهم أن ينتبهوا من سكرتهم، ويثوبوا إلى رشدهم قبل أن يفلت الأمر من أيديهم.

أفلا ينظرون استكبارهم هذا كيف أَعمى أبصارَهم، حتى اتخذوا عدوّهم اللدود صديقهم، وحاربوا النبي الذي ما جاءهم إلاّ ليسعدهم!

وبعدما انتهى من تلك القصة الزاجرة الوازعة الموحية خاطبهم مباشرة، خاطبهم بأسلوب الأب الحاني على فلذات كبده، خاطبهم بأسلوبٍ كلُّه عطفٌ ومودّة ورقة وحنان:

﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وإياي فارهبون﴾ الآيات.

ثم إن تلك القصة كما أنها تصف لهم انحرافهم وسوء تصرفاتهم، وتنذرهم سوء المصير إنْ لم ينتهوا عن اتباع إبليس، فكذلك تعرض أمامهم سيرة أبيهم آدم أنه كيف تاب إلى ربه وأسرع إلى كنفه، حين تذكّر أنه فرّط في جنبه.

نعم، إنه نسي عهده فعصى ربه، ولكن سرعان ما تذكّر وأناب واستغفر من

خطيئته وتاب.

فحريّ بكم أن تتبعوا سنة أبيكم، وتتوبوا إلى ربكم بعد ما عصيتم، وتجدّدوا عهدكم بعد ما نقضتم، ولا تسلكوا مسلك عدوكم إبليس، الذي أبى أن يسجد لأبيكم آدم واستكبر، ثم أصرّ على عصيانه واستمرّ، وباب التوبة أمامكم مفتوح، فسارعوا إلى ربكم بتوبة نصوح.

ارجعوا إلى سبيل ربكم، وآمنوا بهذا النبي الذي جاء مصدقاً لما معكم.

واعلموا أن الاستكبار لا يأتي إلا بالبوار، ولكم العبرة في إبليس البطر المختال، كيف حلّت عليه اللعنة إلى يوم القيامة؟ وكيف انقلب عليه الاستكبار حسرة وندامة؟

لكن الملائكة المقرّبون خشعوا لربّهم وأذعنوا، وسارعوا إلى طاعته وأسلموا فاستحقوا كرامته ونالوا مغفرته ورضوانه.

فتلك القصة ما سِيقَتْ هنا كقصةٍ خَلَتْ وانتهت، وإنما هي قصة هادفة لها دلالات وإيحاءات، وتلك الدلالات والإيحاءات هي التي تربطها بما قبلها وبما بعدها.

فلنستوعبها أولاً في أذهاننا، ثم لننظر كيف ارتبط الكلام بما قبله وبما بعده بوشائج ظهرت من بين يديها ومن خلفها.

ولو أطلنا الوقوف عند تلك الآيات لظهرت لنا وجوه أخر من المناسبات.

ولكن لا داعي لأن نطيل فيها النفس، فالمقصود هنا مجرد التمثيل، والمقام لا يسمح لنا بالبسط والتفصيل.

**تنبيه على وهم:**

ثم لا يفوتنا أن ننّبه على وهم قد يعتري بعض الناس كما أشار إليه الإمام الشوكاني ـ رحمه الله ـ حيث يقول:

«. . . فإنه إذا وجد أهل العلم يتكلمون في التناسب بين جميع آي القرآن ويفردون ذلك بالتصنيف تقرر عنده أن هذا أمر لا بدّ منه، وأنه لا يكون القرآن بليغاً معجزاً إلاّ إذا ظهر الوجه المقتضي للمناسبة وتبيّن الأمر الموجب للارتباط، فإن وجد

الاختلاف بين الآيات فرجع إلى ما قاله المتكلمون في ذلك، فوجده تكلُّفاً مَحْضاً وتَعسُّفاً بيّناً انقدح في قلبه ما كان عنه في عافية وسلامة»[1].

فلنعلم أن القرآن بليغ معجز في ذاته، والنظام في آياته وسوره لون من ألوان إعجازه، وهذا الإعجاز ليس موقوفاً على أن يُثْبِتَهُ أحدٌ، فهو ثابت وقائم ولو لم يؤمن به أحد.

وكم من آية في السماوات والأرض نمرّ عليها ولا نعرفها، ولا نعرف ما فيها من نواحي الإعجاز. فهل يكون ذلك دليلاً على أنه ليس فيها إعجاز؟

وإن قام أحد ليبرز ناحية من نواحي إعجازها، ثم لم يتأتّ له ذلك على وجهه، فهل يكونُ ذلك حجةً لنفي إعجازها؟

كذلك النظام في السور والآيات، فإنه لون من ألوان إعجاز القرآن، وهو شيء ثابت كما أن الإعجاز شيء ثابت.

ونحن إذا قصدنا إلى تتبع النظام في القرآن فليس معنى ذلك أن إعجازه مرهون بنجاحنا في قصدنا، كلاّ! فالأمر هنا كما فصّلناه آنفاً.

ثم يحاول من يحاول ذلك حرصاً على الكنوز التي أودعها الله في نظام آياته، ولا يكون من همّه أن يقيم دليلاً على بلاغة القرآن وإعجازه.

ومَنْ جَدَّ وجد، ومن سار على الدّرب وصل، وربنا أكرم من أن يحرم إنساناً يريد التفقه في كتابه ويريد الاطلاع على الكنوز التي أودعها في نظامه، وإنما الخيبة لمن أخطأ الطريق ولم يصاحبه السداد والتوفيق، فَسدِّدِ اللهم خُطانا، وألهمنا رشدنا وصوابنا، إنك أنت وليّنا ومولانا.

* * *

وبعدما انتهينا من حسم الشبهات التي أثيرت حول موضوع النظام، نودّ أن نبيّن ما

---

(١) فتح القدير: ١ / ٧٣.

هي تلك الثمرات التي يجنيها الباحث من خلال بحثه عن النظام، وما هي تلك المزايا التي يدركها من ورائه؟ إذا وكلَ به رعايته وصرفَ إليه اهتمامه.

ثم ما هي الخسائر الفادحة التي تلحقه إن عكس الأمر ورضي فيه بالهوينا؟

فإن كثيراً من الناس على رغم اقتناعهم بفكرة النظام لا يعيرونها اهتماماً ولا يلقون إليها بالاً، ويرونها من أشغال الفرصة، فيشتغل بها مَنْ لا شغلَ له ولا وظيفة.

وأما من كانت عنده أشغال وأعمال فهي أجدر بالاعتناء وأحق بالاهتمام.

فيصبح لزاماً علينا أن نقطع دابر هذا الوهم، فإن البحث عن نظام الآيات ليس لإزجاء الوقت، وإنما هو مما لا بدّ منه لمن يريد أن يتدبر الآيات أو ينال نصيبه من كنوز الآيات.

* * * * *



# الباب الثالث
# مزايا تتبع النظام

عدة معان جديدة هدانا إليها النظام.

نظام سورة الكوثر وما جاورها من السور.

مثال لانفجار المعاني بفضل تتبع النظام.

مثال لتنبيه نظام الآيات على مواضع الضعف في الروايات.

مثال آخر لانفجار المعاني بفضل تتبع النظام.



# مزايا تتبع النظام

الذي يؤمن بنظام الآيات ويؤمن برباط المعاني في كتاب الله، ويعنى به عناية بالغة جادّة خلال دراسته للقرآن يملأ يديه بمزايا كثيرة متنوعة لا يجد عَرْفَها ولا يشمّ ريحها مَنْ يرغبُ عن هذه الفكرة ولا يرفع بها رأساً.

ومن العسير جداً أن نعدّد تلك المزايا كلّها ونحصيها إحصاءً، فلا أقل من أن نشير إلى ما يتّسم بالأهمّية منها وهي كما يلي:

١ ـ التأمل في النظام يرشد إلى فحوى الكلام وملابساته، والذي يغفل عنه يتعذر عليه العثور على ما ترمي إليه تلك الآيات.

٢ ـ النظام هو الدليل إلى صحيح التأويل إذا اشتبهت الوجوه وكثرت الاحتمالات.

٣ ـ النظام مفتاح لكثير من كنوز القرآن وحكمه، كما أنه سرّ من أسرار إعجازه، فإنه هو الذي جعل القرآن بحراً لا يسبر غوره ولا ينفد كنزه.

٤ ـ النظام يجلّي الأمور في أكمل صورها، ويكشف عن قَدْرها وأهميتها، وإذا لم ننتبه لنظام الآيات فكثير من الأمور لا ندركها، ونظلّ غافلين عن قدرها وأهميّتها.

٥ ـ النظام يشخّص معاني الآيات المكرّرة، ويحدّد مراميها، لكن الذي يغفل عنه يتعثّر ولا يكاد يفرّق بين موطن وآخر.

٦ ـ النظام يفتح العيون على وجوه البلاغة في القرآن، لكن الذي لا يهتمّ به يتعذّر عليه أن يتذوّق بلاغة القرآن، أو يدرك ميزته التي أعجزت فرسان الكلام.

٧ ـ رعاية النظام تفتح على الدارس ما تقرّ به عينه ويستنير به قلبه، وتورثه برد اليقين، الذي لا يتزلزل ولا يتزعزع.

٨ ـ رعاية النظام تُمكِّنُ من فهم أسباب النزول، والذي يغفل عنه يتحيّر في فهمها، ويضعها في غير موضعها، ثمّ يتحيّر في تأويل الآيات وتفسيرها.

٩ ـ رعاية النظام والبحث عن رباط الآيات هي المحك الناجح لنقد الروايات التفسيرية فبها تتميزُ الضِّعافُ من الصِّحاح ويتميّز السقيم من السليم.

١٠ ـ رعاية النظام في دراسة القرآن تساعد على الوصول إلى أصول الصحاح في القرآن، فإنّ الأحاديث الصحاح مأخوذة منه كما نصّ عليه فريق من جلّة العلماء.

١١ ـ الوقوف على نظام الآيات يسمو بالدارس إلى ذروة الشوق والمحبة واللذّة التي لا يصل إليها أبداً من لا يهتمّ بنظامها، فإن هذه المشاعر وتلك الأحاسيس تزداد بزيادة المعرفة بمحاسن الكلام وحسن النظام وقوة البرهان.

تلك إحدى عشرة مزيّة يتميّز بها من يتدبّر القرآن ويتمسك في تدبره بسياق الكلام ولطائف النظام، ولا يغفل عن الوشائج التي تربط المعاني بعضها ببعض.

ولما كانت هذه دعوى كبيرة، وكانت غير مألوفة ولا مسلّمة لدى الخاصّة والعامّة، فلا بد أن نقف عندها ملياً، ونشبع الكلام عليها نقطةً نقطةً.

والأمل كبير إذا نظر الناظر في هذا البحث بصبر وأناة وكان ممن يستمعون القول فيتّبعون أحسنه أنه سيخرج منه ـ بإذن اللّه ـ قرير العين، رَضِيَّ النفس، وأنه سيجد الأمر واضحاً جليّاً مثل ضوء الشمس، وفلق الصبح.

والآن، فلنأخذ تلك النقاط واحدة واحدة، ولنتكلّم عليها حسبما يتيسر لنا متضرعين إلى اللّه أن يزيدنا علماً ويلهمنا رشداً، وكفى بربك هادياً ونصيراً.

* * * * *

# الفصل الأول

## المزية الأولى

التأمل في نظام الآيات يرشد إلى فحوى الكلام وملابساته، والذي يغفل عنه يتعذر عليه العثور على ما ترمي إليه تلك الآيات.

ولنضرب لذلك مثلاً. قال ـ تعالى ـ:

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ * وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ * وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴾ [الحج: ٥٢ ـ ٥٥].

فإذا رجعنا إلى تلك الآيات في كتب التفسير وجدنا الأئمة المفسرين ـ رحمهم الله ـ قد تعبوا في تأويلها وتحيّروا في أمرها مع أنها لم تكن بذاك الإشكال، ولم يكن فيها ما يفضي إلى الحيرة والكلال.

ولا بأس بأن نذكر هنا مذاهبهم في تأويلها حتى يظهر الأمر ويتّضح الموقف.

**المذهب الأول:**

قال الإمام ابن جرير في تأويل تلك الآي الكريمة:

«... فتأويل الكلام إذاً: وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبيّ إلا إذا تلا كتاب

الله وقرأ أو حدث وتكلّم ألقى الشيطان في كتاب الله الذي تلاه وقرأه أو في حديثه الذي حدّث وتكلم فينسخ الله ما يلقي الشيطان يقول ـ تعالى ـ فَيُذهِبُ اللّهُ ما يُلقي الشيطان من ذلك على لسان نبيه ويُبطله»[1].

ويبدو أن الإمام ابن القيم أيضاً يميل إلى نفس التأويل، حيث يقول: «إن الله ـ سبحانه ـ أخبر أنه ما أرسل من رسول ولا نبيّ إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيّته، والسلف كلهم على أن المعنى: إذا تلا ألقى الشيطان في تلاوته. قال الشاعر في عثمان ـ رضي الله عنه ـ:

تمنـــى كتــاب اللّــه أول ليلــه وآخــره لاقــى حمــام المقــادر

فإذا كان هذا فِعْلُه مع الرسل ـ عليهم السلام ـ فكيف بغيرهم»؟[2].

وإذا أردنا تقويم هذا المذهب فليكنْ في بالنا أنه يعتمدُ على الأسطورة التي تُعرف بحديث الغرانيق، التي قال عنها الإمام البيهقي:

«هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل».

وقال ابن خزيمة: «إن هذه القصة من وضع الزنادقة»[3].

وقال الإمام ابن كثير:

«قد ذكر كثير من المفسرين ههنا قصة الغرانيق وما كان من رجوع كثير من المهاجرة إلى أرض الحبشة ظناً منهم أن مشركي قريش قد أسلموا ولكنها من طرق كلّها مرسلة ولم أرها مُسْندةً من وجه صحيح، واللّه أعلم»[4].

ثم إن هذه الرواية من ناحية مضمونها تخالف النصوص القرآنية الصريحة مخالفة واضحة صارخة، وتُوهن ركيزةً من ركائز العقيدة الإسلامية الأصيلة، ألا وهي عصمة

---

(١) تفسير الطبري: ٩ / ١٢٤.
(٢) إغاثة اللهفان: ١ / ٩٣.
(٣) فتح القدير للإمام الشوكاني: ٣ / ٤٦٢.
(٤) تفسير ابن كثير: ٣ / ٢٢٩.

النبي ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ.

**المذهب الثاني:**

قال الإمام الرازي في تفسير تلك الآيات:

«أما إذا فسرناها ـ أي التمنّي ـ بالخاطر وتمنّي القلب فالمعنى أن النبي ـ ﷺ ـ متى تمنى بعض ما يتمنّاه من الأمور وسوسَ الشيطانُ إليه بالباطل ويدعوه إلى ما لا ينبغي، ثم إن الله تعالى ينسخ ذلك ويُبطله ويَهديه إلى تركِ الالتفاتِ إلى وسوسته»[1].

والإمام البيضاوي أيضاً يميل إلى نفس التأويل حيث يقول:

«﴿إلا إذا تمنى﴾ إذا زَوَّرَ في نفسه ما يهواه ﴿ألقى الشيطان في أمنيّته﴾ في تَشَهِّيهِ ما يوجب اشتغاله بالدنيا كما قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «وإنه لَيُغانُ على قلبي فأستغفرُ الله في اليوم سبعين مرة» ﴿فينسخ الله ما يلقي الشيطان﴾ فيبطله ويذهب به بعصمته من الركون إليه والإرشاد إلى ما يزيحه ﴿ثم يحكم الله آياته﴾ ثم يثبت آياته الداعية إلى الاستغراق في أمر الآخرة»[2].

والإمام أبو السعود أيضاً يفسر تلك الآيات بمثل ما فسر به هذان الإمامان[3].

قد يقال: إن هذا التأويل وجيه وقويّ، ويا حبّذا لو كان الأمر كذلك، فإننا لا ندري كيف نعالج ذلك الإشكال الذي أثاره الإمام أبو حيان حيث يقول:

«وهذه الآية ليس فيها إسناد شيء إلى رسول الله ـ ﷺ ـ إنما تضمنّت حالةَ مَنْ كان قبله من الرسل والأنبياء إذا تمنّوا»[4].

ثمّ هل يُعقلُ أن يكون الرسول ـ عليه السلام ـ دائماً تحت سيطرة الشيطان، ويبقى عاجزاً منكسراً أمام وساوسه؟!

---

(١) التفسير الكبير: ٢٣ / ٥٤.

(٢) أنوار التنزيل: ٢ / ٩٦.

(٣) تفسير أبي السعود: ٤ / ١٧، ١٨.

(٤) البحر المحيط: ٦ / ٣٨١.

**المذهب الثالث:**

يقول الإمام ابن كثير في تفسير تلك الآيات:

«وقد ساقها - أي قصة الغرانيق - البغويُّ في تفسيره مجموعةً من كلام ابن عباس ومحمد بن كعب القرظي وغيرهما بنحوٍ من ذلك، ثم سأل ههنا سؤالاً: كيف وقع مثل هذا مع العصمة المضمونة من الله - تعالى - لرسوله - صلاة الله وسلامه عليه - ثم حكى أجوبة عن الناس من ألطفها أن الشيطان أوقع في مسامع المشركين ذلك فتوهَّمُوا أنه صدر عن رسول الله وليس كذلك في نفس الأمر؛ بل إنما كان من صنيع الشيطان لا عن رسول الرحمن - ﷺ - والله أعلم»[1].

والإمام الشوكاني أيضاً يحوم حول هذا التأويل حيث يقول:

«فحاصل معنى الآية: أن الشيطان أوقع في مسامع المشركين ذلك من دون أن يتكلم به رسول الله - ﷺ - ولا جرى على لسانه، فتكون هذه الآية تسليةً لرسولِ الله أي: لا يَهُولنَّكَ ذلك، ولا يَحْزُنكَ فقد أصاب مثل هذا مَنْ قَبلَكَ من المرسلين والأنبياء»[2].

ونرى الإمام النسفي أيضاً يميل إلى نفس التأويل، حيث قال: بعد ما ضَعَّفَ رواية الغرانيق:

«فلما بطلت هذه الوجوه لم يبق إلا وجه واحد، وهو أنه - عليه السلام - سكت عند قوله: ﴿ومناة الثالثة الأخرى﴾ فتكلم الشيطان بهذه الكلمات متصلاً بقراءة النبي - ﷺ - فوقع عند بعضهم أنه - عليه السلام - هو الذي تكلّم بها، فيكون هذا إلقاء في قراءة النبي - عليه السلام - وكان الشيطانُ يتكلمُ في زمن النبي - عليه السلام - ويُسْمَعُ كلامه، فقد روي أنه نادى يوم أحد: ألا إن محمداً قد قتل، وقال يوم بدر: ﴿لا غالب لكم اليوم وإني جار لكم﴾ (فينسخ الله ما يلقي الشيطان) أي: يذهب به ويبطله ويخبر

---

(١) تفسير ابن كثير: ٣/ ٢٣٠.

(٢) فتح القدير: ٣/ ٤٦٢.

أنه من الشيطان»[1].

وقد مال إلى هذا التأويل لفيف من العلماء والمفسرين أمثال القاضي عياض[2]، والإمام القرطبي[3]، والشيخ عبدالرحمن السعدي[4]وغيرهم.

قد يقال: إن هذا التأويل حلوٌ سائغ ولا مانع من قبوله، ويا حبذا لو كان الأمر كذلك فإن الإمام البيضاوي يردّ هذا التأويل بحجةٍ لا حجةَ بعدها، حيث يقول:

«وقيل» ﴿تمنى﴾ بمعنى قرأ كقوله:

تمنـــى كتـــاب اللّـــه أول ليلـــة   تمنـي داؤد الـزبـور علـى رسـل

وأمنيّته: قراءته، وإلقاء الشيطان فيها أن تكلم بذلك رافعاً صوته بحيث ظنّ السامعون أنه من قراءة النبي ـ ﷺ ـ.

وقد رَدَّ ذلك بأنه يُخِلُّ بالوثوقِ على القرآن ولا يندفع بقوله: «فينسخ اللّه ما يلقي الشيطان ثم يحكم اللّه آياته، لأنه أيضاً يحتمله»[5].

هذا ما قاله الإمام البيضاوي ولا شك أن قوله هذا له وزنه وله اعتباره، والبحث العلميّ الموضوعي لا يقبل الإغماض عنه.

**المذهب الرابع:**

ثم هناك مذهب رابع، وهو ما ذهب إليه الإمام ابن الجوزي حيث يقول:

«وفي معنى «تمنى» قولان: أحدهما: تلا، وقاله الأكثرون... والثاني: أنه من الأمنية، وذلك أن رسول اللّه ـ ﷺ ـ تمنّى يوماً أن لا يأتيه من اللّه شيء ينفر عنه به قومه، فألقى الشيطان على لسانه لما كان قد تَمنَّاه، قاله محمد بن كعب

---

(١) تفسير النسفي: ٣/ ١٠٧.
(٢) كتاب الشفا: ٢/ ١١٦، ١٣١.
(٣) الجامع لأحكام القرآن: ١٢/ ٨٣.
(٤) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: ٥/ ٣١١، ٣١٢.
(٥) أنوار التنزيل: ٢/ ٩٦.

القرظي»[1].

هذا ما نجده عند الإمام ابن الجوزي فلنترك الأستاذ الإمام سيد قطب يعطينا رأيه عنه، يقول ـ رحمه اللّه ـ:

«وهناك من النصّ ذاته ما يُستبعَدُ معه أن يكون سبب نزول الآية شيئاً كهذا، وأن يكون مدلوله حادثاً مفرداً وقع للرسول ـ ﷺ ـ فالنصّ يقرّر أن هذه قاعدة عامّة في الرسالات كلها مع الرسل كلهم: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبيّ إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيّته فينسخ اللّه ما يلقي الشيطان ثم يحكم اللّه آياته﴾، فلا بدّ أن يكون المقصود أمراً عاماً يستند إلى صفة في الفطرة مشتركة بين الرسل جميعاً، بوصفهم من البشر، مما لا يخالف العصمة المقرّرة للرّسل»[2].

وكذلك نرى الإمام البيضاوي يضعّف هذا التأويل حيث يقول:

«وقيل: تمنى لحرصه على إيمان قومه أن ينزلَ عليه ما يُقَرِّبهم إليه، واستمرّ به ذلك حتى كان في ناديهم فنزلت عليه سورة «والنجم» فأخذ يقرؤها فلما بلغ ﴿ومناةَ الثالثة الأخرى﴾، وسوس إليه الشيطان حتى سبق لسانه سهواً أن قال: تلك الغرانيق العُلى، وإن شفاعتهنّ لتُرتَجى. ففرح به المشركون حتى شايعوه بالسجود لما سجد في آخرها بحيث لم يبق في المسجد مؤمن ولا مشرك إلاّ سجد، ثم نبّهه جبريل ـ عليه السلام ـ فاغتمّ لذلك، فعزاه اللّه بهذه الآية، وهو مردود عند المحققين»[3].

**المذهب الخامس:**

ثم هناك مذهب خامس في تأويل الآية وهو ما حكاه الإمام الرازي عن أبي مسلم، وذلك قوله:

«معنى الآية أنه لم يرسل نبيّاً إلا إذا تمنّى كأنه قيل: وما أرسلنا إلى البشر مَلَكاً،

---

(١) زاد المسير في علم التفسير: ٥/ ٤٤٢، ٤٤٣.

(٢) في ظلال القرآن: ٥/ ١٠٧.

(٣) أنوار التنزيل: ٢/ ٩٦.

وما أرسلنا إليهم نبيّاً إلا منهم، وما أرسلنا نبيّاً خَلاَ عند تلاوته الوحي من وسوسةِ الشيطان وأن يلقي في خاطره ما يضادّ الوحي ويشغله عن حفظه، فيثبّتُ اللّه النبيّ على الوحي وعلى حِفْظِه ويُعلمه صوابَ ذلك وبطلانَ ما يكونُ من الشيطان. قال: وفيما تقدم من قوله: ﴿قل يا أيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين﴾، تَقويةٌ لهذا التأويل، فكأنه ـ تعالى ـ أمره أن يقول للكافرين، أنا نذير لكم لكني من البشر لا من الملائكة، ولم يرسل اللّه ـ تعالى ـ مثلي ملكاً، بل أرسل رجالاً فقد يوسوس الشيطان إليهم، فإن قيل: هذا إنما يصحّ لو كان السهو لا يجوز على الملائكة، قلنا: إذا كانت الملائكة أعظم درجة من الأنبياء لم يلزم من استيلائهم بالوسوسة على الأنبياء استيلاؤهم بالوسوسة على الملائكة»[(١)].

ونرى الإمام النيسابوري يؤيّد أبا مسلم في تأويله هذا حيث يقول:

«والحاصل أن الرسل لا ينفكُّون عن السهو وإنْ كانوا معصومين عن العمد فعليهم أن لا يتبعوا إلا ما يقطعون به لصدوره عن علم وذلك هو المحكم، وذهب أبو مسلم إلى أن حاصل الآية هو أن كل نبيّ من جنس البشر الذين هم بصدد الخطأ والنسيان من قبل وساوس الشيطان.

ووجه النظم بين هذه الآية والتي قبلها أنه أُمر بأن يقول: إني لكم نذير لكني من البشر لا من الملائكة، ولم يرسل اللّه قبلي ملكاً بل أرسل رجالاً يوسوسُ الشيطان إليهم، وعلى هذا فالملائكة لعدم إمكان استيلاء الشيطان عليهم أعظم درجة من الأنبياء وأقوى حالاً منهم»[(٢)].

وكان هذا التأويل لا بأس به لولا أنه كان يتعارض مع قول اللّه ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ۞ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا﴾ [الجنّ: ٢٧ ـ ٢٨].

---

(١) التفسير الكبير: ٢٣ / ٥٤.

(٢) غرائب القرآن: ١٥ / ١١٢.

فالآية صريحة في أن الرسولَ يكون دائماً تحت رقابةٍ ساهرة مشدّدة من اللّه ـ سبحانه وتعالى ـ حتى لا تصل إليه الشياطين، وحتى يتيسر له القيامُ بوظيفته بعيداً عن وساوسهم ونزغاتهم.

وأيضاً يتعارض ذلك مع قوله ـ تعالى ـ:

﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَـاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢].

وذلك أنه إذا لم يكن للشيطان سلطان على العباد الصالحين، فكيف بالأنبياء والمرسلين؟

يقول القاضي عياض ـ رحمه اللّه ـ:

«قد قامت الحجة وأجمعت الأمة على عصمته ـ ﷺ ـ ونزاهته عن هذه الرذيلة، أمّا من تمنّيه أن ينزل عليه مثل هذا من مدح آلهةٍ غير اللّه وهو كفر، أو أن يتسوّد عليه الشيطان ويُشبِّه عليه القرآنَ حتى يجعلَ فيه ما ليس منه ويعتقد النبي ـ ﷺ ـ أن من القرآن ما ليس منه حتى يفهمه جبريل ـ عليه السلام ـ وذلك كله مُمْتنعٌ في حقه ـ ﷺ ـ أو يقول ذلك النبي ـ ﷺ ـ من قبل نفسه عمداً وذلك كفر، أو سهواً وهو معصومٌ من هذا كله.

وقد قرّرنا بالبراهين والإجماع عصمته ـ ﷺ ـ من جريانِ الكفر على لسانه أو قلبه لا عمداً ولا سهواً، أو أن يُشَبَّه عليه ما يُلقيه المَلَكُ مما يلقي الشيطان أو يكون للشيطان عليه سبيل، أو أن يتقول على اللّه لا عمداً ولا سهواً ما لم ينزل عليه»[١].

**المذهب السادس:**

ثم هناك مذهب سادس في تأويل الآية، وهو ما ذهب إليه الأستاذ الإمام سيد قطب حيث يقول:

«إن الرسل عندما يُكلّفون حملَ الرسالة إلى الناس، يكون أحب شيء إلى نفوسهم أن يجتمع الناسُ على الدعوة، وأن يدركوا الخير الذي جاءوهم به من عند اللّه

---

(١) كتاب الشفا للقاضي عياض بشرح القاري: ٢ / ٢٩.

فيتبعوه. . . ولكن العقبات في طريق الدعوات كثير، والرسل بشر محدودو الأجل، وهم يحسون هذا ويعلمونه، فيتمنّون لو يجذبون الناسَ إلى دعوتهم بأسرع طريق. . . يودون ـ مثلاً ـ لو هادنوا الناس فيما يعزُّ على الناس أن يتركوه من عادات وتقاليد وموروثات فيسكتوا عنها مؤقتاً لعلَّ الناس أن يفيئوا إلى الهدى، فإذا دخلوا فيه أمكن صرفهم عن تلك الموروثات العزيزة! ويودون مثلاً لو جاروهم في شيء يسير من رغبات نفوسهم رجاء استدراجهم إلى العقيدة، على أمل أن تتم فيما بعد تربيتهم الصحيحة التي تطرد هذه الرغبات المألوفة!

ويودّون، ويودّون. مِنْ مِثْلِ هذه الأماني والرغبات البشرية المتعلقة بنشر الدعوة وانتصارها. . . ذلك على حين يريد اللّه أن تمضي الدعوة على أصولها الكاملة، وفق موازينها الدقيقة، ثم مَنْ شاء فليؤمنْ ومن شاء فليكفر، فالكسب الحقيقي للدعوة في التقدير الإلهي الكامل غيرِ المَشُوبِ بضعف البشر وتقديرهم. . . هو أن تمضي على تلك الأصول وفق تلك الموازين، ولو خسرت الأشخاص في أول الطريق، فالاستقامة الدقيقة الصارمة على أصول الدعوة ومقاييسها كفيل أن يثني هؤلاء الأشخاص أو مَنْ هم خير منهم إلى الدعوة في نهاية المطاف، وتبقى مُثُلُ الدعوةِ سليمةً لا تُخدش، مستقيمة لا عوج فيها ولا انحناء.

ويجد الشيطانُ في تلك الرغبات البشرية، وفي بعض ما يترجم عنها من تصرفات أو كلمات فرصةً للكيد للدعوة، وتحويلها عن قواعدها، وإلقاء الشبهات حولها في النفوس. . . ولكن اللّه يحول دون كيد الشيطان، ويبين الحكم الفاصل فيما وقع من تصرفات أو كلمات، ويكلف الرسل أن يكشفوا للناس عن الحكم الفاصل، وعما يكون قد وقع منهم من خطأ في اجتهادهم للدعوة، كما حدث في بعض تصرفات الرسول ـ ﷺ ـ وفي بعض اتجاهاته، مما بيَّنَ اللّهُ فيه بياناً في القرآن. . .

بذلك يُبطلُ اللّه كيد الشيطان، ويُحكم اللّهُ آياته، فلا تبقى هنالك شبهة في الوجه الصواب:

﴿واللّه عليم حكيم﴾. . . فأما الذين في قلوبهم مرض من نفاق أو انحراف،

والقاسية قلوبهم من الكفار المعاندين، فيجدون في مثل هذه الأحوال مادةً للجدل واللجاج والشقاق: ﴿وإن الظالمين لفي شقاق بعيد﴾، وأما الذين أوتوا العلم والمعرفة فتطمئن قلوبهم إلى بيان الله وحكمه الفاصل:

﴿وإن الله لهادي الذين آمنوا إلى صراط مستقيم﴾ . . .

وفي حياة النبي - ﷺ - وفي تاريخ الدعوة الإسلامية نجد أمثلة من هذا، تُغنينا عن تأويل الكلام، الذي أشار إليه الإمام ابن جرير - رحمه الله -»[1].

ثم استشهد الإمام سيد قطب على وجاهة هذا الاتجاه بقصة ابن أم مكتوم التي جاء ذكرها في سورة ﴿عبس وتولى﴾ [عبس: ١ - ١٠]، وقصة زينب بنت جحش مع زيد بن حارثة التي جاء ذكرها في سورة الأحزاب[2]، وكذلك استشهد بسبب نزول الآية: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ [الأنعام: ٥٢]. على وجاهةِ موقفهِ هذا ثم قال:

«هذا هو ما نطمئنُّ إليه في تفسير تلك الآيات. والله الهادي إلى الصواب»[3].

هذا ما اختاره الإمام سيد قطب في تأويل تلك الآيات، وهنا نود أن نقول: إن الأمنيات التي عزاها سيد قطب إلى الرسل يعوزها الدليل، فإننا لا نجد لها ذكراً، لا في القرآن ولا في صحيح الآثار.

نعم، نجد أن الرسول - ﷺ - قد عُوتب عتاباً رقيقاً على أسفه الشديد وحزنه المُضْني على تَمَرُّدِ قومه، وقد حصل ذلك مرات، فجاء مثلاً:

﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦].

وجاء كذلك: ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [فاطر: ٨].

وقد عوتب كذلك على بعض مواقفه التي كانت نتيجة لهذا الحزن الطويل النبيل،

---

(١) في ظلال القرآن. الجزء السابع عشر: ص ١٠٧، ١٠٨.

(٢) آية: ٣٧.

(٣) في ظلال القرآن - الجزء السابع عشر ص: ١١١.

ولكن لا نجد ذكراً لتلك الأماني والرغبات البشرية التي ألمع إليها الإمام سيد قطب.

لا نجد تلك الرغبات، وبالتالي لا نجد عليها العتاب.

ثم الآيات التي نتحدث عنها تختلف في طبيعتها عن الآيات التي استشهد بها، حيث لا نجد هناك ـ كما نجد هنا ـ أن هذا الحرص الشديد أو ذلك الحزن النبيل أو تلك المواقف الرقيقة صارت فتنةً للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم، أو وجد فيها الشيطانُ فرصة للكيد للدعوة وتحويلها عن قواعدها وإلقاء الشبهات حولها في النفوس.

والآن، بعد هذا الاستعراض البصير المستفيض للمحاولات التي بذلت في تأويل تلك الآيات مع الغفلة عن نظامها ورباط معانيها، نودّ أن نحوّل خط السير ونمرّ على الذين اهتمّوا بنظام تلك الآيات وركّزوا على الوشائج التي تربطها فيما بينها، فربما نجد عندهم جديداً يقرّب لنا الغاية ويحلّ لنا المشكلة.

**المذهب السابع:**

يقول الإمام أبو حيان في تأويل تلك الآيات:

«لما ذكر اللّه تعالى أنه يدافع عن الذين آمنوا وأنه تعالى أُذِنَ للمؤمنين في القتال وأنهم كانوا أُخرجوا من ديارهم، وذكر مَسْلاة رسوله ـ ﷺ ـ بتكذيب مَنْ تقدم من الأمم لأنبيائهم وما آل آمرهم من الإهلاك إثر التكذيب وبعد الإمهال، وأمره أن ينادي الناس ويخبرهم أنه نذير لهم بعد أن استعجلوا بالعذاب، وأنه ليس له تقديم العذاب ولا تأخيره ذكر له تعالى مسلاةً ثانية باعتبار من مضى من الرسل والأنبياء وهو أنهم كانوا حريصين على إيمان قومهم، متمنين لذلك، مثابرين عليه وأنه ما منهم أحد إلا وكان الشيطان يراغمه بتزيين الكفر لقومه وبث ذلك إليهم وإلقائه في نفوسهم كما أنه ـ ﷺ ـ كان من أحرص الناس على هدى قومه وكان فيهم شياطين كالنضر بن الحارث يلقون لقومه وللوافدين عليه شُبَهاً يُثَبِّطون بها عن الإسلام، ولذلك جاء قبل هذه الآية ﴿والذين سَعَوْا في آياتنا معاجزين﴾، وسعيهم بإلقاء الشُّبَهِ في قلوب مَن استمالوه، ونُسِبَ ذلك إلى الشيطان لأنه هو جنس يراد به شياطين الإنس للإغواء كما قال:

«لأغوينهم». وقيل إن «الشيطان» هنا هو جنس يراد به شياطين الإنس والضمير في «أمنيته» عائد على الشيطان أي: في أمنيةِ نفسهِ أي بسبب أمنية نفسه، ومفعول «ألقى» محذوف لفهم المعنى وهو الشر والكفر ومخالفة ذلك الرسول أو النبي، لأن الشيطان ليس يلقي الخير.

ومعنى ﴿فينسخُ اللّه ما يُلقي الشيطان﴾، أي: يُزيلُ تلك الشبه شيئاً فشيئاً حتى يُسلم الناس كما قال: ﴿ورأيت الناس يدخلون في دين اللّه أفواجاً﴾.

﴿ويُحْكِمُ اللّه آياته﴾، أي: معجزاته يُظهرها محكمةً لا لَبسَ فيها ليجعل ما يلقي الشيطان من تلك الشبه وزخارف القول فتنةً لمريضِ القلب ولقاسيهِ وليعلم من أُوتيَ العلم أن ما تمنى الرسولُ والنبيُّ من هدايةِ قومه وإيمانهم هو الحق.

هذا ما فسر به أبو حيان تلك الآيات الكريمة.

والميزة التي يتميز بها من بين مَنْ سبق ذِكْرُهم، أنه استلهم تفسيره هذا من سياق الآيات ومن نظم الكلام. ولا بأس بأن نقف هنا مرة ثانية، وندقق فيه النظر، ثم نرى هل نجد فيه شيئاً من الوجاهة والمتانة؟ وهل نجد فيه ما كنا نلتمسه من الأنس والحيوية والارتياح؟

وإنْ وجدنا فيه شيئاً من ذلك فلنعلم أنه ليس من مزايا أبي حيان، فأبو حيان أيضاً يخطىء ويصيب كغيره، وإنما هو من مزايا هذا المنهج. فكلما تبنّى الدارس هذا المنهج أَمِنَ العَثارَ وتذلّلت له المعاني كتذلّل الفرس لمن أمسك بلجامه، ولذلك نرى أبا حيان لم يتفرد بهذا المفهوم، بل وفّقَ إليه غيره ممن تمسكوا بنظام تلك الآيات، ونذكر هنا ـ على سبيل المثال ـ الإمام البقاعي والشيخ محمد عبده حتى لا يبقى في أذهاننا منه شيء، ولا نقول إن كان هذا المفهوم هو الأقرب للصواب، فلماذا لم يهتد إليه الآخرون؟

**كلمة الإمام البقاعي:**

«ولما كان هذا أول الإذن في القتال، الموجبِ لمنابذةِ الكفار، ومهاجرةِ الأهل والأموال والديار وكان ذلك ـ مع كونه في غاية الشدة ـ موجباً للفقر عادة، قال محققاً

له ومنبهاً على أنه سبب الرزق:

﴿قل يا أيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين. فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة ورزق كريم﴾.

ولما كان في سياق الإنذار قال مُعَبِّراً بالماضي زيادةً في التخويف: ﴿والذين سعوا في آياتنا معاجزين﴾، أي: مبالغين في فعل ما يلزم ـ في زعمهم ـ منه عَجْزَنَا ومعاجزين، أي: مقدرين أنهم يُعجزوننا بإخفائهم آياتنا وإضلالِ الناس وصدهم عنها بإلقاء الشبه والجدال، اتباعاً للشيطان المريد، من غير علم ولا هدى ولا كتاب منير (أولئك) البعداء البغضاء (أصحابُ الجحيم) أي: استحقاقاً بما سعوا ليعلموا أنهم هم العاجزون، هذا في الآخرة، وسَيُظْهِرُ ـ سبحانه ـ في الدنيا عجزَهم بكشفِ شبههم، ومج القلوب النيرة لها، مع ذُلِّهم وانكسارهم وهوانهم وصغارهم، حتى لا يقدروا أن ينطقوا من ذلك ببنت شفة، علماً منهم أن مثلها لا يقوله عاقل.

ولما لاح من ذلك أن الشيطان ألقى للكفار شبهاً، يعاجزون بها بجدالهم في دين اللّه الذي أمر رسوله محمداً ـ ﷺ ـ بإظهاره وتقريره وإشهاره عطفَ عليه تسليةً له ـ ﷺ ـ قوله:

﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى﴾، أي: تلا على الناس ما أمره اللّه به أو حدثهم به واشتهى في نفسه أن يقبلوه حِرْصاً منه على إيمانهم شفقة عليهم ﴿ألقى الشيطان في أمنيته﴾، أي: ما تلاه أو حدث به واشتهى أن يقبل، من الشبه والتخيلات ما يتلقفه منه أولياؤه فيجادلون به أهلَ الطاعة ليضلوهم ﴿إن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم﴾، ﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطينَ الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً﴾، كما يفعل هؤلاء فيما يُغَيِّرون به في وجه الشريعة أصولاً وفروعاً من قولهم: إن القرآن شعر وسحر وكهانة، وقولهم: ﴿لو شاء اللّه ما أشركنا﴾، وقولهم: ﴿هؤلاء شفعاؤنا عند اللّه﴾، وقولهم: إن ما قتله اللّه بالموت حَتْفَ أنفهِ أولى بالأكل مما ذُبح، وقولهم: نحن أهلُ اللّه وسكان حرمه، لا نخرج من الحرم فنقف في الحج بالمشعر الحرام ويقف الناس بعرفة، ونحن نطوف

في ثيابنا وكذا من ولدناه، وأما غيرنا فلا يطوف إلا عرياناً ذكراً كان أو أنثى إلا أن يعطيه أحدٌ منا ما يلبسه، ونحو ذلك مما يريدون أن يطفئوا به نور اللّه (فينسخ اللّه)، أي: فيتسبب عن إلقائه أنه ينسخ (ما يلقي الشيطان)، فيبطله بإيضاحِ أمره ومَجِّ القلوبِ له.

ولما كان إبطاله سبحانه للشُّبَهِ إبطالاً مُحْكماً، لا يتطرق إليه ـ لعلو رتبة بيانه ـ شبهة أصلاً، عبّر بأداة التراخي فقال: ﴿ثم يحكم اللّه آياته﴾، أي: بجعلها جَلِيَّةً فيما أُريد منها، وأَدلُّ دليلٍ على أن هذا هو المراد ـ مع الافتتاح بالمعاجزة في الآيات ـ الختام بقوله ـ عطفاً على ما تقديره: فاللّه على ما يشاء قدير ـ (واللّه عليم)، أي: بنفي الشُّبَهِ (حكيمٌ) بإيرادِ الكلامِ على وجه لا تؤثر فيه عند مَنْ له أدنى بصيرة، وكذا ما مضى في السورة ويأتي من ذكر الجدال»[1].

فلننظر كيف هُدي البقاعي إلى المفهوم الذي هدي إليه أبو حيان مع أنه لم يطَّلع على تفسيره في حياته، كما يظهر لنا من مقدمة كتابه، ولكن اتحاد المنهج ـ وهو الاهتمام بنظام الآيات ـ هو الذي هداهما إلى مفهومٍ واحد متقارب.

ثم يأتي بعدهما الشيخ محمد عبده فينهج منهجهما ويصل إلى ما وصلا إليه من غير أن يعثر على صاحبيه، يقول الشيخ محمد عبده بعد ما تناول رواية الغرانيق بالبحث والتدقيق.

**كلمة الشيخ محمد عبده:**

«والآن أرجع إلى تفسير الآيات على الوجه الذي تحتمله ألفاظها وتدل عليه عباراتها واللّه أعلم.

ذكر اللّه لنبيه حالاً من أحوال الأنبياء والمرسلين قبله ليبين له سنته فيهم، وذلك بعد أن قال:

﴿وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وقوم لوط

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، الجزء الثالث عشر ص: ٦٧، ٧٢ مع تصرف يسير في العبارة، غير مخلٍّ بالمعنى.

وأصحاب مدين وكذّب موسى فأمليت للكافرين ثم أخذتهم فكيف كان نكير﴾. إلى آخر الآيات.

ثم قال: ﴿قل يا أيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين. فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة ورزق كريم، والذين سعوا في آياتنا معاجزين أولئك أصحاب الجحيم، وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبيّ﴾ الخ.

فالقصص السابق كان في تكذيب الأمم لأنبيائهم ثم تبعه الأمر الإلهي بأن يقول النبي - ﷺ - لقومه: إنني لم أُرسلْ إليكم إلا لإنذاركم بعاقبة ما أنتم عليه ولأبشر المؤمنين بالنعيم، وأما الذين يسعون في الآيات والأدلة التي أقيمها على الهدى وطرق السعادة ليحولوا عنها الأنظار، ويحجبوها عن الأبصار، ويفسدوا أثرها الذي أقيمت لأجله ويعاجزوا بذلك النبي ﷺ والمؤمنين، أي: يسابقونهم ليعجزوهم ويُسكتوهم عن القول وذلك بلعبهم بالألفاظ وتحويلها عن مقصد قائلها كما يقع عادة من أهل الجدل والمماحكة، هؤلاء الضالون المضلون هم أصحاب الجحيم، وأعقب ذلك بما يفيد أن ما ابتُليَ به النبي - ﷺ - من المعاجزة في الآيات قد ابتلي به الأنبياء السابقون فلم يُبعثْ نبي في أمة إلا كان له خصوم يؤذونه بالتأويل والتحريف ويضادون أمانيه ويحولون بينه وبين ما يبتغي بما يلقون في سبيله من العثرات، فعلى هذا المعنى الذي يتفق مع ما لقيه الأنبياء جميعاً يجب أن تفسر الآية، وذلك يكون على وجهين»[1].

ثم يفيض القول في تفسير الآية على هذين الوجهين ثم يقول:

«هذا هو التأويل الثاني في معنى الآية، ويدل عليه ما سبق من الآيات ويرشد إليه سياق القصص السابق في قوله: ﴿وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح﴾ الخ[2].

**تأويل الآيات في ضوء نظام السورة:**

وبعدما انتهينا من هذه الرحلة الطويلة الممتعة، وبعدما توصلنا إلى أن النظام له

---

(١) مشكلات القرآن الكريم للشيخ محمد عبده: ص ٨٨، ٩٠.

(٢) مشكلات القرآن الكريم للشيخ محمد عبده: ص ٩٧.

أثر كبير في فهم القرآن نريد أن نقول: ليس هذا نهاية ما نقصد بالنظام، فإن هذه صورة مصغرة للنظام، وإنما نقصد بالنظام ما يكون واسعاً شاملاً لمجموع السورة، فإننا إذا تتبعنا ذلك النظام الواسع الشامل وتدبرنا الآيات في ضوئه، تجلى لنا موقع كل آية بكل ملابساتها.

فالآن نتوجه إلى تأويل تلك الآيات في ضوء نظام السورة، فنقول وبالله التوفيق:

يظهر لنا، حينما نلقي نظرة واسعة شاملة على تلك السورة، أنها نزلت في آخر العهد المكي، والجوّ الذي يسودها هو جوّ الجدال واللجاج والنزاع والخصومة، ويتخلله تهديد وتقريع على غفلتهم عمّا ينتظرهم من عاقبة وخيمة، تأمل معي تلك الآيات:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ﴾ [الحج: ٣].

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ [الحج: ٨].

﴿۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾ [الحج: ١٩].

﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الحج: ٥١].

﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحج: ٦٨].

﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ ۚ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ [الحج: ٦٧].

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ﴾ [الحج: ٧٢].

ويبدو كذلك أن هذا الجدال وهذا النزاع لم يكن منحصراً بين أشخاص وأشخاص، بل ثارت مكة عن بكرة أبيها، والأحزاب الموجودة كلها اقتحمت المعركة، وظلت توقد نار الفتنة حتى تطفىء هذا النور الذي يهدد كيانها.

ويكفينا لتمثل هذا الوضع الخطير أن نتلو تلك الآية:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ

يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [الحج : ١٧].

فكل هذه الفئات تألبت على الإسلام، وسدّدت سهامها نحو هذا الدين الجديد.

كلّهم هاجموه وأثاروا حوله الشبهات، حتى ينفِّرُوا عنه الجماهير.

كلهم اتهموه بأنه دين مُبْتَدَعٌ، وأشاعوا أنه لا صلة له بملَّةِ أبينا إبراهيم.

وكُلٌّ سجّل عليه ما بدا له من ملاحظات، وتفوّه بما ظن أنه يروج في الناس، فمنهم من قال:

«كيف يكون هذا الرجل ذلك النبي الموعود؟ كيف وإنه يخالف أبانا إبراهيم ويخالف ذريته؟ ألا ترون أن الإبل كان حراماً محرماً من لدن إبراهيم إلى يومنا هذا؟ وهذا الرجل يزعم أنه حلال ويزعم أنه من أفضل الضحايا[(١)].

ومنهم من قال: «كيف يكون هذا الرجل ذلك النبي الخاتم؟ فإن النبي الخاتم يُبعثُ عند البيت الذي بناه إبراهيم وذلك البيت هو بيت المقدس لا الكعبة. هكذا زعموا وحرّفوا في كتبهم اسم «بكة» إلى «وادي البكاء»[(٢)]، كتماناً لأمر هذه البعثة، فنبّه الله على أكذوبتهم هذه في تلك السورة على سبيل الإجمال ثم فصله في سورة آل عمران حيث قال:

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ (لا للبكاء!) مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ * فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦ ـ ٩٧].

ومنهم مَنْ قال: القرابين التي تُقَرَّبُ إلى الله لا يُؤكَلُ منها فكيف يُبيحُ هذا النبيُّ الأكلَ منها ويندب إليه؟

ومنهم من قال: إن الهدي والقلائد لا تُركب ولا تُحلب وهذا النبي لا يمنع من

(١) تفسير المنار، المجلد الرابع ص ٣ ـ في ظلال القرآن ج٤ ص ٩.
(٢) مزمور ٨٤.

ذلك!

ومنهم من قال: إن كان هذا الرجل نبياً فلماذا لا يتقيد بشريعتنا في الحلال والحرام؟ وكيف يخالفنا فيما ألفينا عليه آباءنا؟ وكيف يحلّ هذه الأنعام كلّها مع أن فيها ما هو حلال وما هو حرام؟

ومنهم من قال: إن صح أنه نبيّ وأنه جاء ليردّنا إلى ملة إبراهيم فكيف يسبّ هذه الآلهة وكيف ينفي تلك الأوثان؟ وهل هي تخالف ملة أبينا إبراهيم؟ وإن كان الأمر كذلك فمن جاء بها وأقرّها في بيتِ اللّه الذي بناه أبونا إبراهيم؟

وبالجملة فتلك الترّهات البسابس التي جاء بها المغرضون وهي كانت تشغل الأذهان وقت نزول السورة وكانت كلها تدور ـ كما لا يخفى ـ حول الكعبة وحول ما يتصل بها من شعائر الحج ومناسكه، ولعلّ هذا هو السرّ في تكرار المنسك في تلك السورة، حيث قال تعالى:

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَـٰمِ ۗ فَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴾ [الحج: ٣٤].

ثم قال مرة أخرى:

﴿ لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ۖ فَلَا يُنَـٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ ۚ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الحج: ٦٧].

وأيضاً ذكر في بداية السورة أن هذا الكون بما فيه يسجدُ لخالقه وذكر من ضمنه الدوابّ حيث قال:

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴾ [الحج: ١٨].

تنبيهاً إلى أن هذه الدواب تسجد ـ بطبيعتها ـ لِمَنْ خلقَها فلا يجوز أن تُقدَّمَ إلى الأوثان ولا يجوز أن يذكر عليها غير اسم خالقها الرحمن.

فكانت هذه الشبهات أو هذه الترّهات تشاع في الجماهير، وكانت تثار بها المشاعر، وكانوا يجادلون بها النبي والمؤمنين.

وكان يحسب هؤلاء الشياطين أنّهم يُعجِزون بذلك موكبَ الإيمان ويشفون صدورهم، فالمكيدة كانت خطيرة جداً ولا شك، ولو أنهم نجحوا في مكرهم ونجحوا في إشاعتهم أن هذا النبي مخالف لملّة إبراهيم في شعائر الحج ومناسكه ومخالف له في مركزه ومهبطه لكان قد انتهى الأمر ولم يبق مجالٌ لقولِ أيِّ خطيب.

ولكن أنّى لهم ذلك؟ وقد كان اللّه مولى هذا النبي ونصيره، فنعم المولى ونعم النصير.

فأنزل اللّه هذه الآيات، ونسخ بها تلك البدع وتلك المفتريات حيث قال تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ * وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِۖ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ * ثُمَّ لْيَقْضُواْ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ * ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْۖ فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ * حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ * ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ * لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ * وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُواْۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ * ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ * وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌۖ فَٱذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الحج: ٢٥ ـ ٣٧].

فلنتدبر تلك الآيات فإننا نجدها تناولت كل هذه الشبهات تناولاً مباشراً، وهي من الوضوح بحيث يمكننا أن نحدّدها من نفس تلك الآيات.

ثم قيل للنّبي بعد ما أشير إلى نصر أصحابه وتمكينهم وبعد ما ذُكر عدد من الأقوام وذُكِرَ سوءُ مصيرهم بسبب تكذيبهم بأنبيائهم:

﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ * فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ * وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الحج: ٤٩ ـ ٥١].

ثم سيق العزاء إلى النبي ﷺ بأن هذه سنة اللّه في الرسل والأنبياء، فكلما جاء نبيّ وتمنى أن يؤمن به قومه هبّت الشياطين (وهم شياطين الإنس كما نعلم من مستهلّ السورة)، وجنّدوا طاقاتهم لقطع الطريق على أنبيائهم، ونَفَّروا عنهم القوم بأكاذيبهم وقالوا: إنه جاء ليفسد دينكم ويهدم تقاليدكم التي ورثتموها عن آبائكم وهكذا. . . فينسخ اللّه تلك المفتريات وينسخ تلك الأكاذيب ويحكم آياته.

وهذا الوضع ليس إلا مظهراً من مظاهر علمه وحكمته، فإنه يتميّز به الخبيث من الطيب، فتكون تلك الإثارات وتلك المفتريات فتنة للذين في قلوبهم مرض (وهم الذين يعبدون اللّه على حرف)، والقاسية قلوبهم (وهم اليهود الذين يجادلون في اللّه بغير علم)، وتكون فتنة للظالمين كذلك (وهم المشركون الذين يجادلون في اللّه بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير)، ولا شك أنهم في شقاق بعيد حيث إنهم يخالفون نبيّهم الذي جاء لِيُلبسهم تاجَ العزّ والكرامة ويحالفون اليهودَ الذين يحسدونهم على شرفهم ويريدون أن يحرموهم من العزّ الذي ينتظرهم وياله من شقاق! وأيّ شقاق يُضارِعُ هذا الشقاق؟!

لكن الذين أوتوا العلم ـ وهم العلماء الصالحون من أهل الكتاب ـ يعرفون حقيقة الأمر ويعرفون حقيقة مفتريات اليهود، فإذا جاء وحيٌ من اللّه ينسخ تلك المفتريات اطمأنوا إليه وعلموا أنه الحق من ربهم، فإنهم يجدونه مُصَدِّقاً لما معهم.

ثم يستمر القول في تبشير المؤمنين الذين يستقيمون على الجادّة ويصبرون على لأواء الهجرة في سبيل اللّه مع إنذارٍ وتبكيت للمخالفين الذين يجادلون النبي والمؤمنين بغير علم ولا ينتهون عن غوايتهم، حتى تنتهي السورة بتلك الآيات الكريمة:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْۤ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩ * وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾ [الحج: ٧٧ ـ ٧٨].

**عدّة معانٍ جديدة هدانا إليها النظام:**

فلننظر هذا النظام العام للسورة كيف يجلّي لنا تلك الآيات بكل ملابساتها، وكيف تتكشف لنا من خلالها عدة معان جديدة، لم نكن لنصل إليها لولا أن هُدِينا إلى هذا النظام وهي كما يلي:

١ ـ تجلت لنا الأمنية التي كانت تجول في خاطر النبي ـ ﷺ ـ وهي أن يُخْرِجَ العربَ من الوثنية السخيفة إلى ملة أبيهم إبراهيم وينشىء منهم أمة مسلمة لربها، وهي نفس الأمنية التي تمناها إبراهيم على ربه إذ كان يرفع قواعد البيت:

﴿ رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ١٢٨].

٢ ـ تَشخَّصتْ لنا تلك الإلقاءات التي كان يلقيها الشيطان في أمنيته.

٣ ـ تبرهن لنا معنى الشيطان وعرفنا أن اللام هنا يفيد معنى الجنس، وأريد بالشيطان هنا شياطين الإنس، وعلى رأسهم طواغيت اليهود، الذين سبق ذكرهم في بداية السورة في قوله تعالى:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ ﴾ [الحج: ٣].

٤ ـ انكشف لنا المراد بـ ﴿ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ﴾ [الحج: ٥٤] وهم صلحاء اليهود.

٥ ـ عرفنا نوعية الإلقاءات، فإنَّ معظمها جاءت عن طريق اليهود، وكانت عبارة عن بِدَعِهم وتحريفاتهم التي أحدثوها في كتبهم حتى يُلَبِّسُوا على الناس أمر هذه البعثة

المباركة، فإنهم كانوا يحسدون بني إسماعيل على هذا الشرف العظيم الذي حباهم اللّه به.

٦ ـ عرفنا أن اليهود حاولوا جهدهم ليمحوا العلائم التي كانت تبشّر بهذه البعثة المباركة، ولكنّ كتبهم ـ على رغم أنوفهم ـ ظلّت تحتفظ في غضونها وتضاعيفها ببعض اللوامع التي كانت تلمع إلى هذه البعثة وإلى خصائصها.

فلننظر كيف يفتح لنا البحث عن نظام السورة باباً واسعاً من التبصّر والتأويل بينما الإمام النسفي ـ رحمه اللّه ـ يرى الطريق أمامه مسدوداً فيقول:

«فلما بطلت هذه الوجوه لم يبق إلا وجه واحد، وهو أنه ـ عليه السلام ـ سكت عند قوله: «ومناة الثالثة الأخرى»، فتكلم الشيطان بهذه الكلمات متصلاً بقراءة النبي ـ ﷺ ـ فوقع عند بعضهم أنه ـ عليه السلام ـ هو الذي تكلم بها فيكون هذا إلقاء في قراءة النبي عليه السلام»[١].

تلك العبارة واضحة ناطقة بأنه ـ رحمه اللّه ـ لم يجنح لهذا التأويل إلا على كُرْهٍ، ولو أنه وجد في الأمر سعة لكان له رأي وموقف آخر.

فلينظر من شاء أن الغفلة عن نظام الآيات كيف تصبح حجاباً دون الاطلاع على مرامي الآية وأهدافها.

* * * * *

(١) تفسير النسفي: ج٣ ص ١٠٧.

# الفصل الثاني

# المزية الثانية

النظام هو الدليل إلى صحيح التأويل إذا اشتبهت الوجوه وكثرت الاحتمالات، فكثيراً ما نرى المفسرين - رحمهم الله - يأتون في تفسير كلمة واحدة أو آية واحدة بوجوه مختلفة متباينة، ويذكرون فيها احتمالات عديدة متعارضة، وقد تبلغ هذه الاحتمالات إلى عشرين فأكثر، نأخذ - مثلاً - قوله تعالى:

﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: ١].

فإن الإمام القرطبي ذكر في تأويل الكوثر ستة عشر وجهاً، وهي كما يلي:

**الوجوه الواردة في تأويل ﴿الكوثر﴾:**

١ - إنه نهر في الجنة. رواه البخاري عن أنس والترمذي أيضاً.

٢ - إنه حوض النبي - ﷺ - في الموقف، والأخبار في حوضه في الموقف كثيرة، وهو اختيار عطاء.

٣ - إنه النبوة والكتاب. قاله عكرمة.

٤ - إنه القرآن. قاله الحسن.

٥ - إنه الإسلام. حكاه المغيرة.

٦ - تيسير القرآن وتخفيف الشرائع. قاله الحسين بن الفضل.

٧ - هو كثرة الأصحاب والأمة والأشياع. قاله أبو بكر بن عياش ويمان بن رئاب.

٨ ـ إنه الإيثار. قاله ابن كيسان.

٩ ـ إنه رفعة الذكر. حكاه الماوردي.

١٠ ـ إنه نور في قلبك دلّكَ عليَّ. وقطعك عما سواي.

١١ ـ هو الشفاعة.

١٢ ـ معجزات الرب هدى بها أهل الإجابة لدعوتك. حكاه الثعلبي.

١٣ ـ هو «لا إله إلا اللّه محمد رسول اللّه». قاله هلال بن يساف.

١٤ ـ هو الفقه في الدين.

١٥ ـ هو الصلوات الخمس.

١٦ ـ هو العظيم من الأمر[١].

## كيف نعرف الوجه الصحيح؟

ولا نريد أن نكثر الأمثلة، فكل من اطلع على كتب التفسير علم أن المفسرين ـ رحمهم اللّه ـ أودعوا كتبهم كل ما عثروا عليه من وجوه التأويل.

ومعلوم كذلك أن تلك الوجوه بأسرها لا تصلح لأن تكون تفسيراً لتلك الكلمة أو الآية، فإن فيها ما هو سليم ومنها ما هو سقيم، والوجه الصحيح المراد يكون واحداً لا غير، فإن الكلمة الواحدة أو الآية الواحدة لا تحتمل في سياقها أكثر من معنى واحد.

يقول الإمام الفراهي:

«إن القرآن قطعي[٢] الدلالة، واحتماله المعاني الكثيرة ينشأ من قصور في العلم

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ج٢٠ ص ٢١٦، ٢١٨.

(٢) تلك وجهة نظر كان يميل إليها الفراهي وقد نوه بشأنها في عدة مواضع من مؤلفاته إلا أنه ـ رحمه اللّه ـ لم يزد على أن أشار إليها إشارات ولم يقدر له أن يتناولها تناولاً علمياً دقيقاً ويفصلها تفصيلاً واضحاً مقنعاً، وعلى أية حال فالموضوع هام جداً ويستحق أن يدرس دراسة علمية موضوعية حتى يتبلور الأمر ويظهر الصواب من الخطأ.

والتدبر، والعلماء الذين نقلوا أقوالاً مختلفة في تفاسيرهم أرادوا أن يخلوا بيننا وبين كل ما قيل في تأويل الآيات حتى نختار منها ما يترجح عندنا ولكن ليس لنا أن نحفظ تلك الأقوال كلّها من غير ترجيحِ بعضِها على بعض فنبقى حيارى جاهلين»[١].

ويقول ـ رحمه اللّه ـ:

«وما علمتُ دواء لهذا الداء العضال (وهي الحيرةُ الناتجة من كثرة الأقاويل)، إلا التمسك بالقرآن وردّ الروايات والآراء إلى كتاب اللّه، وهذا لا يكون إلا بأن نؤمن «بأن القرآن لا يحتمل إلا تأويلاً واحداً»، وقد سبق أن بيّنتُ أن القرآن قطعي الدلالة، وليس لعبارته إلا مدلول واحد»[٢].

ولذلك نرى السلف ـ رحمهم اللّه ـ ما كانوا يفسرون الكلمة أو الآية إلا على وجه واحد، وقد أخرج أبو نعيم عن ابن عباس ـ رضي اللّه عنهما ـ أنه قال:

(القرآن ذلولٌ ذو وجوهٍ فاحملوه على أحسنِ وجوهه).

ثم لما جاء عصر التدوين ودُوِّنَتْ آراؤهم ودوّنت أقوالهم وجدنا أنفسنا أمام حشد من الأقوال والآراء والوجوه والاحتمالات.

كما رأينا آنفاً عند الإمام القرطبي حيث ذكر في تأويل «الكوثر» ستة عشر وجهاً، وهذا لا يخص الإمام القرطبي فأغلبية المفسرين ـ رحمهم اللّه ـ ذكروا تلك الأقوال، بل زادوا عليها، حتى بلغ عددها عند صاحب «التحرير» إلى ستة وعشرين قولاً[٣].

ثم نراهم كذلك لم يكتفوا بذكر تلك الأقوال، بل وقفوا منها موقف الاختيار والترجيح، مع التنبيه إلى ما اعتمدوا عليه في ذلك الترجيح.

**موقف عدد من المفسرين وعمدتهم في الترجيح:**

فيقول الإمام ابن جرير بعد حكاية الأقوال الواردة في تأويل الكوثر:

---

(١) فاتحة تفسير نظام القرآن: ص ١٦.
(٢) التكميل في أصول التأويل: ص ٢٠.
(٣) انظر روح المعاني: ٣٠/ ٢٤٥.

«وأولى هذه الأقوال بالصواب عندي قولُ مَنْ قال: هو اسم النهر الذي أُعطيه رسولُ اللّه ـ ﷺ ـ في الجنة، وصفه اللّه بالكثرة لعظم قدره، وإنما قلنا ذلك أولى الأقوال في ذلك لتتابع الأخبار عن رسول اللّه ـ ﷺ ـ بأن ذلك كذلك»[1].

ويقول الإمام القرطبي:

«قلت: أصح هذه الأقوال: الأول والثاني، لأنه ثابت عن النبي ـ ﷺ ـ نص في الكوثر...

«وجميع ما قيل بعد ذلك في تفسيره قد أعطيه رسول اللّه ـ ﷺ ـ زيادة على حوضه، صلى الله عليه وسلم تسليماً كثيراً»[2].

ويقول الإمام الشوكاني:

«فهذه الأحاديث تدل على أن الكوثر هو النهر الذي في الجنة، فيتعيَّنُ المصيرُ إليها وعدم التعويل على غيرها، وإن كان معنى الكوثر: هو الخير الكثير في لغة العرب، فمن فسره بما هو أعم مما ثبت عن النبي ـ ﷺ ـ فهو تفسير ناظر إلى المعنى اللغوي...

«ولكن رسول اللّه ـ ﷺ ـ قد فسره ـ فيما صح عنه ـ أنه النهر الذي في الجنة، وإذا جاء نهر اللّه بطل نهر معقل»[3].

وهكذا نرى أغلبية المفسرين ـ رحمهم اللّه ـ وقفوا من تأويل الكوثر نفس الموقف، محتجِّين بأنه إذا كان هو الثابت عن رسول اللّه فلا مبرّر للركون إلى غيره مما قيل أو يقال.

**سؤال؟**

وهنا يثور سؤال، إذا كان تفسير الكوثر ثابتاً عن نبينا ـ عليه الصلاة والسلام ـ

---

(١) جامع البيان في تفسير القرآن: ج٣٠ ص٢٠٨، ٢٠٩.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ج٢٠ ص٢١٨.

(٣) فتح القدير: ج٥ ص٥٠٣، ٥٠٤.

على وجه التحديد، فما الذي حمل السلف على أن يفكروا فيه ويبحثوا له عن تأويل آخر؟ مع أنهم كانوا على علم بتلك الأخبار التي تزخر بها كتب التفسير.

فهذا ابن عباس حبر الأمة وترجمان القرآن كان مطلعاً على تلك الروايات ولا شك.

كما روى ابن جرير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال:

«الكوثر نهر في الجنة، حافتاه من ذهب وفضة، يجري على الياقوت والدرّ، ماؤه أبيض من الثلج وأحلى من العسل»[١].

وكذا روي عن مجاهد أنه قال:

«الكوثر نهر في الجنة ترابه مسك أذفر وماؤه الخمر»[٢].

ثم نرى عند ابن جرير نفسه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال في الكوثر: هو الخير الكثير الذي أعطاه اللّه إياه، قال أبو بشر: فقلت لسعيد بن جبير: فإن ناساً يزعمون أنه نهر في الجنة قال فقال سعيد: النهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه اللّه إياه[٣].

وكذلك نجد عند ابن جرير نفسه عن مجاهد أنه قال: الكوثر: الخير الكثير، ومرة قال. الكوثر: الخير كله، ومرة قال: خير الدنيا والآخرة[٤].

فهل يقال: إنهم كانوا من الزاهدين في تفسير نبيّهم حتى أَرْخَوا لمداركهم عَنانَ التفكير، ثم طلعوا علينا بتفسير يختلف عن ذلك التفسير؟

وهل يتصور من ابن عباس وأمثاله أن يأتيهم تفسير عن رسول اللّه فلا يحرصون عليه؟

(١) جامع البيان: ج٣٠ ص ٢٠٧.
(٢) جامع البيان: ج٣٠ ص ٢٠٧.
(٣) جامع البيان: ج٣٠ ص ٢٠٨.
(٤) جامع البيان: ج٣٠ ص ٢٠٨.

وأيّ تفسير يكون أحب إليهم من تفسير رسول اللّه؟

إذن فما قاله هؤلاء لا يخلو من ضعف، ولا يصلح أساساً للاختيار والترجيح.

**اتجاه الإمام الألوسي:**

ولعل الإمام الألوسي كان أرشد موقفاً وأشد إدراكاً لطبيعة الموضوع إذ قال:

«وقد أخرج البخاري وابن جرير والحاكم عن طريق أبي بشر عن سعيد بن جبير أنه قال: الكوثر الخير الذي أعطاه اللّه تعالى إياه ـ عليه الصلاة والسلام ـ.

قال أبو بشر: قلت لسعيد فإن ناساً يزعمون أنه نهر في الجنة. قال: النهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه اللّه عز وجل إياه ـ ﷺ ـ وحكى هذا الجواب عن ابن عباس نفسه أيضاً وفيه إشارة إلى ما صح في الأحاديث من تفسيره ـ ﷺ ـ إياه بالنهر من باب التمثيل والتخصيص لنكتة وإلا فبعد أن صَحَّ الحديثُ في ذلك بل كاد يكون متواتراً كيف يعدل عنه إلى تفسير آخر، وكذا يقال في سائر ما في الأقوال السابقة وغيرها»[1].

**ما هو الأساس:**

فإذا لم يكن فيه عن رسول اللّه شيء ثابت على وجه التحديد، وكان علينا نحن أن نختار واحداً من ستة عشر أو ستة وعشرين وجهاً من وجوه التأويل فكيف نختار؟ وعلى أيّ أساس نختار؟

وهل هناك أساس غير الذي أشرنا إليه؟ ألا وهو إمعانُ النظر في نظام السور وتتبع الرباط بين الآيات، فهذا التتبع وهذا الإمعان هو الذي سينير لنا الطريق وسيكشف لنا القناع عن التأويل الصحيح.

قال الإمام الزركشي، وهو يذكر الأمور التي تُعِينُ على المعنى عند الإشكال:

«ومما يعين على المعنى عند الإشكال أمور، ومنها دلالة السياق، فإنها ترشد إلى تبين المجمل والقطع بعدم احتمال غير المراد، وتخصيص العام، وتقييد المطلق،

---

(١) روح المعاني: ج٣٠ ص ٢٤٥.

وتنوع الدلالة، وهو من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم فمن أهمله غلط في نظيره، وغالط في مناظراته»[1].

ويقول الإمام الفراهي:

«إذا كثرت وجوه التأويل في آية كان الأمر هناك كاشتراك اللفظ، والحكم عند اشتراك اللفظ لموقع استعماله، فكذلك الأمر عند اشتراك الوجوه في آية حيث لا سبيل إلى المعنى المراد غير النظر في موقع الآية.

ومن هنا تظهر شدة الحاجة إلى النظام، فإن السبب الوحيد في الاختلاف الكثير أنهم لم يراعوا النظام وتهافتوا على الروايات فخبطوا في العمايات.

ومن ذلك موقع السورة فإن في العلم به نوراً وهدى»[2].

وعلى هذا فلنمعن النظر في نظام سورة الكوثر وما جاورها من السور، فإن ذلك سيكون لنا معواناً على إدراك المراد بالكوثر.

**نظام سورة الكوثر وما جاورها من السور:**

فلنبدأ مسيرتنا هذه من سورة الفيل، فإذا تأملنا فيها وجدنا اللّٰه ـ تعالى ـ قد ذكر فيها قصة هلاك أصحاب الفيل، الذين جاؤوا ليهدموا الكعبة، بيت اللّٰه الحرام.

ذكر هذه القصةَ ليعظَ قريشاً عن سوء تصرفاتهم وسوء موقفهم من الكعبة، فإنهم قد نسوا غايتها ونسوا رسالتها وأبعدوها عن أهدافها.

فالكعبة بنيت حتى تكون مشرقاً للتوحيد ومركزاً للإسلام وقبلة للصلاة ومثابة للناس وأمناً، ولكنهم دنّسوها بالكفر والشرك، وملؤوها بالأحجار والأصنام، وجعلوها وثناً من الأوثان، وصَدُّوا عنها الرسول والمؤمنين، وبذلك شهدوا على أنفسهم بالسعي في خرابها، وإن كانوا يزعمون بألسنتهم أنهم أولياؤها، حيث قال

---

(١) البرهان في علوم القرآن: ج٢ ص١٩٩، ٢٠٠.

(٢) التكميل في أصول التأويل: ص ٢٩.

تعالى:

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ﴾ [البقرة: ١١٤].

فأنذرهم اللّه تعالى وتوعدّهم أنه كما أهلك أصحاب الفيل، الذين جاءوا ليهدموا بيته وجعلهم كعصف مأكول فكذلك سيدمّرهم إن لم ينتهوا عما هم فيه من إخراب هذا البيت، فإنهم إذا وقفوا من البيت موقف أصحاب الفيل فلا جرم أنهم سيذوقون ما ذاق هؤلاء من تعذيب وتنكيل.

وقد جاءت مثل هذه الإنذارات في عدة مواضع، قال تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الحج: ٢٥].

﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٤].

ثم جاءت سورة قريش موعظة لهم وتذكيراً بواجبهم بعد ما سبقه من إنذار وتهديد.

فذكر اللّه تعالى فيها نعمته السابغة وفضله العميم على قريش إذ كانت قوافلهم التجارية تخرج في الصيف إلى الشام وفي الشتاء إلى اليمن، وكانوا يرحلون آمنين مطمئنّين ويعودون سالمين غانمين، وما كان يطمع فيهم طامع، بل كانوا موضع احترام وتقدير لدى الجميع، وكانوا يجدون أينما حلوا، الرعايةَ والكرامة، على الرغم من أن الجزيرة كانت تفقد الأمن والاطمئنان، وكانت الأسفار يومئذ محفوفة بالأخطار.

وما كان هذا كله إلا لأنهم جيرانُ بيت اللّه!

فذكَّرهمُ اللّهُ تعالى ما يجبُ عليهم لقاء هذه الكرامة والرفاهية التي أُفيضت عليهم، وهو أن يعبدوا رب هذا البيت، الذي يسعدون بجواره وينعمون ببركاته، وأن يطرحوا ما فيه من أصنام، ويعيدوه ـ كما كان ـ مركزاً للتوحيد ومثابة للأنام.

وقرن هذه السورة بسورة الفيل حتى لا يغترّوا بالنعم والرفاهية التي يغدون فيها

ويروحون وينهلون منها ويعلّون، ويتذكروا أن هذه الرفاهية ليست إلا فيضاً من فيوض الكعبة، فإن لم يراعوا حرمتها ولم يعودوا إلى رسالتها وأهدافها ولم ينتهوا عن السعي في خرابها فلا يأمننّ أن يلاقوا ما لاقاه أصحاب الفيل من خزي ولعنة إلى يوم القيامة.

ثم جاءت سورة الماعون، جاءت تصب عليهم البلاء، وتهددهم بالويل والشقاء، فإنهم كذّبوا بيوم الدين ولم يعبدوا ربهم ولم يحافظوا على صلاتهم.

نعم إنهم كانوا يصلون، ولكن صلاتهم كانت تَبعُد كلَّ البُعْدِ عن التي أشار إليها أبوهم إبراهيم حيث قال:

﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

ودعا ربه فقال: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٤٠].

وإنما كانت صلاتهم حيث وصفها القرآن فقال:

﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمۡ عِندَ ٱلۡبَيۡتِ إِلَّا مُكَآءٗ وَتَصۡدِيَةٗۚ﴾ [الأنفال: ٣٥].

كانت طقوساً جوفاء ومظاهر خاوية، بعيدة عن روح الصلاة وروعتها وبهائها، مشوبة بما يَشِينُها من أوضار الجاهلية وأرجاسها.

وهكذا كانوا يصلون وكانوا عن صلاتهم ساهين.

ثم لم يقف الأمر عند هذا الحدّ، بل قست قلوبهم وقست، حتى كانوا يَدعُّون اليتيمَ ويمنعون الماعون ولا يحضّون على طعام المسكين.

وهكذا هدّموا العمودين الذين رُفعت عليهما قواعد البيت، وهما الصلاة والزكاة، أو العبادة والمواساة.

فلم يبق لهؤلاء الخونة الفجرة إلا أن يُلْعَنُوا ويُخرَجُوا من هذا البيت وولايته ويُخَلَّى المكان لأهله كما قال تعالى:

﴿وَمَا لَهُمۡ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمۡ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوۡلِيَآءَهُۥٓۚ إِنۡ

﴿أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤ ـ ٣٥].

وقال تعالى:

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ * إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٧ ـ ١٨].

وعلى هذا، فجاءت سورة الماعون، وكانت بمثابة النداء من إله هذا الكون بأنهم عُزِلوا عن هذا المنصب الكريم، وحُرِمُوا هذا الشرفَ العظيم، وقضى الويل واللعنة عليهم أجمعين.

ثم جاءت سورة الكوثر. جاءت تحمل البشرى إلى النبي وأصحابه بأن الله قد اختارهم لهذا الشرف الأكبر ومنّ عليهم بهذا الخير الكوثر، مَع التنبيه إلى ما يتبع هذا العطاء من مسؤولية كبيرة ضخمة، ألا وهي إحياء ما أماته المشركون من معالم التوحيد، الذي أُسِّسَ عليه هذا البيت العتيق، حيث قال تعالى:

﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾.

ولقد حاول الفراهي أن يبرز النظام الذي تنتظم به هذه السور، فأحسن وأجاد. يقول ـ رحمه الله ـ:

«قد مرّ في تفسير السورة السابقة أنها نزلت في ذكر الذين كبرت خيانتهم في ولاية الكعبة لما أنهم أفسدوا الحج ومناسكه، وأبطلوا حقيقة الصلاة والنحر بإبطال التوحيد والعدول عن مواساة المساكين، فباؤوا بالويل واللعنة واستحقوا أن يسلبهم الله هذا الخير ويعطيه مَنْ يستحقه حسب سنته كما قال ـ تعالى ـ:

﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد: ٣٨].

وكأن الله تعالى ينزع ولاية الكعبة من الخائنين. فبهذه السورة بشر نبيّه ﷺ بأنه

اصطفاه وأمته لولاية بيته المحرم، ومسكن خليله وذريته التي يبارك بها الأمم، كما جاء في التوراة، ولذلك سمّي اللّه تعالى هذا البيت ﴿مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦].

ولا شك أن هذا العطاء هو الفوز الأكبر والخير الكوثر وهو الضمان للحوض الكوثر الذي يعطيه اللّه تعالى في الآخرة.

فموقع هذه السورة من التي قبلها كموقع ذِكْرِ النعمة بعد النقمة، والعطاءِ بعد السلب، والمستخلَفين بعد المُهلَكِين، وذلك أسلوب شائع في القرآن.

ذلك، ولما كانت السورة التالية في إعلان الهجرة من جوار هذا البيت حَسُنَ في نظم الكلام أن تقدم عليها سورة التبشير والتسلية ليدل القرآن بنظمه ذلك على أن اللّه تعالى قضى باليسر قبل العسر وإن كان وقوعه بعده.

فترى أن إعلان الهجرة الذي تضمنته ﴿سورة الكافرون﴾، وضع بين سورتي التبشير أعني ﴿سورة الكوثر﴾ و﴿سورة النصر﴾.

ثم لما كانت هذه السورة بشارة للنبي ـ ﷺ ـ بكثرة أحبائه وبقطع أعدائه عن بركات الكعبة جاءت سورة الكافرون بياناً لأصل هذا القطع، وهو البعد عن التوحيد الذي بُني عليه هذا البيت.

هذا إجمال القول في عمود السورة ونظمها، وأما الاطمئنان إلى ما ذكرناه فيوشك أن يحصل من تفصيلٍ يتبعه.

«واعلم أن الأصل الذي نتمسك به في تأويل الكوثر هو نظم السورة وموقع آياتها ورباط معانيها وحسن تأويلها كما سيتبيّن لك بالنظر في الفصول التالية[(١)].

**بقية السور تكملة لسورة الكوثر:**

ويبدو بعد التأمّل في نظام هذه السورة كأن القرآن أُكملَ وخُتمَ بهذه السورة

---

(١) تفسير سورة الكوثر للفراهي ص: ١ ـ ٣.

العظيمة، وأما السور التالية لها فهي تكملة لها وتبيين لمحتوياتها.

فسورتا ﴿الكافرون﴾ و﴿الإخلاص﴾ بمثابة التكملة والتبيين لقوله تعالى: ﴿فصلِّ لربك وانحر﴾، كأنه قيل:

«فصل لربك وحده وانحر لربك وحده، وناد في الناس أنك بريءٌ من الشرك وأهله وآلهته فقل يا أيها الكافرون، لا أعبد ما تعبدون، وإنما الذي أعبده هو اللّه الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد».

وجاءت بينهما سورتا ﴿النصر﴾ و﴿اللهب﴾، وكان ذلك في غاية الروعة والحكمة، فإنهما لم يكن لهما مكان أنسب من هذا، والذي يثير العجب أنهما وضعتا بين سورتين شقيقتين متماسكتين للغاية، ولكن هذا الوضع لم يخدش تماسكهما، بل زادهما تماسكاً إلى تماسك بشكل عجيب، وذلك من جهتين:

الأولى: أن هاتين السورتين بمثابة التكملة لقوله تعالى: ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾، وقوله تعالى: ﴿إن شانئك هو الأبتر﴾ كأنه قيل:

إذا جاء نصر اللّه والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين اللّه أفواجاً ورأيت عدو اللّه قد تَبَّ وتبت يداه ورأيتَ الكفر قد تمزّقَ وانتقضت عُراه فحينئذٍ يتحققُ هذا العطاء الإلهي الكريم في أجلى صوره، ويفرض وجوده على الجميع بحيث لا يبقى مُنْكِرٌ على إنكاره، وينكشف أن الأعداء هم الأباتر على عكس ما زعموا.

والجهة الثانية: أن إعلان البراءة (الذي تتضمنه سورة الكافرون) معناه إعلان الهجرة والجهاد.

كما جاء ذلك واضحاً في قول إبراهيم والذين معه: ﴿ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤].

وإذا كانت الهجرة وكان الجهاد فلا بدَّ أن ينزلَ النصرُ ويأتي الفتح كما قال تعالى:

﴿ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧].

﴿ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الصف : ١٣].

علماً بأن تلك الآية إنما جاءت لتبشر بما يترتبُ على الجهاد من جزاءٍ كريم وبلاء عظيم.

وإذا جاء النصر فلا بد أن يُكسرَ جناحُ الشرك ويُؤذنَ له بالتباب، فارتباط هاتين السورتين كالذي في قوله تعالى:

﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء: ٨١].

فلما انتصر الحق وانتكس الباطل وفَتحت مكةُ لجنود الإسلام أبوابَها وعادت الكعبة إلى أهلها وأوليائها، وأصبحت ـ كحالتها يوم أُسِّستْ ـ مشرقاً للتوحيد وموئلاً للإيمان ومثابة للناس وأمناً، وعاد الحق إلى نصابه وأَرزَ الشرك إلى أجحاره، حينئذ ختم على هذه الصحيفة الخالدة بختم التوحيد، وجاء الأمر الإلهي يجلجل في الكون:

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾.

فكان هذا إيذاناً برفع لواء التوحيد عالياً خفّاقاً، وكان إيذاناً بانتكاس الشرك وانحسار ظله تماماً في البيئة المؤمنة التي رضيت بالله رباً وبمحمد رسولاً وبالقرآن هادياً وإماماً.

ثم جاءت المعوّذتان، وهما بمثابة التكملة لمفهوم «الصمد» والتبيين له، فإن الصمد هو الذي يُستعاذ به ويُلجأ إليه ضدّ العدوّ، فعلَّمنا الله كيف نستعيذُ به ونلجأ إليه حتى لا نقع في وحل الشرك ونكون بمنجاة من الشيطان، فإن الاستعاذة بالله والالتجاء إليه ركنٌ من أركان التوحيد وسلاح من أسلحة المؤمن، ومن لم يحمل هذا السلاح أوشك أن تختطفه الشياطين.

وهكذا نرى هذه السور كلها ترتبط بسورة الكوثر وتحوم حولها، ونرى كذلك أن الله تعالى كما جعل غاية بعثة النبي ـ ﷺ ـ استخلاص الكعبة وفتح مكة ـ كما تُوحي إلينا سورةُ النصر ـ وبعد ما تمّ هذا ختمَ نبوته ودعاهُ إلى جواره، فكذلك ختم صحيفته

التي أنزلت عليه ببشرى تكريمه بالكعبة، وسماها الكوثر إشارة إلى خيراتها وبركاتها التي لا نهاية لها.

ويقرب منه ما قاله الفراهي حيث يقول:

«قد ذكرنا في تفسير سورة النصر أن اللّه تعالى كما ختم هذه البعثة، بفتح مكة فكذلك ختم كتاب هذه النبوة بذكر هذا الفتح العظيم، وذلك إنباء بأن الحق بلغ مركزه لأن فتح مكة هو مركز هذه البعثة لكونِ الكعبة مركزاً للتوحيد والإسلام»[1].

ويزيدنا اطمئناناً وركوناً إلى هذا النظام أنه يتفق تماماً مع تلك الكلمات الخالدة التي نطق بها النبي - ﷺ - يوم فتح مكة، إذ قال وهو آخذٌ بعضادتي باب الكعبة:

«لا إله إلا اللّه، وحده لا شريكَ له، صدقَ وعده ونصرَ عبده وهزم الأحزاب وحده»[2].

فإن «لا إله إلا اللّه» ناظر إلى سورة الكافرون. و«وحده لا شريك له» ناظر إلى سورة الإخلاص، و«صدق وعده» ناظر إلى سورة الكوثر، و«نصر عبده» ناظر إلى سورة النصر، «وهزم الأحزاب وحده» ناظر إلى سورة اللهب.

وروى جابر بن عبداللّه - رضي اللّه عنه - وهو يحكي كيفية حجة النبي - ﷺ - فقال:

«حتى إذا أتينا البيت معه استلم الركنَ فرملَ ثلاثاً ومشى أربعاً ثم نفذ إلى مقام إبراهيم عليه السلام فقرأ ﴿واتَّخِذُوا من مقامِ إبراهيم مصلى﴾، فجعل المقام بينه وبين البيت، فكان أبي يقول ولا أعلمهُ ذكره إلا عن النبي - ﷺ - «كان يقرأ في الركعتين: قل هو اللّه أحد، وقل يا أيها الكافرون ثم رجع إلى الركن فاستلمه»[3].

---

(١) تفسير سورة اللهب للفراهي ص: ١.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام، ت: مصطفى السقا وزملاءه ٣ / ٤١٢، وزاد المعاد للإمام ابن القيم ج٢ ص ١٦٥.

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي: ٨/ ١٧٤، ١٧٦.

ولعل السرَّ في جمع النبي ـ ﷺ ـ هاتين السورتين في قراءته هي القرابة الماسّة بينهما، فإن من هَدْيِهِ ـ ﷺ ـ أنه كان يراعي في قراءته الترتيب، اللهم إلا إذا كان هناك سببٌ ونَسَبٌ مباشر بين سورتين، فكان يراعي ذلك.

ونستشفّ كذلك من خلال قراءته هاتين السورتين بعد الطواف بالبيت أن هناك صلة خاصة تربطهما بهذا البيت. وإذا كان الأمر كذلك، فلا جرم أن يكون هذا البيت هو الذي سبق ذكره باسم الكوثر، وقد اختار النبي ـ ﷺ ـ هاتين السورتين لهذا المقام جرياً على مقتضى النظام.

فلينظر الناظر أن تتبُّعَ النظامِ في هذه السور كيف يكشف لنا القناع عن التأويل الصحيح «للكوثر».

ثم لما تبين لنا التأويل الصحيح «للكوثر» في ضوء نظام هذه السور، لم يعد عسيراً علينا أن نختار الصحيح الأمثل من تلك الاتجاهات التي رويت لنا في تأويله، فالذي نراه أقرب للصحة من غيره، مما روي لنا في تأويله، كما يلي:

١ ـ قال ابن جرير: حدثني يونس قال أخبرنا ابن وهب قال: ثنى أبو صخر عن محمد بن كعب القرظي أنه كان يقول في هذه الآية: ﴿إنا أعطيناك الكوثر، فصل لربك وانحر﴾، يقول: إن ناساً كانوا يصلون لغير اللّه وينحرون لغير اللّه فإذا أعطيناك الكوثر يا محمد فلا تكنْ صلاتُكَ ونحرك إلا لي»[1].

٢ ـ وقال: حدثني يونس قال: أخبرنا ابن وهب قال: أخبرني أبو صخر قال: ثني أبو معاوية البجلي عن سعيد بن جبير أنه قال: كانت هذه الآية يعني قوله: ﴿فصل لربك وانحر﴾، يوم الحديبية، أتاه جبريل عليه السلام فقال: انحر وارجع فقام رسول اللّه ـ ﷺ ـ فخطب خطبة الفطر أو النحر ثم ركع ركعتين ثم انصرف إلى البُدْنِ فنحرها، فذلك حين يقول: ﴿فصل لربك وانحر﴾[2].

---

(١) جامع البيان في تفسير القرآن: ج٣٠ ص ٢١١.
(٢) جامع البيان في تفسير القرآن: ج٣٠ ص ٢١٢.

فهاتان الروايتان أقرب للصحة لأنهما تنسجمان مع ما يوحي إلينا نظام السور.

أما الأولى منهما فهي واضحة في مدلولها وليست بحاجة إلى زيادة إيضاح، وأما الأخرى فمفادها أنّ قريشاً صَدُّوا النبيَّ وأصحابه عن المسجد الحرام، ولم يسمحوا لهم بالحج أو العمرة عام الحديبية، فجاءتهم البشرى والسلوى: إنا أعطيناك هذا الكوثر، ولتدخُلَنَّهُ على رغم أنوفهم، فلا تأسَ على ما فعلوا، وصَلِّ الصلاةَ وانحرِ البُدْنَ، واعلم أنهم أرادوا أن يقطعوك عن الكعبة وبركاتها ولكنهم سوف يرون أنهم هم المقطوعون عنها وليس لهم منها حظ ولا نصيب، ولا حبل ولا بعير.

قد يقال هنا، لماذا لم نتقيد في البحث عن نظام هذه السور بما ورد في أسباب نزولها، مع أن جمعاً من المفسرين ـ رحمهم الله ـ قد التزموا به في كتبهم؟ وهذا سؤال وجيه ولا شك، وسنتولى الردّ عليه في الفصل الذي سنخصّصه للكلام عن أسباب النزول، وسنجد هناك ما يرضي النفس ويثلج الصدر بإذن الله.

* * * * *

# الفصل الثالث

## المزية الثالثة

النظام مفتاح لكثير من كنوز القرآن وحكمه، كما أنه سر من أسرار إعجازه، فإنه هو الذي جعل القرآن بحراً لا يُسبر غوره ولا ينفد كنزه.

قال الإمام الرازي:

«أكثرُ لطائفِ القرآن مُودَعةٌ في الترتيبات والروابط»[١].

وقال الإمام الزركشي:

«وهذا النوع يهمله بعض المفسرين أو كثير منهم وفوائده غزيرة»[٢].

وقال الإمام البقاعي:

«المقصود بالترتيب معان جليلة الوصف، بديعة الرصف، عالية الأمر، عظيمة القدر»[٣].

وقال الإمام الفراهي:

«ولما كان أكثر الحكم ومعالي الأمور مخبوءة تحت دلالات النظم، فمن ترك النظر فيه ترك من معنى القرآن معظمه، والقرآن حكمة ونور، وقد أشار النبي - ﷺ - إلى

---

(١) البرهان في علوم القرآن: ج١ ص ٣٦.

(٢) أيضاً.

(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ج١ ص ١٢، ١٣.

ذلك في قوله: «ألا إني أُوتيتُ القرآنَ ومثله معه بل أكثر»، أو ما يشبه ذلك، وذلك هو فَهْمُه وهو بحر لا ساحل له، ومنه فهم النظم، فإن المعاني تكثر بعد ذلك»[1].

وهذه لفتة غالية ذات قيمة وأهمية بالغة، فلا بد أن نتنفس فيها ونعطيها حقها من البيان والإيضاح.

فلنعلم أن ما نبّه إليه هؤلاء الأعلام ليس مجرد خاطرة خطرت ببالهم، ثم ألقوها على عواهنها، وإنما هي ظاهرة علمية لها جذور عريقة، ثابتة موغلة في العهد الذي نزل فيه القرآن، وها هي تلك الآثار التي تعزز هذا القول:

قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه:

«لو ضاع مني عقال بعير لوجدته في كتاب اللّه»[2].

ويشبهه ما قاله الإمام الشاطبي حيث يقول:

«وهو أنه لا أحد من العلماء لجأ إلى القرآن في مسألة إلا وجد لها فيه أصلاً»[3].

ثم نرى عبداللّه بن مسعود رضي الله عنه يقول بمثل ما قاله سيدنا أبو بكر رضي الله عنه إذ يقول: «إذا أردتم العلم فأثيروا القرآن، فإن فيه علمَ الأولين والآخرين»[4]، ثم نجد تصديق هذين القولين في كتاب اللّه. حيث قال ـ تعالى ـ:

﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ ﴾ [النحل: ٨٩].

قال ابن مسعود في تفسيره: «قد بين لنا في هذا القرآن كل علم وكل شيء»[5].

وقال مجاهد: «كل حرام وحلال»[6].

---

(١) دلائل النظام: ص ٣٨.

(٢) نظرات في القرآن للإمام حسن البنا ـ رحمه اللّه ـ ص ٩٧.

(٣) الموافقات ج٢ ص ٢٧١ «الطرف الثاني» في الأدلة على التفصيل.

(٤) أيضاً.

(٥) تفسير ابن كثير: ج٢ ص ٥٨٢.

(٦) تفسير ابن كثير: ج٢ ص ٥٨٢.

وعقب عليهما ابن كثير بقوله:

«قولُ ابن مسعود أَعَمُّ وأشمل، فإن القرآن اشتمل على كل علم نافع: من خبرِ ما سبقَ وعلمِ ما سيأتي، في كل حرامٍ وحلال، وما الناسُ إليه محتاجون في أمر دنياهم ودينهم ومعاشهم ومعادهم»[1].

وقال سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

«كونوا أوعيةَ الكتاب وينابيعَ العلم»[2].

أي: تمسكوا بالقرآن واستوعبوه وتشبعوا به وعوه تصبحوا ينابيع العلم، فإن القرآن هو الذي تتفجر منه تلك الينابيع.

وتصديق ذلك ما قاله سيدنا علي رضي الله عنه إذ يقول:

«ها إن ههنا لعلماً جمّاً (وأشار إلى صدره) لو أصبتُ له حَمَلةً»[3].

وقال ـ رضي الله عنه ـ: «وإن القرآن ظاهره أنيق وباطنه عميق، لا تفنى عجائبه ولا تنقضي غرائبه»[4].

وهنا نجد أنفسنا أمام عديد من الأسئلة:

١ ـ ما هو الباطن الذي وصفه علي رضي الله عنه بالعمق وبأنه لا تفنى عجائبه ولا تنقضي غرائبه؟ هل هو غير النظم المعجز الذي يتميّز به القرآن من بين سائر الكلام؟

٢ ـ ما هو العلم الجمّ الذي كان يموج به صدره ولم يُصِبْ له حَمَلةً؟ هل كان يعني به العلم الذي تشتمل عليه ألفاظ القرآن فهو معروف ميسور، أم عنى به ما وضعه اللّه تحت دلالات النظم؟ فهذي كنوز ما يُلقَّاها إلا ذوو حظ عظيم، وقليلٌ ما هُمْ!

---

(١) تفسير ابن كثير: ج٢ ص ٥٨٢.

(٢) البيان والتبيين للجاحظ: ج٢ ص ٣٦٣، وحلية الأولياء وطبقات الأصفياء: ١ / ٥١.

(٣) نهج البلاغة بشرح الشيخ محمد عبده: ج٤ ص ٣٦.

(٤) نهج البلاغة: ج١ ص ٥٥.

٣ ـ ماذا أراد عمر رضي الله عنه بقوله: «كونوا أوعية الكتاب»؟ هل كان يعني به حفظ ألفاظ القرآن وفهم مفرداته؟ فهذا شيء لم يكن نادراً في ذلك الجيل ـ الجيل الذي نشأ في رحاب القرآن.

أم كان يوصيهم بأن يستوعبوا القرآن ويشربوه ويغوصوا في بحره ويسبروه، ويبحثوا عن الكنوز التي وضعها اللّه في نظامه فيفيضوا بالعلم؟

٤ ـ ماذا كان يقصد ابن مسعود رضي الله عنه بإثارة القرآن؟ هل كان يقصد أن تعرف هذه الألفاظ وتعرف مدلولاتها الظاهرة فحسب، أم كان يقصد أن نطلّ من تلك النوافذ لما وراءها من الفرائد، والتي لا نعثر لها على أثر إلا بتتبع النظام؟

٥ ـ وماذا كان يقصد أبو بكر رضي الله عنه حين قال: «لوجدته في كتاب اللّه»؟ هل كان يعني بكتاب اللّه ظهر القرآن؟ فظهر القرآن لا يدله على «عقال بعير»، وإنما الذي يدلّه على هذا العقال هو بطن القرآن، والدليل إلى هذا البطن هو النظام.

هذا، وسنفصّل قولنا هذا بعديد من الأمثلة، حتى يتبين لنا أن تتبع النظام كيف يُسَخِّرُ الشوارد ويُقَيِّدُ الأوابد ويمدُّ الباحث بما لم يكن في حسبانه من الأطايب والفرائد.

**مثال لانفجار المعاني بفضل تتبع النظام:**

قال اللّه ـ تعالى ـ في كتابه العزيز: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ . . .﴾ [البقرة: ١٧٧].

فحينما نتدبر تلك الآية الواحدة ونمعن النظر في نظامها تتجلّى لنا عدة حقائق قيمة، وهي كما يلي:

**الحقيقة الأولى:**

ذُكرت في الآية مظاهر البرّ وأركانه وذكر في آخرها الإيفاء بالعهد بأسلوب خاص يميّزه عما سبق.

وهذا النظم بهذا الأسلوب يوحي إلينا أن الإيفاء بالعهد له شأن خاص من بين

أركان البرّ، بل هو الأصل في معنى البرّ، وسائر ما ذكر من الصفات والمعاني منبثقة من هذا المعنى وناتجة منه.

ويشبه هذا النظم ما مر معنا في أول الحديث مع بني إسرائيل، وإن كان هناك فرق يسير في الموضعين، حيث ذكر هناك الإيفاء بالعهد أولاً:

﴿يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وإياي فارهبون﴾، ثم ذكر البرّ حيث وجّه العتاب إليهم في شأنه:

﴿أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون﴾.

ولكن هذا الاختلاف في الترتيب لا يمنعنا من الوصول إلى ما وصلنا إليه، بل يمدّنا بالاقتناع به والاطمئنان إليه.

واختلاف الترتيب في الموضعين إنما هو بسبب الجوّ الذي يحيط بهما.

فالجوّ في الموضع الأول جوّ توجيه وإرشاد فَوُعِظُوا وذُكِّروا أولاً بأن يُوفُوا بعهدِ اللّه ويقوموا لأداء ما يملي عليهم هذا العهد، ثم عوتبوا على أنهم يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم.

بخلاف الموضع الثاني حيث أن الجوّ فيه جو تنحية من جهة وجوّ تكرمة من جهة أخرى.

فقد نُحِّيَ بنو إسرائيل عن شرف البرّ وفي نفس الوقت أُكرِمَ به قوم آخرون، ثم ذكر - آخر ما ذكر - في سياق القوم الذين أُكرموا بهذا الشرف أنهم يوفون بعهدهم إذا عاهدوا، وذكر هذا بأسلوب متميز خاص: ﴿والموفون بعهدهم إذا عاهدوا﴾.

وليس معنى ذلك إلا أنّ أكبر ما اجترحته اليهود والنصارى هو أنهم نقضوا عهودهم لَمَّا عاهدوا، ولأجل سلوكهم هذا خُلِعَتْ عنهم فضيلة البر.

هذا النظم وهذا الموضع يؤكد لنا أن الوفاء بالعهد هو الأساس وهو الأصل في معنى البرّ، وتَغيُّرُ الأسلوبِ هنا له شأن لا ينكر وهو لا يخلو من دلالة خاصة.

والعرب كثيراً ما استعملوا كلمة البرّ في معنى الفضيلة التي يكون قوامها الإيفاء

بالعهد، قال امرؤ القيس:

عليهـا فتـىً لـم تحمـلِ الأرضُ مِثْلَـهُ        أَبـرَّ بميثـاقٍ وأوفـى وأصبـرا[1]

ثم إذا كان البر بمعنى الإيفاء بالعهد، أو كان الإيفاء بالعهد هو الأصل في مدلوله لا يضرّنا إذا قلنا: إن البر هو الخير كله، أو هو جماع الخيرات، أو هو الخلق الحسن وما شابه ذلك مما هو مأثور في تفسيره، فإن الإيفاء بالعهد هو أساس كل خير، ولذلك قال عليه السلام: «لا دِينَ لمن لا عهدَ له»[2].

**الحقيقة الثانية:**

نستوحي من نظم هذه الآية أن اليهود والنصارى إنما كانوا يولون وجوههم قبل المشرق والمغرب لأنهم كانوا في وادٍ والإيمانُ في واد، ولو أنهم كانوا يؤمنون باللّه واليوم الآخر لما لبثوا أن ولوا وجوههم شطر المسجد الحرام ولكنهم كانوا كما قال اللّه فيهم:

﴿ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلتهم وما بعضهم بتابع قبلة بعض﴾.

**الحقيقة الثالثة:**

ومما تدل عليه الآية بنظمها أن الصبر والصمود في أحلك الظروف وأحرج المواقف هو تمام الوفاء بالعهد، وهو ذروة البر وقمّته، كما أنه هو الزاد الوحيد لمن كان يريد أن يسلك سبيل البرّ.

ومن هنا قال سيدنا عمر في وصية له لسعد بن أبي وقاص ـ رضي اللّه عنهما ـ:

(. . . واعلم أن لكل عادة عتاداً، فعتاد الخير الصبر، فالصبرَ الصبر على ما أصابك أو نابك. . .)[3].

---

(١) ديوان امرىء القيس: ص ٩٥.

(٢) السنن الكبرى للبيهقي: ٦ / ٢٨٨.

(٣) تاريخ الطبري: ٣ / ٤٨٣.

**الحقيقة الرابعة:**

ختمت هذه الآية بقوله تعالى: ﴿أولئك الذين صدقوا﴾.

وهذا الختام يوحي إلينا أن الصدق هو الذي يوصل من يوصل إلى ذروة البرّ ومن هنا قال ـ عليه الصلاة والسلام ـ:

«إنَّ الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة»[1].

**الحقيقة الخامسة:**

ذكر اللّه أموراً كلها تتعلق بالاعتقاد والعمل، ثم قال: ﴿أولئك الذين صدقوا﴾.

وهذا النظم يفيد أن الصدق ـ في أصله ـ سلوكٌ وعمل، وهو يقاس دائماً بالسلوك والعمل، ولا يعتبر المرء صادقاً إلا إذا صدق عمله وسلوكه.

**الحقيقة السادسة:**

ذكر اللّه مقومات البر وأركانه، ثم ختم الآية بقوله تعالى: ﴿وأولئك هم المتقون﴾ بدلاً من أن يختمها بقوله: ﴿وأولئك هم الأبرار﴾، كما هو المتبادر إلى الذهن بحكم السياق.

وهذا النظم يفتح علينا حقيقة مهمة جداً، وهي أن التقوى هي روح البرّ وقوامه، وهي سنده وعماده، فكل عمل من أعمال البرّ إذا لم يكن يستند إلى التقوى فلا وزن له في ميزان البر ولا عبرة به عند اللّه.

**الحقيقة السابعة:**

ذكر اللّه تعالى من ضمن أركان البرّ: ﴿وآتى المال على حبّه ذوي القربى﴾.

فذكر إيتاء المال وذكر معه كون المال محبوباً إلى النفس.

وهذا النظم يرشدنا إلى أن أفضل الإنفاق أو أفضل الصدقة ما شَقَّ على النفس،

---

(١) صحيح البخاري كتاب الأدب، باب قول اللّه تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا اللّه وكونوا مع الصادقين﴾.

ولا يبعد أن يكون الحديث الذي رواه أبو هريرة مستفاداً من هذا النظم حيث قال:

«أتى رسولَ اللّه ـ ﷺ ـ رجلٌ فقال: يا رسول اللّه أي الصدقة أعظم؟ قال أن تَصَدَّقَ وأنتَ صحيحٌ شحيح تَخشى الفقرَ وتأملُ الغِنى»[1].

**الحقيقة الثامنة:**

ثم ذكر ـ تعالى ـ أول من ذكر في هذا السياق ذوي القربى، وهذا النظم يدل على أنّ أولى الناس ببرِّ الرجل هم أقاربه، ومن هنا قال ـ عليه السلام ـ:

(دينار أنفقته في سبيل اللّه، ودينار أنفقته في رقبة، ودينار تصدقت به على مسكين، ودينار أنفقته على أهلك، أعظمها أجراً الذي أنفقته على أهلك)[2].

**الحقيقة التاسعة:**

ذكر اللّه تعالى في هذه الآية الإيمان ثم إيتاء المال ثم إقامة الصلاة ثم إيتاء الزكاة ثم قال: ﴿والموفون بعهدهم إذا عاهدوا﴾، فختم هذه الخصال بالإيفاء بالعهد.

ثم ذكر الإيفاء بالعهد بصيغة اسم الصفة بينما ذكر البواقي بصيغة فعل الماضي. هذا النظم مع هذا التصريف كما يدل على أن الإيفاء بالعهد هو الأصل، وهو الجامع لهذه الخصال فكذلك يدل على أنه يعمُّ الدينَ كله.

ومن هنا قال ـ عليه السلام ـ: «لا دِينَ لمن لا عهدَ له»[3].

**مثال آخر لانفجار المعاني بفضل تتبع النظام:**

ويقول الفراهي وهو يفسر قوله ـ تعالى ـ: ﴿فصلِّ لربك وانحر﴾ ويبيّن مناسبته لما قبله:

«هذه الآية تدل على أربعة أمور:

---

(1) صحيح مسلم، رقم الحديث: (١٠٣٢) ص ٧١٦.

(2) صحيح مسلم كتاب الزكاة، باب فضل النفقة على العيال، رقم الحديث ٩٩٥.

(3) السنن الكبرى للبيهقي: ٦ / ٢٨٨.

**الأول**: أن الصلاة والنحر لهما ارتباط وثيقٌ بهذا العطاء حيث صدر الأمر بهما بالفاء.

**والثاني**: أن في الآية أمراً وإلزاماً بالصلاة والنحر بصورة منفصلة مستقلة، كما أن فيها الأمر بجمعهما معاً، وذلك كما في الحجّ.

**والثالث**: أن بين الصلاة والنحر سبباً خاصاً وقرابةً ماسةً.

**والرابع**: اختصاصنا بهذه العطية والأمر بالصلاة والنحر معاً.

ويهدي ذلك إلى أننا على سنة إبراهيم دون المشركين ومبتدعة اليهود والنصارى لأن المشركين لم تكن صلاتهم ونحرهم للرب خالصاً، ومبتدعة اليهود لم يكن عندهم غير القرابين، وإن قرابينهم لا تسمى نحراً، فإنَّ النحر خاصٌّ بالإبل وهي حرام عندهم، ومبتدعة النصارى ليس عندهم قربان أصلاً والصلاة غير واجبة عليهم بزعمهم.

فهذه جملة الكلام، ولا بد لها من بعض التفصيل، وسنأتي به في عدة فصول، أما الأمر الأول والثاني فتجدهما في هذا الفصل وسيأتيك الباقيان فيما بعد.

فاعلم أن الله تعالى بعدما بشر النبي - ﷺ - والمسلمين بهذه العطية، أردفه بإيجاب أمرين: الصلاة والنحر، وهذا الوضع يدل على صلة وقرابة بين السابق والتالي أي: العطية والأمر، فلما تدبرنا فيما دل عليه نظم الكلام ظهر لنا بعض وجوه الاتصال فيما بينهما بتوفيق من الله تعالى فنذكرها فيما يلي:

**الأول**: أن هذا الأمر يتضمن بيان مقصد هذا العطاء، فإن هذا العطاء كان لمقصد عظيم كما قال تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ﴾ [الحج: ٤١].

وكما حكى الله تعالى عن إبراهيم - عليه السلام -:

﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

أي: يأتون إليهم يحجون بيتك.

فعلمنا أن هجرةَ إبراهيم وسكناه في وادٍ قفْرٍ وأرض عاقر لم تكن إلا لإقامةِ مركزٍ لعبادة اللّه الواحد، يتوجهون نحوه ويأتون إليه من بعيد ويطوفون به ويسعون حوله ويهدون إليه الهدي كالعبيد يسعون إلى باب مولاهم الذي دعاهم فأسرعوا إليه قائلين: «لبيك. لَبَّيك لا شريكَ لك لبيك».

ثم يستمعون إلى ما أمر به الرب ونهى عنه على لسان إمامهم، ولذلك قال تعالى:

﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ﴾ [الحج: ٢٧].

أي: يأتوك لاستماع الحِكمة، فإن اللّه تعالى جعله إماماً للناس كما جعل ذلك البلدَ مثابةً وبركة وهدى لهم فكان يقريهم ويقوم فيهم خطيباً وهكذا قرى النبي ـ ﷺ ـ عشيرته حينما أراد القيام برسالته وأراد أن يدعوهم إلى الرب، وقد استمرّت سنة الخطبة بعد إبراهيم كما استمرّت سائر سننِ الحج، ثم يطعمون الناس مما ساقوه من الهدي ويأكلون منه شاكرين أن تَقَبَّلَ الربُّ هدي عبيده ثم تركهم يستمتعون بما تقربوا به إليه.

فتبين أن هذا البيت إنما وُضِعَ لغايات عظيمة ولأجلها أعطاهم اللّه التمكن في الأرض وعلى رأس تلك الغايات الصلاة والنحر فذكرهما بعد ذكر إعطائه ليعلموا أن هذا العطاء له حق وغاية، ليقوموا بحقّه ويتموا ما لأجله أعطوه، وذلك مبني على وجوب إيفاء الحقوق، فإن لكل عطاء حقاً لا بد أن نوفيه كما قال تعالى:

﴿لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

وأيضاً: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص: ٧٧].

وأيضاً: ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٤١].

**الثاني**: أنه تعالى أردف ذِكْرَ العطية بذكر ما به بقاؤها، فأمر بالصلاة والنحر أمراً عاماً، فإن هذه العطية كانت للنبي وأمته عامة فإن النبي وكيلُ أمته فما أعطاه أعطى أمته، ولذلك قال ـ عليه السلام ـ: «أنا فَرَطٌ لكم على الحوض»، فكذلك الأمر بالصلاة والنحر عام وهو ظاهر.

فلما ربط عبادته بعطيته علمنا أن الامتثال له يضمن بقاء نعمته وقد قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

وهذا الذي أمرنا به هو الحج ومناسكه كما هو ظاهر فكأنه ـ تعالى ـ قال:

«إنا أعطيناك الكوثر فأدِّ حَقَّهُ حتى يبقى لك هذا العطاء»،

وسواء أخذت الصلاة والنحر بمجموعهما أو أخذتهما على انفراد، كان المراد هو الحج، فإن الحج من الصلاة لِمَا جاء في الحديث ولما دلت عليه أعمال الحج، وقد علمنا أن الغاية من البيت هي الصلاة وما بني هذا البيت إلا لإقامتها، كما مرّ، فمن لم يحج وقد أمكنه ذلك لم يحقق غايته.

وكذلك النحر فإنه من لم يُضَحِّ في الحج فقد ترك أعظم الأضاحي، والذي يضحي في غير الحج فإنما هو مُتَشَبِّهٌ بالحجاج وهو يريد وينتظر أن يجد إليه سبيلاً فيحقق ما يريد، فعلى كلا التقديرين تدلّ الآية على أن الحج فرض عين على الأمة فمن استغنى عنه فقد عزل نفسه عنهم، وهذا يتضح بالنظر في حقيقة الحج، وقد صرّح بذلك القرآن والسنة، قال تعالى:

﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧].

فذلك نَصٌّ على كُفْرِ من استغنى عن الحج ونصٌّ على أن اللّه تعالى لا يبالي به.

**الثالث**: أنه يتضمن العزاء والسلوى للنبي والمسلمين كأنه قيل له:

إنهم أخرجوك ومنعوك عن الصلاة والنحر، فالآن بعدما أعطيناك الكوثر، لا مانع بك منهما، فاقضِ حاجة نفسك منهما كما تريد، وليخرجْ معك جمعٌ عظيم من إخوانك حتى يكثر النحر فيتحقق معنى الكوثر.

وقد علمنا شوقَ النبي والمسلمين وحنينهم إلى الحج والصلاة والنُسُك، والأمر بعمل مرغوب فيه، وإن كان أمراً فإنه يتضمن معنى التبشير والتسلية وإظهار الرأفة.

**الرابع**: أنه بيان عهدتّم بيننا وبين اللّه تعالى، وبيانه أن الأمر بالصلاة والنحر جاء

هنا مترتباً على عطية، فإذا قبلنا العطية لزمنا ما أمرنا به تلقائياً وسيبقى لنا ما أعطانا ما دمنا باقين على طاعة أمره، فصار أخذُ العطية تعهّداً مع اللّه كما أعطى اللّه آدم وحواء ـ عليهما السلام ـ المسكنَ في الجنة ليأكلا منها رغداً ولا يقربا شجرةً خاصة عرّفها لهما، فلما أخذا العطية لزمهما عهد اللّه ولذلك قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥].

ولذلك بقي لهما ما أعطاهما اللّه ما بقيا على عهده.

وكذلك نرى في قصة إبراهيم حيث قال تعالى:

﴿۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤].

فبعدما امتثل إبراهيم لأوامر ربه تعالى جعل له ربّه عهداً، وهذا العهد سيبقى لذريته ما داموا هم قائمين به، وأما الظالمون منهم فليس لهم منه نصيب.

**الخامس**: أنه بيان عهد التوحيد، وقد صرح القرآن بذلك العهد ونوّه بأدلته كثيراً، وجماعها كونه رباً منعماً، وقد أخذنا عطاياه من الخلق وحسن التقويم والرزق الطيب، وهذا عام، وهنا ذكر نعمةً عظيمة خاصة، فذكرَ ما أوجبتْ هذه النعمةُ علينا من التوحيد في صورة خاصة تناسب العطية الخاصة، فإن اللّه تعالى هو الذي أعطانا هذا البيت فلا بد أن تكون الصلاة والنحر له.

وأيضاً في ذلك تعريض بالخائنين الظالمين، وهذا يظهر بالنظر في كلمة (إنّا) و(لربك) أي: إنّا نحن أعطيناك فلا بد لك أن تصلي وتنحر مخلصاً لنا خلاف ما فعل المشركون، ونوّه بهذا المفهوم في سورة الحج مراراً ولا حاجة إلى إيراده ها هنا.

وهكذا فسّر[1] الآية محمد بن كعب القرظي حيث قال:

«إن ناساً كانوا يصلون لغير اللّه وينحرون لغير اللّه فإذا أعطيناك الكوثر يا محمد

---

(١) جامع البيان في تفسير القرآن: ج٣٠ ص ٢١١.

فلا تكن صلاتك ونحرك إلا لي»[1].

هذا ما أفادنا به الفراهي وهو يتحدث عن ارتباط الآية: ﴿فصل لربك وانحر﴾ بما قبلها.

ولعلنا لسنا بحاجة إلى الاعتذار عن طول هذا الاقتباس، فهو بمتعته وحيويته وقيمته العلمية، يُغنينا عن هذا الاعتذار.

فلننظر العناية بنظام الآيات كيف تُميطُ اللثامَ عن وجوه المعاني، وكيف تفتح أمامنا آفاقاً واسعةً رحيبة من أطايب الحكم.

**لفتة هامة:**

وبعد الاطلاع على هذه الكنوز التي توصلنا إليها بفضل التأمل في نظام تلك الآيات لم يعد غريباً لدينا أن يقال:

«جميع ما تقوله الأئمةُ شرحٌ للسنة، وجميع السنة شرح للقرآن».

أو يقال: «ما نزل بأحد من الدين نازلة إلا وهي في كتاب اللّه تعالى».

أو يقال: «كل ما حكمَ به رسولُ اللّه ـ ﷺ ـ فهو مما فهمه من القرآن. لقوله ـ ﷺ ـ: إني لا أُحِلُّ إلا ما أَحلَّ اللّهُ في كتابه ولا أحرم إلا ما حرم اللّه في كتابه».

وقد رويت هذه الأقوال كلها عن الإمام الشافعي ـ رحمه اللّه ـ[2]:

وقال ابن مسعود ـ رضي اللّه عنه ـ: «إذا حدثتكم بحديث أنبأتكم بتصديقه من كتاب اللّه»[3].

وقال ابن جبير ـ رحمه اللّه ـ: «ما بلغني حديث على وجهه إلا وجدت مصداقه

---

(١) تفسير سورة الكوثر للفراهي: ص ١٣، ١٦، مع تصرف يسير في بعض العبارات بقصد الإيضاح.

(٢) قواعد التحديث للشيخ محمد جمال الدين القاسمي: ص ٥٩.

(٣) قواعد التحديث للشيخ محمد جمال الدين القاسمي: ص ٥٩.

في كتاب اللّه تعالى»[1].

فمثل هذه الأقوال لم تعد مثار دهشة واستغراب لدينا، ولم يعد عسيراً علينا أن ندرك هذه الاتجاهات، وندرك أبعادها ومراميها بعد ما كنا في شبه غفلة عنها، فقد أصبح مفهوماً لدينا أن الصحاح ـ كلها أو جلّها ـ مأخوذة من آي القرآن ومستفادة من كلماته أو نظم آياته.

ونحن نمرّ عليها، ونظن أنها زيادة على القرآن أو أن القرآن ساكتٌ عنها، مع أن القرآن لم يسكت عنها، وإنما دلّ عليها بنظمه ورباط آياته وكلماته، والنبي ـ ﷺ ـ لم يزد على أن بيّنها لنا وفصّلها ببليغ أسلوبه، ومما يؤيد ذلك قوله تعالى:

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

ولا نملك الآن أن نرخي للقلم عنانه أكثر مما فعلنا، فإن ذلك يبعدنا عن موضوعنا، وسنجد في الصفحات التالية شواهد متعدّدة لمثل تلك الصحاح بإذن اللّه.

* * * * *

(١) قواعد التحديث للشيخ محمد جمال الدين القاسمي: ص ٥٩.

# الفصل الرابع
## المزية الرابعة

النظام يجلّي الأمور في أكمل صورها، ويكشف عن قدرها وأهميتها، وإذا لم ننتبه لنظام الآيات، فكثير من الأمور لا ندركها ونظلّ غافلين عن قدرها وأهميتها.

نضرب لذلك مثلاً صلاة الجمعة، فهل يمكننا أن ندرك أهمية هذه الصلاة ومكانتها في دين الله قبل أن نمعن النظر في نظام سورة الجمعة ونبحث عن رباط معانيها؟

وإن كان هناك من يشك في ذلك، فلا عليه أن يمرّ على من شاء ممن لم يهتمّوا بنظام الآيات وينظر ما عندهم، ثم يأخذ هذه السورة نفسها، ويتدبرها، ويبحث عن نظام آياتها ورباط معانيها.

سوف يرى - بإذن الله - أن قلبه قد امتلأ بمعان تكاد تكون بِكْراً.

وسوف يجد أهمية هذه الصلاة قد تجلّت له من جهات لم يكن ليصل إليها، لولا أنه استرشد بنظام الآيات.

ولا بأس بأن نذكر هنا بعض تلك الجهات، حتى تكون حافزةً لنا ومشجّعة لاستطلاع بقيتها:

**الجهة الأولى:**

قرنت سورة الجمعة بسورة الصفّ، وهذا القِران يذهب بنا إلى أن صلاة الجمعة إعداد وترويض للجهاد، فلننظر سورة الصف كيف بدأت بتأنيب وتقريع للذين نكصوا

عن الجهاد، ولم يقوموا بمهمّتهم المرتقبة في سبيل عقيدتهم باعتبار أنهم مؤمنون، قال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ * إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ [الصف: ٢ ـ ٤].

**ثم عاد ورغب في الجهاد:**

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [الصف: ١٠ ـ ١١].

ثم كرّر النداء والتحريض على القتال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۦنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ﴾ [الصف: ١٤].

ثم تبعته سورة الجمعة، وهذه دلالة عن طريق النظم، على أن إقامة الجمعة ليست إلا إعداداً وتدريباً للجهاد.

ثم نرى في نفس السورة أن اللّه فنّد دعوى اليهود وفنّد زعمهم أنهم أولياء للّه وشعبه المختار، وأبى أن يقبل هذه الدعوى إلا أن يتمنوا الموت، وذلك بالمسارعة إلى معارك الجهاد والبحث عن الموت شوقاً إلى اللّه؟ فإن الوليَّ أحرص ما يكون على لقاء وليّه. قال تعالى:

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ ثم قال:

﴿ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ [الجمعة: ٦ ـ ٧].

تنبيهاً على أن الجهاد لا يكون إلا إذا رسخ الإيمان في القلوب، ورغب الإنسان عن الميل إلى الذنوب.

ثم أمر بإقامة الجمعة، وهل الغاية من إقامة الجمعة إلا شحن النفوس بشحنات

الإيمان وتحليتها بآداب القرآن؟

ومن هنا كانت الجمعة كعلاج للنفوس، حتى تصمد في المعارك ولو قطعت الرؤوس، وتثبت للعواصف وكأنها بنيان مرصوص.

**الجهة الثانية:**

قرنت هذه السورة بسورة المنافقون، وهذه لمحة إلى أن الغفلة عن صلاة الجمعة من أمارات النفاق ولقد نبّه النبي ـ ﷺ ـ على هذا الأمر فقال:

«مَنْ ترك الجمعة من غير ضرورة كتب منافقاً في كتاب لا يُمحى ولا يبدّل»[1]، وعن محمد بن عبدالرحمن بن زرارة قال سمعت عمر ـ ولم أر رجلاً منا به شبيهاً ـ قال: قال رسول اللّه ـ ﷺ ـ:

«مَنْ سمع النداء يوم الجمعة فلم يأتها، ثم سمعه فلم يأتها، ثم سمعه ولم يأتها طبع اللّه على قلبه وجعل قلب المنافق»[2].

ويشبهه ما قاله ـ ﷺ ـ:

«اعلموا أن اللّه ـ عز وجل ـ قد افترض عليكم الجمعة في مقامي هذا، في عامي هذا، في شهري هذا، إلى يوم القيامة حياتي ومن بعد موتي، فمن تركها وله إمام فلا جمع اللّه له شمله ولا بارك له في أمره، ألا ولا حَجَّ له، ألا ولا صوم له، ألا ولا صدقة له، ألا ولا برّ له»[3].

ولا يبعد أن تكون مثل هذه الآثار مستفادة من نظم هاتين السورتين، فإنّ قران سورة ﴿الجمعة﴾ مع سورة ﴿المنافقون﴾ له دلالته وله إيحاؤه.

---

(١) التاج الجامع للأصول: ج١ ص ٢٧٤.

(٢) الترغيب والترهيب: ١ / ٥١٢.

(٣) جمهرة خطب العرب: ج١ ص ٥٣.

**الجهة الثالثة:**

بدئت السورة بذكر بعثة النبي ـ ﷺ ـ وأهدافها من تلاوة الآيات وتزكية النفوس وتعليم الكتاب والحكمة.

ثم التفت الخطاب إلى اليهود يلومهم ويعنّفهم على عدم كفاءتهم وسوء موقفهم من كتاب اللّه ثم جاء الأمر مباشرة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾.

ولا يخفى ما لهذا الأسلوب من دلالات وإيحاءات، فإن الجمعة لها صلة خاصة بأهداف هذه البعثة، وشاء اللّه لرسوله أن يقوم بتلك الأهداف من منابر الجمعة، وكان احترام الجمعة من احترام هذه البعثة وأهدافها.

ولذلك نرى اللّه ـ تعالى ـ قد رفع من شأن خطبة الجمعة حتى جعلها من نفس الصلاة، ولم يأت بذكرها صريحاً مستقلاً حتى يقال: إن لها حكماً يختلف عن حكم الصلاة.

ولعلّ النبي ـ ﷺ ـ استنبط هذه الخطبة وعظيم مكانتها من نظم الكلام، فإن اللّه تعالى إذ ربط صلاة الجمعة بذكر هذه البعثة، فكأنه أراد أن تَسبقَ هذه الصلاةَ خطبةٌ تذكّر الناس بأهداف هذه البعثة وتعلّمهم الكتاب والحكمة وتزكّيهم.

وإذ كان يوحي المقام أن اللّه ـ تعالى ـ وضع الخطبة موضع الصلاة وجعلها في حكمها جعلت هذه الصلاة شطرين، وخصّ الشطر الأوّل لتذكير النّاس والشطر الثاني لذكر اللّه، فكانت الصلاة ركعتين، مع أنها كانت في الواقع أربع ركعات كما هي في الظهر، وجاءت مكان الركعتين الأوليين خطبة الجمعة، حتى لا يتهاون الناس بها، ويعرفوا أنها ليست أقلّ أهمية من ركعتي الصلاة.

وهو شبيه بما روي عن سعيد بن جبير حيث قال:

«كانت الجمعة أربعاً فَجُعلت الخطبةُ مكان الركعتين»[1].

ثم قسمت الخطبة قسمين وشرع بينهما الجلوس، حتى تكون في مظهرها أشبه ما تكون بركعتي الصلاة.

ولذلك نرى الأمر بالسكوت والإنصات في أثناء الخطبة كمثله في الصلاة، ولقد شدّد فيه النبي ـ ﷺ ـ وشدّد حتى قال:

«مَنْ تكلم يوم الجمعة والإمام يخطبُ فهو كمثل الحمار يحمل أسفاراً، والذي يقول له: «أَنصتْ» ليس له جمعة»[2].

وروي عن جابر قال: قال سعد بن أبي وقاص لرجل: لا جمعة لك، فقال النبي ـ ﷺ ـ لِمَ يا سعد؟ قال: لأنه كان يتكلم وأنت تخطب، فقال النبي ـ ﷺ ـ صدق سعد[3].

وعن ابن عباس ـ رضي اللّه عنه ـ قال:

كان رسول اللّه ـ ﷺ ـ يخطب يوم الجمعة إذ تلا آية، فقال رجل ـ وهو إلى جنب عبداللّه بن مسعود ـ متى أُنزلت هذه الآية؟ فإني لم أسمعها إلا الساعة، فقال عبداللّه: سبحان اللّه، فسكت الرجل، ثم تلا آية أخرى، فقال الرجل لعبداللّه مثل ذلك، فقال عبداللّه: سبحان اللّه، فلما قضى رسول اللّه ـ ﷺ ـ الصلاة قال ابن مسعود للرجل: إنك لم تجمع معنا، قال: سبحان اللّه. قال: فذهب إلى النبي ـ ﷺ ـ فذكر له ذلك، فقال رسول اللّه ـ ﷺ ـ: «صدق ابن أم عبد. صدق ابن أم عبد»[4].

**الجهة الرابعة:**

أمرنا اللّه ـ تعالى ـ بالسعي إلى صلاة الجمعة بعدما ندّد باليهود أنهم حُمِّلُوا

---

(١) السنن الكبرى للبيهقي: ٣/ ١٩٦.

(٢) انظر الفتح الرباني: ٦/ ٩٨ رقم الحديث (١٥٩٩) باب المنع من الكلام والإمام يخطب.

(٣) رواه أبو يعلى والبزّار (نقلاً عن الترغيب والترهيب للمنذري: ١/ ٥٠٦).

(٤) صحيح ابن خزيمة: ٣/ ١٥٥.

التوراة فلم يحملوها.

وهذا النظم يفيد أن اليهود أيضاً قد أُعطوا هذه الجمعة ولكنهم ضلُّوا عنها فأصبحت هذه النعمة خالصةً لهذه الأمة، ولقد نبّه إليه النبي ـ ﷺ ـ فقال:

«نحن الآخرون الأولون يوم القيامة ونحن أول من يدخل الجنة بيد أنهم أُوتوا الكتاب من قبلنا وأُوتيناهُ من بعدهم، فاختلفوا فهدانا اللّه لما اختلفوا فيه من الحق، فهذا يومهم الذي اختلفوا فيه هدانا اللّه له قال: يوم الجمعة، فاليوم لنا وغداً لليهود وبعد غد للنصارى»(١).

وفي رواية أخرى: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم، وهذا يومهم الذي فرض عليهم فاختلفوا فيه، فهدانا اللّه له، فهم لنا فيه تبع، فاليهود غداً والنصارى بعد غد»(٢).

**الجهة الخامسة:**

لاقت اليهود أسوأ العواقب لما أنهم كانوا يعدون في السبت. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ۞ فَجَعَلْنَـٰهَا نَكَـٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٦٥ ـ ٦٦].

ولقد أمرنا اللّه بتعظيم يوم الجمعة بعدما توعّد اليهود على سوء موقفهم من كتاب اللّه وأوامره، وبعدما ضرب لهم أسوأ المثل، ولا يخفى ما لهذا النظم من دلالات وإيحاءات، فإنه مما نِيطَ به فلاحُ هذه الأمة احترامها للجمعة كما أشار إليه ـ تعالى ـ في آخر السورة حيث قال:

﴿واذكروا اللّه كثيراً لعلكم تفلحون﴾.

وأما إذا عُطِّلت الجمعة أو أُميتت فسيكون هذا نذيراً لها بنفس الخزي والدمار الذين حلاّ باليهود بسبب اعتدائهم في السبت.

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي: ج٦ ص ١٤٣، ١٤٤.
(٢) صحيح مسلم بشرح النووي: ج٦ ص ١٤٣، ١٤٤.

وما جاء في الروايات من أن النبي ـ ﷺ ـ قال:

«لا تقومُ الساعةُ إلا في يوم الجمعة»[1].

فلعلّه مستفاد من نظم هذه السورة، فإن هذه الأمة خاتمة الأمم، كما أن النبي ـ ﷺ ـ خاتم الأنبياء، وليس بعد هذه الأمة أمة تخلفها.

فإذا انصبّ سوط العذاب على هذه الأمة بسبب تعطيلها للجمعة أو اعتدائها فيها، فسيكون هذا إيذاناً بخراب الدنيا وقيام الساعة.

**الجهة السادسة:**

نستوحي من نظم هذه الآيات أن هذا اليوم المبارك هو الذي تمّت فيه هذه البعثة الكريمة، وخلع فيه على نبينا ـ عليه الصلاة والسلام ـ تاجُ النبوة والكرامة.

فنرى هذه السورة استهلّت بلفظة «يسبّح» بينما كانت السور السابقة مبدوءة بلفظة «سبّح» ومعلوم أن صيغة المضارع تكون لتصوير الحال كما أن صيغة الماضي تفيد القطع والاستمرار.

وهذا التصريف يصوّر لنا كم كان فرح هذا الكون وكم كان انتعاشه وارتياحه، ثم كم كان تمجيده وتسبيحه لخالقه يوم أغدق عليه هذه النعمة، وأفاض عليه هذا النور.

فما هو ذلك اليوم يا ترى؟ وهل هو غير يوم الجمعة، الذي تدرّج إليه الكلام وبه ختم؟

فترى السياق يتوجّه بعد ذكر هذه النعمة العظيمة السابغة إلى تقرير أهمية يوم الجمعة وتحريض المؤمنين على تعظيمه والاهتمام به.

وفيه إشعار بأن هذا اليوم هو أوان نزول هذه النعمة، فلا بد أن يعظّموه ويحتفلوا به شكراً لهذه النعمة، واستشعاراً لأهميتها وكرامتها.

ومن هنا نرى النبي ـ ﷺ ـ جعل هذا اليوم عيداً للمسلمين وأمرهم أن يغتسلوا فيه

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي: ج٦ ص ١٤٢.

ويدّهنوا ويتطيّبوا ويلبسوا أفخر ما عندهم من الثياب حتى يشاركوا الكون في الفرح والارتياح الذي يستشعره لمقدم هذا اليوم.

ولقد أمر عمر بن الخطاب ـ رضي اللّه عنه ـ أن يُجَمَّرَ مسجدُ المدينة كل جمعة حين ينتصف النهار[1].

وبالغ النبيّ ـ ﷺ ـ في تعظيم هذا اليوم حتى جعله سيد الأيام، وقال:

«إن يوم الجمعة سيد الأيام وأعظمها عند اللّه وهو أعظم عند اللّه من الأضحى ويوم الفطر»[2].

ثم جاء في شأن هذا اليوم ما يجعله مماثلاً لشهر رمضان، فإن جهنم تُسجَّر في كل يوم ولا تسجّر في هذا اليوم.

فقد روى ليث عن مجاهد عن أبي الخليل عن أبي قتادة عن النبي ـ ﷺ ـ أنه كره الصلاة نصف النهار إلا يوم الجمعة وقال: «إن جهنم تسجّر إلا يوم الجمعة»[3].

ونفس الشيء ورد في شأن رمضان حيث روى أبو هريرة أن رسول اللّه ـ ﷺ ـ قال:

«إذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنة وغلّقت أبواب النار وصفّدت الشياطين»[4]، فهذا التشابه بين يوم الجمعة وشهر رمضان يعزّز ما استوحيناه من نظم هذه السورة، وهو أن القرآن أنزل في يوم الجمعة كما أنه أنزل في شهر رمضان.

وهذا الشرف هو الذي جعل رمضان سيّد الشهور وجعل الجمعة سيّد الأيام.

وهناك جوانب أخر تستنبط من نظم هذه السورة، وهي تبرز أهمّية يوم الجمعة، وليس من قصدنا الآن أن نتقصّى تلك الجوانب كلها، فهذا القدر يكفينا لإثبات ما نحن

---

(١) زاد المعاد للإمام ابن القيم: ج١ ص ١٠٢.
(٢) زاد المعاد: ج١ ص ١٠٢.
(٣) زاد المعاد: ج١ ص ١٠١، السنن الكبرى للبيهقي: ج٣ ص ١٩٣.
(٤) صحيح مسلم: ج٧ ص ١٨٧.

بصدده، وهو أنّ تتبع النظام يجلّي الأمور، ويضعها في مكانها، ويعطيها قدرها وأهمّيتها.

ولكن إذا أهملنا النظام ورضينا فيه بالهوينا فقد تغيب عنّا أمور وتخفى جوانب، ولا نكاد نشعر بها فضلاً عن أن ندركها.

والآن نختم هذا الفصل بكلمة جميلة للإمام الفراهي حيث قال:

«قد عظم بيان الجمعة عندي حين علمت كيف مهّد اللّه قبلها من ذكر تسبيح ما في السماوات والأرض وصفاته الحسنى وفضله على الأمة، وخسران اليهود على استخفافهم بحكم اللّه، فقد رغّب ثم رغّب ثم رهّب ثم ذكر أحكام الجمعة.

وكانت الجمعة هكذا حين كان شمل المسلمين مجتمعاً برسولهم فيأمرهم وينهاهم ويذكّرهم ويتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، وهكذا كانت مكانتها في أيام الخلفاء الراشدين، ثم هبطت هذه المكانة يوماً فيوماً، حتى صارت الجمعة في يومنا هذا مجمع الناعسين، وما أشبه الخطيب الجاهل بحامل الأسفار، المذكور في القرآن.

ولا تسأل عن قوم يكونون بهذه الحال فإلى اللّه المفزع!

واعلم أن ذكر الجمعة ها هنا بعد سورة الصفّ وآية تمنّي الموت يشير إلى أنها من أسباب القيام بالجهاد»[1].

* * * * *

---

(١) مذكرات القرآن للفراهي (مخطوط).

# الفصل الخامس

# المزية الخامسة

النظام هو الذي يشخّص معاني الآيات المكرّرة، ويحدّد مراميها، لكن الذي يغفل عنه يتعثر، ولا يكاد يفرق بين موطن وآخر.

نأخذ على سبيل المثال قوله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴾[البقرة: ١٥٩].

فقد جاءت هذه الآية في سورة البقرة ثم جاءت بعدها بقليل آية أخرى تماثلها:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٧٤].

فالذي يمرّ على الآيتين، يثور في نفسه سؤال:

١ ـ ما المراد بالكتمان في هاتين الآيتين؟

٢ ـ وهل هو شيء واحد أم هناك فرق واختلاف في الموضعين؟

فلنترك جلّة المفسرين ـ رحمهم الله ـ يشرحون الحال ويجيبون على هذا السؤال.

**الإمام ابن جرير:**

«يقول: إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البيِّنات علماء اليهود وأحبارها وعلماء النصارى لكتمانهم الناسَ أمرَ محمد ـ ﷺ ـ وتركهم اتباعَهُ، وهم يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل من البينات التي أنزلها اللّه ما بيَّن من أمر نبوة محمد ـ ﷺ ـ ومبعثه وصفته في الكتابين الذين أخبر اللّه ـ تعالى ذِكْرُه ـ أن أهلهما يجدون صفته فيهما»[1].

ويقول ـ رحمه اللّه ـ في تفسير الآية الأخرى.

«يعني ـ تعالى ذكره ـ بقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ ﴾، أحبار اليهود الذين كتموا الناسَ أمر محمد ـ ﷺ ـ ونبوته، وهم يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة بِرشاً كانوا أُعطوها على ذلك»[2].

**الإمام الرازي:**

«في قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ ﴾ الآية، قولان: (أحدهما): أنه كلام مستأنف يتناول كل مَنْ كتم شيئاً من الدين. (والثاني): أنه ليس يجري على ظاهره في العموم، ثم مِنْ هؤلاء مَنْ زعم أنه في اليهود خاصة، قال ابن عباس: إن جماعة من الأنصار سألوا نفراً من اليهود عمّا في التوراة من صفات النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ ومن الأحكامِ فكتموا فنزلت الآية، وقيل: نزلت في أهل الكتاب من اليهود والنصارى، عن ابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة والربيع والسدّي والأصمّ، والأول أقرب إلى الصواب»[3].

ويقول ـ رحمه اللّه ـ في تفسير الآية الأخرى:

«قال ابن عباس: نزلت هذه الآية في رؤساء اليهود: كعب بن الأشرف وكعب بن أسد ومالك بن الصيف وحيي بن أخطب وأبي ياسر بن أخطب، كانوا يأخذون من أتباعهم الهدايا، فلما بُعِثَ محمد ـ عليه السلام ـ خافوا انقطاع تلك المنافع، فكتموا

---

(١) جامع البيان في تفسير القرآن: ج٢ ص ٣٣.
(٢) نفس المصدر: ج٢ ص ٥٢.
(٣) التفسير الكبير: ج٤ ص ١٦٢.

أمرَ محمد ـ عليه السلام ـ وأمرَ شرائعهِ فنزلت هذه الآية.

واختلفوا في أنهم أيّ شيء كانوا يكتمون؟ فقيل: كانوا يكتمون صفة محمد ـ ﷺ ـ ونعته والبشارة به، وهو قول ابن عباس وقتادة والسدّي والأصم وأبي مسلم وقال الحسن: كتموا الأحكام وهو قوله تعالى: ﴿إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله﴾[١].

## الإمام الألوسي:

وقال الإمام الألوسي وهو يفسر الآية الأولى:

«أخرج جماعة عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: سأل معاذ بن جبل وسعد ابن معاذ وخارجة بن زيد نفراً من أحبار يهود عن بعض ما في التوراة فكتموهم إياه وأبوا أن يخبروهم فأنزل الله ـ تعالى ـ فيهم هذه الآية، وعن قتادة أنها نزلت في الكاتمين من اليهود والنصارى، وقيل: نزلت في كل مَنْ كتم شيئاً من أحكام الدين لعموم الحكم للكلّ، فقد روى البخاري وابن ماجه وغيرهما عن أبي هريرة أنه قال: لولا آية في كتاب الله تعالى ما حدثت أحداً بشيء أبداً، ثم تلا هذه الآية، وأخرج أبو يعلى والطبراني بسند صحيح عن ابن عباس قال: قال رسول الله ـ ﷺ ـ مَنْ سُئلَ عن علمٍ فكتمه جاء يوم القيامة ملجماً بلجام من نار، والأقرب أنها نزلت في اليهود والحكم عامّ كما تدلُّ عليه الأخبار، وكونها نزلت في اليهود لا يقتضي الخصوص، فإن العبرة لعموم اللفظ لا لخصوص السبب فالموصول للاستغراق ويدخل فيه من ذكر دخولاً أوّلياً»[٢].

وقال ـ رحمه الله ـ وهو يفسر الآية الأخرى: والآية نزلت ـ كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما ـ في علماء اليهود، كانوا يصيبون من سفلتهم هدايا، وكانوا يرجون أن يكون النبي المبعوث منهم، فلما بُعِثَ من غيرهم كتموا وغَيَّروا صفته ـ ﷺ ـ حتى لا يُتَّبعَ فتزولَ رئاستهم وتنقطع هداياهم»[٣].

---

(١) التفسير الكبير: ج٥ ص ٢٥، ٢٦.

(٢) روح المعاني: ج٢ ص ٢٦، ٢٧.

(٣) روح المعاني: ج٢ ص ٤٣.

**الإمام أبو حيان:**

وقال أبو حيان وهو يفسر الآية الأولى:

«نزلت في أهل الكتاب وكتمانهم آية الرجم وأمر النبي ـ ﷺ ـ وذكر ابن عباس أن معاذاً سأل اليهود عمّا في التوراة من ذكر النبي ـ ﷺ ـ فكتموه إياه فأنزل الله هذه الآية، والكاتمون هم أحبار اليهود وعلماء النصارى وعليه أكثرُ المفسرين»[1].

وقال ـ رحمه الله ـ وهو يفسر الآية الأخرى:

«روي عن ابن عباس أنها نزلت في علماء اليهود، كانوا يصيبون من سفلتهم هدايا، وكانوا يرجون أن يكون النبي المبعوث منهم، فلمّا بعث من غيرهم غيّروا صفته وقالوا هذا نعتُ النبي الذي يخرج في آخر الزمان حتى لا يتبعوه، وروي عنه أنه قال: إنّ الملوك سألوا علماءهم قبل المبعث: ما الذي تجدون في التوراة؟ فقالوا: نجد أن اللّه يبعث نبياً من بعد المسيح يقال له: ـ محمد ـ بتحريم الربا والخمر والملاهي وسفك الدماء.

فلما بعث قالت الملوك لليهود: هذا الذي تجدونه في كتابكم؟ فقالوا طمعاً في أموال الملوك: ليس هذا بذلك النبي، فأعطاهم الملوك الأموال، فأُنزلتْ إكذاباً لهم، وقيل: نزلت في كلِّ كاتمِ حقٍّ لأخذِ عَرَضٍ أو إقامة غرض من مؤمن ويهودي ومشرك ومعطل، وإن صحّ سببَ النزول فهي عامة والحكم للعموم وإن كان السبب خاصاً فيتناول من علماء المسلمين من كتم الحق مختاراً لذلك بسبب دنيا يصيبها»[2].

**الإمام النيسابوري:**

وقال الإمام النيسابوري وهو يفسر الآية الأولى:

﴿إن الذين يكتمون الآية﴾ كلام مستأنف يتناول كل من كتم شيئاً من الدين، وقيل: هم أهل الكتاب، وقيل: اليهود خاصة لما روي عن ابن عباس أن جماعة من

---

(١) البحر المحيط: ج١ ص ٤٥٨.

(٢) البحر المحيط: ج١ ص ٤٩١.

الأنصار سألوا نفراً من اليهود عما في التوراة من صفته ـ ﷺ ـ ومن الأحكام فكتموا فنزلت، والأول أولى لعموم اللفظ الخ»[1].

وقال ـ رحمه الله ـ وهو يفسر الآية الأخرى:

«عن ابن عباس: نزلت في رؤساء اليهود وعلمائهم: كعب بن الأشرف وحيي ابن أخطب ونحوهما، كانوا يصيبون من سفلتهم الهدايا والفضول وكانوا يرجون أن يكون النبيُّ المبعوثُ منهم، فلما بُعث من غيرهم خافوا ذهاب مأكلتهم وزوال رئاستهم فعمدوا إلى صفة رسول الله ـ ﷺ ـ فغيّروها ثم أخرجوها إليهم وقالوا: هذا نعتُ نبيٍّ آخر الزمان، لا يُشبه نعت هذا النبي الذي بمكة، فإذا نظرت السفلة إلى النعت المغير وجدوه مخالفاً لصفة النبي ـ ﷺ ـ فلا يتبعونه»[2].

**الإمام القرطبي:**

وقال الإمام القرطبي وهو يفسر الآية الأولى:

«أخبر الله تعالى أن الذي يكتم ما أنزل من البينات والهدى ملعون، واختلفوا مَنِ المراد بذلك، فقيل: أحبار اليهود ورهبان النصارى الذين كتموا أمر محمد ـ ﷺ ـ وقد كتم اليهود أمر الرجم.

وقيل: المراد كلُّ مَنْ كتم الحق، فهي عامة في كل من كتم علماً من دين الله يحتاج إلى بثّه»[3].

وقال ـ رحمه الله ـ وهو يفسر الآية الأخرى:

«قوله تعالى: ﴿إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب﴾ يعني علماء اليهود، كتموا ما أنزل الله في التوراة من صفة محمد ـ ﷺ ـ وصحة رسالته»[4].

---

(١) غرائب القرآن: ج٢ ص ٤١.
(٢) نفس المصدر: ج٢ ص ٧٥.
(٣) الجامع لأحكام القرآن: ج٢ ص ١٨٤.
(٤) الجامع لأحكام القرآن: ج٢ ص ٢٣٤.

هذا ما نجده عند جلة المفسرين في تفسير هاتين الآيتين، ولقد أثبتنا تلك الأقوال كلها ـ مع كونها متقاربة ـ حتى يكون الأمر واضحاً شاخصاً ولا يظلّ هناك موضع الشك والريبة فيما نقول.

فهل نجد فرقاً يعتدُّ به في تفسير الآية في كلا الموضعين؟ وإذا لم يكن هناك أيّ فرق بينهما فهل يكون مغزى الآيتين واحداً؟ وإن كان واحداً فما الذي دعا إلى هذا التكرار؟ ثم لو أخذنا الأمر من ناحية أخرى لوجدنا أنه ليس هناك مغزى واحد، وإنما هي احتمالات، احتمالات لا يترجح بعضها على بعض.

وبعدما قضينا مع هؤلاء المفسرين ـ رحمهم الله ـ فترةً لا بأس بها نودُّ أن نرجع إلى النظام ونسترشده في تعيين مغزى الآيتين، فقد عهدناه خيرَ دليلٍ وخير مرشد كلما وقعنا في حيرة، ولم نكد نسيطر على المشكلة.

فإن أردنا أن ندرس هاتين الآيتين في ضوء نظامهما، فلنتراجع قليلاً، ولنلقِ نظرةً واعية فاحصة على ما بين أيديهما وما خلفهما من الآيات، ولنضع في حسابنا تلك الملابسات التي تحيط بهما.

فكلما تأمل المتأمّل في هذه المجموعة من الآيات استرعت انتباهه الحقائق التالية:

**الحقيقة الأولى:**

قبلة إبراهيم وذريته الطاهرة هي الكعبة، وهي التي تمّ بناؤها على أيدي إبراهيم وإسماعيل ـ عليهما السلام ـ في جوٍّ كله تَضرُّعٌ وإنابة وإسلام وإخبات إلى الله، فإنّ أيديهما الطاهرة كانت ترصّ اللَّبِنَات وكانت قلوبهما الخاشعة تخفق بهذه الكلمات:

﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧ ـ ١٢٩].

فهذا البيت هو الذي بناه إبراهيم وإسماعيل، وهذا النبي هو الذي بُعِثَ استجابةً

لدعوتهما، وهذه الأمة هي التي أنشئت حتى تتحقق فيها أمنيتهما، وهذا الدين هو الذي كان ميزتهما وكان عليه مَحْياهُما ومَماتهما.

وإنما عدل اليهود عن هذا البيت إلى بيت المقدس، واتخذوه قبلة لهم لما أنهم يحسدون بني إسماعيل على ما آتاهم الله من فضله، ولقد صرّح به القرآن حيث قال:

﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ ﴾ [البقرة: ١٤٥].

﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ﴾ [البقرة: ١٢٠].

﴿ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [البقرة: ١٠٥].

وبذلك آثروا السفاهة على الهداية، وصدق عليهم قوله تعالى:

﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ﴾ [البقرة: ١٣٠].

واستحقوا ـ عن جدارة ـ أن يُلَقَّبُوا بالسفهاء حيث قال تعالى:

﴿ ۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [البقرة: ١٤٢].

**الحقيقة الثانية:**

القبلة المشروعة منذ أول الأمر هي الكعبة، وقد كان اليهود والنصارى مأمورين بأن يولّوا وجوههم شطرها، وهذا كما يظهر من هذه الآيات، التي نحن فيها، فكذلك تشهد به صُحُفهم، على الرغم من تلك الجهود المشؤومة، التي بذلوها لكتمان هذا الأمر، ولقد تناول الإمام الفراهي هذا الموضوع وأشبعه بحثاً، ولكن المقام لا يسمح لنا إلا بأن نذوقه ذواقاً. يقول ـ رحمه الله ـ:

«اعلم أنهم أُمروا من أول أمرهم باتخاذ جانب مكة قبلةً لأكبر قرابينهم، وبيان ذلك أنه كان من الواجب في أمر القربان أن يؤتى إلى المعبد أمام الربّ، وكان قدس الأقداس (وهو أكبر قرابينهم) يُوَجَّهُ إلى الجنوب.

وكذلك الضحية السنوية التي هي أكبر الأضاحي عندهم توجّه إلى الجنوب، ولم يعرف أهل الكتاب حكمة ذلك.

فنقول: الأغلب أنهم لم يحبّوا البحث عنها وكتموها تعمّداً، فإن خيمة عبادتهم كان من البداية وجهها إلى الشمال، سفر الخروج (٢٧ : ٩): «وتضع دار المسكن إلى جهة الجنوب نحو اليمن.

أيضاً فيه: «(٢٢) وجعل المائدة في خيمة الاجتماع في جانب المسكن نحو الشمال خارج الحجاب (٢٣) ورتبّ عليها ترتيب الخبز أمام الرب (أي إمام المعبد)، كما أمر الربّ موسى (٢٤) ووضع المنارة في خيمة الاجتماع مقابل المائدة في جانب المسكن نحو الجنوب» (٤٠ : ٢٢ ـ ٢٤).

وذلك ليكون مَنْ يأتي إلى الربّ متوّجهاً إلى الجنوب أي: إلى مكة المكرمة والمنحر الإبراهيمي.

ويؤكد ذلك أنه في داخل الخيمة كان المسكنُ المقدس الربّاني في الجنوب وكان المذبح بين يديه إلى جهة الباب، ولذلك كان المقرّب بقدس الأقداس يقوم على شمال المذبح، ليكون متوجهاً إلى المسكن فيكون متوجِّهاً إلى الكعبة، وعندها المروة التي هي المنحر الأول وعنده مسكن إسماعيل ـ عليه السلام ـ»[1].

فعلمنا أن القبلة المشروعة منذ بداية الأمر هي الكعبة، وأما المسجد الأقصى فهو مسجدٌ من المساجد ليس إلاّ، وإنما جعله اللّه قبلةً لفترة من الزمان حتى يميز الخبيث من الطيب ويعلم مَنْ يتبع الرسولَ ممن ينقلب على عقبيه، حيث قال تعالى:

﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٤٣].

---

(١) الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح: ص ٦٩، ٧٠ طبعة أولى ـ دار القلم.

**الحقيقة الثالثة:**

لم يكتفِ أهلُ الكتاب باتخاذ المسجد الأقصى قبلة لهم في الصلاة، بل بذلوا أقصى جهودهم ليقطعوا صلة إبراهيم بالكعبة، وحاولوا أن يوهموا أن البيت الذي بناه إبراهيم للصلاة، هو المسجد الأقصى، مع أن المسجد الأقصى بُنِيَ بعد إبراهيم بمئات السنين، والذي بناه هو سليمان وليس إبراهيم ولكنهم قَلَبُوا الأمر وكتموا الحق.

ولذلك لما جاء الوحي بتحويل القبلة قالوا:

﴿ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ﴾ [البقرة: ١٤٢].

أي: ما صرفهم عنها مع أنها قبلة إبراهيم وهذا النبي يزعم أنه بُعِثَ بملة إبراهيم.

وإليه يشير قوله تعالى: ﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ١٤٥].

أي: تكون ظالماً لا محالة إن اتبعت أمرهم استجابةً لهواهم، ورضيتَ بقبلتهم من بعد ما وضحَ الأمرُ وجاءك الخبرُ اليقين أن قبلتهم ليست قبلة إبراهيم.

ولقد فضحهم القرآن حيث نبّه إلى كتمانهم هذا مرة بعد مرة، فقال: ﴿ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٤٦]، وقال:

﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة: ١٤٤].

وجاء تفنيد هذه الدعوى في سورة آل عمران بما هو أشدّ وأصرح حيث قال:

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران: ٩٦ ـ ٩٧].

**الحقيقة الرابعة:**

وكان من محاولاتهم المشؤومة لقطع صلة البيت بإبراهيم أنهم تفوهوا ـ بكل وقاحة ـ أن إبراهيم لم يكن يمتُّ بصلةٍ إلى الإسلام، وإنما كانت ديانته اليهودية

ـ حسبما زعمت اليهود ـ والنصرانية ـ حسبما زعمت النصارى ـ وأرادوا من وراء ذلك كله أن يوهموا أن هذا البيت ليس من بناء إبراهيم.

وإنما البنية التي بناها إبراهيم هي المسجد الأقصى، الذي هو قبلة اليهود والنصارى، وعلى هذا توَعَّدهم ربُّهم فقال:

﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة: ١٤٠].

وبعده مباشرة جاء ذكر تحويل القبلة، حيث قال:

﴿ ۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [البقرة: ١٤٢].

وهذا النظمُ يفصحُ عما كانوا يقصدون إليه بإصرارهم على يهوديّة إبراهيم ونصرانيته ـ لعنهم الله ـ وهذا النظم شبيه بما ورد في سورة آل عمران، حيث قال:

﴿ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۞ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ۞ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران: ٩٥ ـ ٩٧].

**الحقيقة الخامسة:**

الصلحاء من أهل الكتاب كانوا على عِلْمٍ بتلك المحاولات الماكرة الخبيثة، التي حاكتها ونسجت حبائلها طواغيت اليهود، ولذلك لمّا تَمَّ تحويل القبلة فرحوا واستبشروا وازدادوا ارتياحاً إلى هذا الدين الجديد فإنهم كانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم.

ولا نُدري كيف نصوّر لك ما يموجُ به هذا التعبيرُ القرآني من أُنسهم وحنينهم ولَهفتهم إلى المسجد الحرام فهم كانوا يعرفون ما لهذا البيتِ من مكانةٍ وكرامة عند

الله، وكانوا يحنّون إليه كما يحنّ الوالد الحنون إلى وحيده الذي عثر عليه بعد ما فقده وكاد اليأس يقتله:

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ﴾ [البقرة: ١٤٦].

**الحقيقة السادسة:**

لمّا جاء أمر تحويل القبلة لم يقابله اليهود بالصمت والهدوء، بل هاجوا وماجوا، وقاموا وقعدوا، وصاحوا بالمسلمين وهجهجوا، وألحقوا بهم ما ألحقوا كما يشير إليه قوله تعالى:

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِي﴾ [البقرة: ١٥٠].

وتلك الظروف الحرجة القاسية استوجبت أن يقف الكلام هنا وقفة، ويصف للمسلمين ما يقوّي عزائمهم، ويُذْكي عواطفهم، ويُثَبِّت أقدامهم حتى يسيطروا على الظروف ويملكوا زمام الموقف، فجاءت هذه الآيات:

﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ * يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ * وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقۡتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتُۢۚ بَلۡ أَحۡيَآءٞ وَلَٰكِن لَّا تَشۡعُرُونَ * وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ * ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٢ ـ ١٥٧].

ثم عاد الكلام إلى نصابه فقال تعالى:

﴿۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٥٨].

**الحقيقة السابعة:**

تشي تلك الآية بأن اليهود كما أَرْخَوْا سُدولَ الكتمانِ على بيت الله الحرام، فكذلك أرخوها على كل شيء يوشك أن يبوحَ بسرِّهم ويكشف عن دسيستهم.

فكتموا «المروة» التي اختارها الله لأن تكون موضعَ قربان سيّدنا إسماعيل

وحرّفوها في كتبهم إلى «موريا» و«موره» و«مريّا» وادّعوا أن هذا المكان يوجد في أورشليم لا في مكة التي يعمرها بنو إسماعيل.

**لفتات بارعة للإمام الفراهي:**

وهناك لفتات بارعة وجولات رائعة للإمام الفراهي في هذا الباب ولا بأس بأن نذكر هنا نبذاً منها. يقول ـ رحمه الله ـ:

«قد مرّ آنفاً أن «موره» هي تحريف «مروة»، وقد اعترف المحققون منهم بأن هذا الموضع لم يكن في الشام في مساكن اليهود، وإنما أدخلوا هذا الاسم في صحفهم واخترعوا له موضعاً لم يَثْبُتْ عند المحققين وجودهُ، بل نصوص صحفهم قد دلّت على أنه في أرضِ الحجاز في مساكن بني إسماعيل.

فبعد ذلك أي شيء بقي من دعواهم بأنه على جبل أرشليم؟ أم أيّ شيء يدفعُ ما لم يزل الإسماعيليون يعرفونه بالمروة، وكانت عندهم أشهر من نارٍ على عَلَم، وكانوا يطوفون بها في حجّهم؟

وحين خاطبهم القرآن في أمر الطواف لم يحتج إلى تعريفها ولكن بيّن أنها من شعائر الله، وهناك أشار إلى تحريف أهل الكتاب في أمرها وسوء صنيعهم فيما يكتمون من آيات الله، من بعد ما بيّنها الله تعالى في كتابهم.

وقد جاء في صحيح الحديث أن النبي ـ ﷺ ـ أشار إلى المروة حين رأى البُدْنَ واقفةً عندها، فقال:

«هذا المنحرُ وكُلُّ فِجاجِ مكةَ منحرٌ وطُرُقها منحرٌ».

وقال مرة لمنى: «هو منحر»[1].

وبذلك بيّن أن «منى» من طرق مكة.

وانظر كيف سمّى النبي ـ ﷺ ـ كل ذلك منحراً، وأمّا المروة فسمّاها «المنحر»

---

(١) الموطأ للإمام مالك ـ رحمه الله ـ ١ / ٣٩٣.

(مع لام التعريف)، أي: هي المنحرُ الحقيقي.

ثم على ذلك دلالة من القرآن حيث قال تعالى في أمر البُدْنِ:

﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٣٣]، وأيضاً ﴿هَدْيًا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ﴾ [المائدة: ٩٥].

أي: لا بدّ للبُدْنِ أن تبلغَ الكعبةَ، فإن محلها جانب الكعبة التي هي البيت القديم الذي وضع لذلك أولاً كما صرّح به في موضع آخر، والمروة هي بجانب الكعبة وهي المنحر الأول، ولكن حينما اتسع نطاق الأمة جعل للمنحر سعة.

وإذ لا خلاف بيننا وبين أهل الكتاب أن المنحر الإبراهيمي عند بيت اللّه كما جاء في سفر التكوين (١٢: ٩ ـ ٦)، فتلك هي المذبح الذي عند بيت اللّه الذي بناه إبراهيم.

ثم إن هذه المروة هي التي تَصدقُ عليها الصفاتُ المذكورة في قصة الذبح التي لا تصدق باعترافهم على جبل الهيكل الذي سمّوه «موريا» و«موره» و«المريّا» مِراءً وكتماناً للحق.

فتطابقُ الأمور يدل على أن إبراهيم جاء من جهة الشرق وترك غلاميه على جبل قريب، وذهب بابنه الوحيد إسماعيل إلى المروة ساعياً وملبّياً لدعوة الربّ.

وكان مسكن إبراهيم إلى جانب الصفا كما جاء في سفر التكوين (١٢: ١ ـ ٨)، حيث جاء ذكر رحلته إلى أرض موره في رواية أخرى لقصة الذبح، ولكنهم أسقطوا منها ذِكْرَ هذا الذبح واكتفوا بذكر رحلته، فلم تزل الصفا والمروة في بني إسماعيل قائمتين من لدن إبراهيم ـ عليه السلام ـ إلى يومنا هذا مع الاسْمِ والرّسم، والمناسك الدالة على تلبية إبراهيم للربّ وسعيه لإتمام أمره.

وليس لليهود ولا للنصارى شيء من هذه المناسك[١].

---

(١) الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح: ص ٥١، ٥٢.

تلك سبع حقائق بارزة تسفر عنها هذه المجموعة من الآيات، وبعد ما لَوَّحَ السياقُ بتلك الحقائق السبع بخصوص الكعبة جاءت هذه الآيات:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ * إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ * إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ * خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٩ ـ ١٦٢].

فما هو ذلك الكتمان يا ترى؟ وهل هو غيرُ كتمانِ القبلةِ وما حولها؟

لا شك أن نظام الآيات يؤكّد لنا أنّ المراد بذاك الكتمان هو كتمان القبلة وكتمان الصفا والمروة.

**كلمة موفقة للفراهي وللدكتور دراز:**

يقول الإمام الفراهي وهو يبحث هذه الآيات:

«فإن تأملت في هذه الآيات ونَظْمها العجيب وجدت خمسة أمور في غاية الربط والمناسبة وذلك أن القرآن يذكر ها هنا بعثة هذا النبي حَسْبَ دعاء إبراهيم فيه وحسب وصفه إياه ثم يدلنا على ما هو الأصل والأساس لهذا الدين الحنيفي وهو ذِكْرُ اللّه والشكر والصبر والصلاة، ثم يُبَشِّرنا بما جعلَ اللّهُ تعالى من البركة والرحمة لأهلِهِ، ثم يتبع ذلك ذكر الصفا والمروة لَمَّا سعى إبراهيم بابنه عليهما السلام بينهما وقرّبه هناك فصارتا أكبر مظاهر الصبر والصلاة والذكر والشكر، ولذلك جعلهما اللّه تعالى من شعائره المعظمة، ثم يتبع ذلك التشنيع الغليظ على الذين كتموه حسداً وكفراً بعد ما بيّنه اللّه في كتابه القديم.

فمن كانُ مطّلعاً على أن اليهود والنصارى قد بالغوا في تبديل موضع المروة كما مرّ في الفصل الثامن تبين له أن المراد بذلك ليس إلا التلميح إلى ما حرّفت اليهود في اسمها ورسمها وموضعها حسداً بإسماعيل عليه السلام وذريته فردّ اللّه عليهم بإشارة لطيفة»[١].

---

(١) الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح: ٨٧.

ثم يأتي بعده الدكتور محمد عبدالله دراز وهو أيضاً يتوصّل إلى هذا المعنى بفضل تأمله في نظام الآيات حيث يقول وهو يتكلّم عن تأويلها:

«. . . ثم أومأ إلى أن الجدالَ في هذه القبلة ليس صَدّاً عن الشعائر التي في داخل المسجد الحرام فحسب، بل هو كذلك صَدٌّ عما حوله من الشعائر ﴿إن الصفا والمروة من شعائر اللّه﴾.

ثم أكدَّ أمرَ هاتين الشعيرتين على نحو ما أكد أمرَ القبلةِ بالتعريضِ بأهلِ الكتاب الذين يعلمون أصلهما في تاريخ إبراهيم، ولكنهم يكتمون ما أنزله اللّه من البينات وهم يعلمون»[1].

**وحي هذه الآيات بطبيعتها:**

ثم طبيعة هذه الآيات وصياغتها أيضاً تُوحي إلينا بهذا المراد وتؤكدّ لنا أن ذلك الكتمان هو كتمان القبلة وما حولها.

فلننظر هؤلاء الذين تلبّسوا بذاك الكتمان كيف صاروا، بحيث تَنْصَبُّ عليهم اللعنةُ من كل جانب، كأن كل شيء في العالم يقذفهم باللعنة:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾ [البقرة: ١٦١].

وذلك لأن فيوض الكعبة وخيراتها تعمُّ العالمَ كلّه، حيث قال تعالى:

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦].

﴿۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلۡكَعۡبَةَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ قِيَٰمٗا لِّلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٩٧].

فكأن الذين تَلَبَّسُوا بكتمانِ القبلة كانوا مسيئين في حق البريّة أجمعين، وبذلك استحقوا منهم الويلَ واللعنة إلى يوم الدين، فالْعنهم اللهمَّ لعنةً مضاعفةً مستمرة إلى أبد الآبدين!

---

(١) النبأ العظيم: ص ١٨٨.

### المراد بالكتمان في الآية الأخرى ونظام ما سبقها من الآيات:

لما انتهى موضوع القبلة، وقد استوفى حَقَّهُ من البيان والإيضاح، انساقَ الكلام إلى التوحيد الذي هو أساسُ هذه القبلة، والذي تركهم عليه أبوهم يعقوب وأخذ عليه منهم العهدَ والميثاق، حيث قال تعالى:

﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣].

ولم يكن كتمانهم لهذه القبلة وعداؤهم لهذه النبوة إلا بسبب انخلاعهم عن هذا العهد، وبُعْدِهم عن التوحيد.

فذكّرهم اللّه تعالى هذا العهد حيث قال:

﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣].

ذكّرهم بأسلوب كله نُصْحٌ ومودّة ورقة وحنان.

ثم ذكر طائفة من نعمه الجسام، التي ينعمون بها ويتقلّبون فيها، والتي تدعو كل مَنْ كان فيه ذرة من حياء أو ومضةٌ من فكرٍ سليم إلى الالتصاق به والحرص على طاعته، والشكر لنعمه:

﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

ثم تَعجَّبَ من سفاهتهم التي يرتكبونها حيث يَنهلونَ من نِعَمِ اللّه ثم يجعلون له أنداداً[١] ويحبونهم كحبّ اللّه، مع أن هذا الحبّ كان من حقّ اللّه، ويشبهه ما جاء في سورة التوبة حيث قال تعالى:

---

(١) ذكر الإمام القرطبي عن ابن عباس والسدي أن المراد بالأنداد الرؤساء المتبعون، يطيعونهم في معاصي اللّه، انظر الجامع لأحكام القرآن: ج٢ ص٢٠٣.

﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣١].

ثم ذكر أن هؤلاء الأنداد لا يملكون لهم ثواباً ولا يدفعون عنهم عذاباً ويتبرؤون منهم يوم القيامة، وتعود أعمالهم كلّها حسراتٍ عليهم، ويريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها.

ثم إنّ هذه الندّيّة كانت لها أشكال وألوان، منها: أنهم حَرَّمُوا كثيراً ممّا أحلَّ اللّه لهم من الطيبات.

ويؤيد ذلك ما رواه ابن جرير عن عدي بن حاتم ـ رضي اللّه عنه ـ قال:

«أتيتُ رسولَ اللّه ـ ﷺ ـ وفي عنقي صليب من ذهب فقال: يا عدي! اطرح هذا الوثن من عنقك، قال: فطرحته، وانتهيتُ إليه وهو يقرأ في سورة براءة فقرأ هذه الآية: ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون اللّه﴾، قال: قلت: يا رسول اللّه إنا لسنا نعبدهم. فقال: أليس يُحرِّمون ما أحلّ اللّه فتحرّمونه، ويُحِلّون ما حرّم اللّه فتحلونه قال: قلت: بلى. قال: فتلك عبادتُهم. واللفظ لحديث أبي كريب»[1].

وعلى هذا فجاء الأمر الإلهي:

﴿يا أيها الناس، كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدّو مبين. إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على اللّه ما لا تعلمون﴾.

ثم تَحسَّرَ على بلاهتهم وشدة غفلتهم، أنهم كلّما دُعُوا إلى الحق والهدى صدوا عنه لمجرد أنه لم يُؤْثَرْ عن آبائهم، حيث قال تعالى:

﴿وإذا قيل لهم[2] اتبعوا ما أنزل اللّه قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا، أو لو كان

---

(١) جامع البيان في تفسير القرآن: ج٦ ص ٨١.

(٢) ذكر الإمام القرطبي ـ رحمه اللّه ـ عن ابن عباس ـ رضي اللّه عنه ـ أن هذه الآية نزلت في اليهود، انظر الجامع لأحكام القرآن: ج٢ ص ٢١٠.

آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون، ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء، صم بكم عمي فهم لا يعقلون﴾.

ثم وعظَ المؤمنين حتى لا يقعوا فيما وقعَ فيه أهلُ الكتاب من تحريم ما أحلَّ اللّه، فإن هذا يتنافى مع الشكر ويتنافى مع العبادة، قال تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا للّه إن كنتم إياه تعبدون. إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهلّ به لغير اللّه. فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه إن اللّه غفور رحيم﴾. ثم قال تعالى:

﴿إن الذين يكتمون ما أنزل اللّه من الكتاب ويشترون به ثمناً قليلاً أولئك ما يأكلون في بطونهم إلاّ النار. ولا يكلمهم اللّه يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم﴾.

فما هو المراد بذلك الكتمان يا ترى؟ أليس هو كتمانهم في مجالِ التحليل والتحريم؟

أليس الواقع أن نظام الآيات يُحَدِّدُ لنا هذا الكتمانَ، ولا يتركُ لنا الخيارَ حتى نميل إلى ما سواه؟

وبيان ذلك أن اليهود قد حُرِّمَ عليهم كثيرٌ من الطيبات، وكان ذلك جزاء ببغيهم واعتدائهم كما قال تعالى:

﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٦].

إلاّ أن رأفة اللّه بهم لم تجعل هذا الجزاء مؤبداً دائماً إلى يوم القيامة، بل جعلته لفترةٍ محدودة، وبشّرتهم بمجيء نبي الرحمة، وأعلمتهم مسبقاً أنه يُحِلُّ لهم الطيبات ويحرّم عليهم الخبائث ويضع عنهم الإصْرَ والأغلال حيث قال تعالى:

﴿ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ

﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ * ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦ ـ ١٥٧].

فكان من واجب هؤلاء القوم أن يَخرُّوا سُجَّداً للّه شكراً وامتناناً على هذه النعمة التي أُفيضت عليهم، ثم يكونوا أول الناس إيماناً بهذا النبي وأسبقهم إلى مساندته في مهمّته.

ولكنهم نكسوا على رؤوسهم، فكذبوه وخالفوه، وشككوا الناس في نبوّته، وقالوا: ما بالُ هذا النبي؟ فإنه ما ترك شيئاً إلاّ وخالَفنا فيه وخالفَ رُسُلَنا، فأحلَّ ما حرّموه وحرّم ما أحلوه.

مع أنهم كانوا يعرفون حقيقة الأمر، وكانوا يدركون أن هذا النبي ما جاء إلا لِيُدخلهم في رحمةِ ربهم بعد ما طال حرمانهم، وطال شقاؤهم، فهو يُحرِّمُ عليهم الخبائث ويحل لهم الطيبات، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم.

كانوا يعرفون هذا وهذا جيداً، ولكنهم ما أرادوا أن يخرجوا من شقائهم، فتمادوا في غيِّهم وأصرُّوا على كتمانهم.

فجاءت هذه الآيات تُنذِرُهم ما ينتظرهم من سوءِ المصيرِ وعذاب السعير!

فلننظر كيف حَدَّدَ لنا التمسكُ بالنظام نوعيةَ الكتمان في هاتين الآيتين، وجعل الفرقَ بينهما واضحاً شاخصاً، بينما نرى الذين لم يتمسكوا بالنظام، لم يهتدوا إلى هذا الفرق، وجعلوا الأمرين أمراً واحداً.

* * * * *

## الفصل السادس
## المزية السادسة

النظام يفتح العيون على وجوه البلاغة في القرآن، لكن الذي لا يهتمّ به يتعذّر عليه أن يتذوّق بلاغة القرآن، أو يدرك ميزته التي أعجزت فرسان الكلام.

نأخذ ـ على سبيل المثال ـ سورة القمر، فهذه السورة ـ كأخواتها ـ تشتمل على أبواب كثيرة منوّعة من البلاغة وحسن العبارة ولكنها تبدو وكأنها ما زالت رِتاجاً مُرْتَجاً لقلّة من عُني بنظامها وقلة مَنْ درس رباط معانيها.

ولا نرى من أئمة التفسير وعلماء البيان من تذوّق تلك السورة الكريمة واستمتع بها مثلما تذوّقها واستمتع بها الأديب البارع الموهوب الأستاذ سيد قطب حيث يقول:

«هذه السورة من مطلعها إلى ختامها حملة رعيبة مُفزعة عنيفة على قلوب المكذبين بالنُّذُر، بقدرِ ما هي طمأنينةٌ عميقة وثيقة للقلوب المؤمنة المصدقة، وهي مقسمة إلى حلقات متتابعة، كل حلقة منها مشهد من مشاهد التعذيب للمكذبين، يأخذ السياق في ختامها بالحسّ البشري فيضغطه ويهزّه ويقول له: ﴿فكيف كان عذابي ونذر؟﴾، ثم يرسله بعد الضغط والهزّ ويقول له:

﴿ولقد يَسَّرْنا القرآن للذكر فهل من مُدّكر؟﴾.

ومحتويات السورة الموضوعية واردة في سور مكية شتى، فهي مشهد من مشاهد القيامة في المطلع، ومشهد من هذه المشاهد في الختام، وبينهما عرض سريع لمصارع قوم نوح، وعاد، وثمود، وقوم لوط، وفرعون وملئه، وكلها موضوعات تزخر بها السور المكية في صور شتى...

ولكن هذه الموضوعات ذاتها تعرض في هذه السورة عرضاً خاصاً، يُحِيلها جديدةً كل الجدّة، فهي تُعرض عنيفةً عاصفة، وحاسمة قاصمة، يفيض منها الهول، ويتناثر حولها الرعب، ويظللها الدمار والفزع والانبهار!

وأَخصُّ ما يميزها في سياق السورة أن كلاً منها يمثل حلقةَ عذابٍ رهيبة سريعة لاهثة مكروبة، يشهدها المكذبون، وكأنما يشهدون أنفسهم فيها، ويحسون إيقاعات سياطها، فإذا انتهت الحلقة وبدؤوا يستردون أنفاسهم اللاهثة المكروبة عاجلتهم حلقة جديدة أشد هولاً ورعباً... وهكذا حتى تنتهي الحلقات السبع في هذا الجو المفزع الحانق، فيطلّ المشهد الأخير في السورة وإذا هو جوٌّ آخر، ذو ظلالٍ أخرى، وإذا هو الأمنُ والطمأنينة والسكينة، إنه مشهد المتقين: ﴿إن المتقين في جنات ونهر. في مقعد صدق عند مليك مقتدر﴾... في وسط ذلك الهول الراجف، والفزع المزلزل، والعذاب المهين للمكذبين: ﴿يوم يُسحبون في النار على وجوههم. ذوقوا مس سقر﴾.

فأين وأين؟ مشهد من مشهد؟ ومقام من مقام؟ وقوم من قوم؟ ومصير من مصير؟»[1].

هذا ما نجده عند الأستاذ سيد قطب وهو ـ على روعته وجلالة قدره ـ لا يزيدُ على أن يكون لمحةً خاطفة إلى محاسنِ تلك السورة ومميزاتها، وإلا فهي تزخر بمحاسن التعبير ولطائف البلاغة بحيث لا ينقضي منها العجب.

والجدير بالذكر أن هذه البلاغة وتلك المزايا يرجع معظمها إلى حُسْنِ النظام.

فمن كان يريد أن يدركِ هذه المحاسن، أو يتذوق تلك البلاغة فلا عليه إلا أن يتدبر السورة متمسكاً بنظام آياتها ورباط معانيها فإن ذلك يمدّه بكثير مما لم يخطر بباله، ولم يشمّ رائحته عند غيره.

ونذكر هنا بعض ما لمسناه نحن من لطائف البلاغة فيها، حتى يكون ذلك حافزاً

---

(١) في ظلال القرآن المجلد السابع: ص ٧٩، ٨٠.

لمن تطلّع إلى الفحص عن بقيّتها.

فكلما تدبرنا السورة، وأنعمنا النظر في نظامها رأينا من شأنها عجباً حيث وجدناها مثالاً رائعاً لبراعة الاستهلال، وندرة الاستدلال، وروعة التخلص، وسرعة الالتفات، وحسن التلميح، وجمال المقطع، ودقة التصوير، وشدة التأثير، وكمال الإبلاغ، وعجيب الاستدراج، وما إلى ذلك من دلائل الإعجاز.

**براعة الاستهلال:**

فأمّا براعة الاستهلال فيها فيكفينا لإدراكها أن نتذكّر أواخر سورة النجم، حيث قال تعالى:

﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ * أَزِفَتِ ٱلْآزِفَةُ * لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ * أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ * وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ * وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ * فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩﴾ [النجم: ٥٦ ـ ٦٢].

فلما كان أعداء اللّه في غاية السمود، حيث كانوا يعجبون إذا قيل لهم: ﴿أزفت الآزفة. ليس لها من دون اللّه كاشفة﴾، وكانوا يضحكون ولا يبكون، ويستهزءون ولا يخافون، قَرَعتهم سورة القمر وهزَّتهم هزّاً عنيفاً حتى يتنبهوا من رقدتهم ويفيقوا من هوسهم:

﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾.

أي: جاءتكم الساعة ـ الساعة التي كنتم تعجبون منها وتضحكون ـ جاءتكم بكل ما فيها من ويل وثبور وشرور وأهوال! وهذي أشراطها، قد ظهرت وتحققت، فقد انشق القمر، ولم يبق مجالٌ لإنكارِ مَنْ أنكر.

وفضّل هنا هذا الأسلوب ـ أسلوب المفاجأة أو المباغتة، حتى يدركوا أن الساعة ستأتيهم هكذا بغتة فَتبهَتُهم فلا يستطيعون ردّها ولا هم يُنظَرون، وعندئذٍ يندمون ويصطرخون، كما قال تعالى:

﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٧].

ولكن ماذا يُجديهم الندمُ، وقد فاتهم الزمن!

وكان هذا الأسلوب ـ ولا شك ـ بحيث تتخشع له الجبال وتتصدّع له الصخور، ولكنه لم يكن لينجعَ في قومٍ أعماهم الجهلُ والسمود عن النظر في عواقبهم، وكانوا كما قال الله فيهم:

﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ٥٧].

فلم يكونوا ليفيقوا من هوسهم، وإنما الذي كان يخشى منهم أن يزدادوا عتوّاً إلى عتوّهم وعناداً إلى عنادهم ويقولوا كما قال أشياعهم من قبل:

﴿فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٤].

فجاءت الآية: ﴿وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر﴾.

وهذا من عجيب أسلوبِ القرآن، حيث أنه كثيراً ما يأتي بمعنيين ترى بينهما فجوةً، وما هي بفجوة، وإنما هي من لطائفِ بلاغة القرآن، إنه يأتي بمعنيين متنائيين في بادىء النظر، ويترك للذهن أن يملأ الفراغ بينهما، وإنْ شئت فقل: إنه يجعل الخيال جسراً بينهما.

ومثل هذه المواطن تكون مظنة الحيرة، إلاّ أن رعاية النظام تعالجها بسهولة.

فكأنه قيل: إنهم يُنذَرون الآن ويلات الساعة فلا ينتبهون ولا يرتعدون ويدّعون بآية يستدلون بها على صِدْقِ هذه النبوءة، ولو ظهرت لهم الآيةُ تحقيقاً لطلبهم ونظراً إلى رغبتهم لأعرضوا وقالوا: «سحر مستمرّ»، كما جاء في موضع آخر:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَـٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ [الأحقاف: ١١].

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَـٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَـٰفِرُونَ﴾ [القصص: ٤٨].

ثم قال: على أية حال، فإنهم كذبوا بالساعة، ولم يعتمدوا في تكذيبهم هذا على

دليل رصين أو أساس متين، وإنما اتبعوا أهواءهم.

فهل تكذيبهم هذا يغير الوضع ويبدّل القول؟ كلا! فكلُّ أمرٍ له موعدٌ مضروب وأجل محتوم، فإذا جاء الموعد وحان الأجل وقعت الواقعة واستقرّ الأمر.

ومما يدعو إلى العجب أنّهم يعرضون، مع أنهم قد جاءهم من الأنباء ما يكفي لردعهم وزجرهم؟ جاءتهم أحاديث كلها حكمة بالغة وموعظة رادعة، ولكن هذه النذر كلها ضاعت، كأنها كانت صيحة في واد، أو نفخاً في رماد!

ضع تلك الملابسات كلّها بأبعادها وتفاصيلها في الذهن، ثم ارجع البصر كرتين، تجد تلك الآيات نموذجاً رائعاً لبراعة الاستهلال: ﴿اقتربت الساعة وانشق القمر. وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر. وكذبوا واتبعوا أهواءهم. وكل أمر مستقر. ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر. حكمة بالغة فما تغن النذر﴾.

**روعة الالتفات:**

وهنا يلتفت الخطاب إلى النبي ـ عليه السلام ـ:

﴿فتول عنهم. يوم يدع الداع إلى شيء نكر. خشعاً أبصارهم. يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر. مهطعين إلى الداع. يقول الكافرون هذا يوم عسر﴾.

ولعمري إنه التفات عجيب ومليح، فإن الكلام ما زال متصلاً بالكافرين ومتوجهاً إليهم، فكأنه من قبيل: «إياكِ أعني واسمعي يا جارة».

ولا يخفى ما لهذا الالتفات من وقع وتأثير في النفوس، إنْ كان قد بقي فيها رمق من حياة!

**حسن المقابلة:**

ثم نلاحظ في تلك الآيات مقابلةً جميلة رائعة، لا ينتبه لها إلا من يهتم بنظام الآيات، فاليوم هم ﴿سامدون﴾، وغداً تراهم ﴿خُشَّعاً أبصارهم﴾.

واليوم هم مُعرضون عن الداعي: ﴿وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر﴾، وغداً تراهم ﴿مُهْطِعين إلى الداع﴾.

واليوم هم يكذبون ﴿وكَذَّبوا واتَّبعوا أهواءهم﴾.

وغداً يصدقون حين لا ينفعهم تصديقهم: ﴿يقول الكافرون هذا يوم عَسِر﴾.

واليوم هم يقولون: ﴿نحنُ جميعٌ منتصر﴾.

وغداً يخرجون من الأجداث كأنهم ﴿جرادٌ منتشر﴾.

وما أروع المقابلة بين ﴿جميع منتصر﴾ و﴿جراد منتشر﴾!

ثم تبلغ هذه المقابلةُ غايتَها من الحسن والروعة والجمال حينما نستمع إلى القرآن مرة أخرى وهو يقول: ﴿أم يقولون نحن جميع منتصر؟ سيهزم الجمع ويولون الدبر﴾.

وما أشبه الجيش المنهزم بجرادٍ منتشر!

ثم نجد أنفسنا أمام تلك الآيات:

﴿كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر. فدعا ربه أني مغلوب فانتصر. ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر. وفجرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر. وحملناه على ذات ألواح ودسر. تجري بأعيننا. جزاء لمن كان كفر. ولقد تركناها آية فهل من مدّكر؟ فكيف كان عذابي ونذر؟ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر؟﴾.

﴿كذبت عاد فكيف كان عذابي ونذر؟ إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في يوم نحس مستمر. تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر. فكيف كان عذابي ونذر؟ ولقد يسرّنا القرآن للذكر فهل من مدكر؟﴾.

﴿كذبت ثمود بالنذر. فقالوا أبشراً منا واحداً نتبعه؟ إنَّا إذاً لفي ضلال وسعر. أألقي الذكر عليه من بيننا؟ بل هو كذاب أشر. سيعلمون غداً من الكذاب الأشر. إنا مرسلو الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر. ونبئهم أن الماء قسمة بينهم. كل شرب محتضر. فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر. فكيف كان عذابي ونذر؟ إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر. ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر؟﴾.

﴿كذبت قوم لوط بالنذر. إنا أرسلنا عليهم حاصباً إلا آل لوط. نجيناهم بسحر.

نعمة من عندنا. كذلك نجزي من شكر. ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر. ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي ونذر. ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر. فذوقوا عذابي ونذر. ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر؟﴾.

﴿ولقد جاء آل فرعون النذر. كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر﴾».

ينظر الناظر إلى تلك الآيات فيتخيَّلُها وكأنها ما جاءت إلا لتتوعَّدَ الكافرين على سوء مصيرهم في الدنيا شأن مَنْ خَلَوْا من قبلهم، كما صرّح به القرآن بعد ما انتهى من تلك القصص، حيث قال:

«أكفاركم خير من أولئكم؟ أم لكم براءة في الزبر؟ أم يقولون نحن جميع منتصر؟ سيهزم الجمع ويولون الدبر».

ولكننا حين نتملاّها في ضوء نظامها، لا نقضي منها العجب لكثرة ما تشتمل عليه من عجائب البلاغة: من ندرة الاستدلال على مجيء الساعة، وعجيب الاستدراج إلى أهوالها، ثم من سرعة الالتفات ولطيف التخلص، ودقة التصوير، وشدة التأثير، وأشياء أخرى قد يدركها المتأمّل ويعجز عن وصفها.

وهنا نلمّح إلى بعض ما تتضمّنه تلك الآيات من روائع البلاغة ومحاسنها:

**ندرة الاستدلال:**

ننظر أولاً إلى ندرة الاستدلال على مجيء الساعة، وهي من ناحيتين:

الأولى: إنهم كانوا يستبعدون الساعة من جهة إمكانيّتها، وكانوا يطلبون آيةً يَستدلُّون بها على وقوعها.

إنهم كانوا يقيسون القدرة القادرة المطلقة بقدراتهم الضئيلة العاجزة، وكانوا يتعجبون ويتساءلون: كيف يَنشقُّ هذا القمر؟ وكيف تَنْفَطِرُ هذه السماء؟ وكيف تسير تلك الجبال؟ وقد أشار القرآن إلى شبهاتهم هذه حيث قال:

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ۝ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۝ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ۝ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾

[طه: ١٠٥ ـ ١٠٨].

فقد جمع القرآن في ثنايا تلك القصص عدداً من الحوادث الكونية الكبرى، التي ستظهر في حين قيام الساعة، فإن كان اللّه قادراً في فترة قوم نوح على أن يفتح أبواب السماء، وعلى أن يفجرَ الأرضَ عيوناً، فما وجهُ الاستغراب إذن إذا قيل في أشراط الساعة: ﴿وفُتحتِ السماءُ فكانت أبواباً﴾ أو ﴿وإذا البحار فُجِّرتْ﴾؟

ثم إن كان اللّه قادراً على أن يرسل صيحة واحدة على ثمود فيكونوا كهشيم المحتظر فما وجه الاستبعاد إذن إذا قيل: ﴿إن كانتْ إلا صيحةً واحدة فإذا هم جميعٌ لدينا محضرون﴾؟

ثم انفلاقُ البحر وانشقاقه بضربةٍ بالعصا ليس أقلَّ غرابةً من انشقاق القمر في وقت قيام الساعة، فما وجه الاستغراب إذن إذا قيل: ﴿اقتربت الساعة وانشق القمر﴾؟

**الناحية الأخرى:**

إن تلك الحلقات المتتابعة المتلاحقة للأحزاب التي حلّ عليها سخطُ اللّه بسبب عصيانها وطغيانها تدل دلالة واضحة ناطقة على أن ربّ العرش ليس غافلاً عن رعيته، وهو يراقبهم في حركاتهم وسكناتهم ويعاملهم حسب تصرفاتهم، فَيُهْلِكُ العُصاةَ الطاغين، ويرحم عباده الشاكرين.

فهي ـ في الواقع ـ شواهد على الدينونة الإلهيّة الكبرى، التي ستظهر وقت قيام الساعة على وجهٍ أتمّ وأشمل، فإن هذه الدنيا ليست دار الجزاء، وإنما هي دار البلاء، وما يظهر فيها من وقائع الجزاء، ليس إلا تلميحاً إلى ما يتبعه من الجزاء الأوفى، الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

**عجيب الاستدراج:**

ومما يزيد في روعة هذه الآيات ويرفع من قيمتها البلاغية أنها نموذج رائع لعجيب الاستدراج كما أنها نموذج رائع لندرة الاستدلال، فهي لا تُصرِّحُ بأدلةِ وقوعِ الساعة حتى ينفرَ منها مَنْ لا يؤمنُ بها، بل تتضمنها في ثناياها وتُخْفيها في غضونها،

فهي تمشي في عروقها كما يمشي الماء في عروق الشجر وأغصانها.

فالسامع يستمع إلى تلك القصص واحدةً واحدةً وما يكاد ينتهي منها حتى يلين وينكسر من حيث لا يشعر، ويتوجَّسُ في نفسه خيفة الحساب وخيفة الجزاء مع أنه كان منكراً للحساب ومنكراً للجزاء.

ثم حينما ينتهي السياق من تلك القصص المخيفة المرجفة لا يُباغتهم بوعيدِ الساعة، بل يراعي ذلك الاستدراج، ويأخذ الجانب الذي كان من الوضوح بحيث لا يحتمل المِراء، ويوجّه إليهم سؤالين اثنين:

﴿أكفاركم خير من أولئكم؟ أألكم براءة في الزبر؟﴾.

وكان هذان السؤالان من القوة وإلزام الحجة بحيث لا يسعهم إلا أن يجيبوا عليهما «بلا»، فأردفهما سؤالاً آخر بدون أن يقف عندهما وينتظر الجواب عليهما:

﴿أم يقولون نحن جميع منتصر؟﴾.

وكان في الموقف احتمال أن تستيقظ فيهم نوازع الأنفة والحمية الجاهلية، وكان من المحتمل أن يسارعوا بالجواب عليه «بنعم»، فأزاح عنهم حجاب الغرور وهزهزهم بالواقع المرّ:

﴿سيهزم الجمع ويولّون الدبر﴾.

**براعة التخلص:**

ثم يرتقي السياق خطوة أخرى بسرعة عجيبة مذهلة، ويقرعهم بما هو أشد وأقسى، ولا يعطي الفرصة حتى ينبعث أشقى القوم ويقول: إذا كان هذا هو نهاية الأمر، فنحن نقبلُ هذه الهزيمة ونأبى أن نفارق ماوجدنا عليه آباءنا، فيقطع القرآن دابرَ هذا الوهم ويقضي عليه قبل أن ينجم:

﴿بلِ الساعةُ موعدهم. والساعةُ أدهى وأمرّ﴾.

أي: ليس هذا نهاية الأمر، بل موعدهم الأخير المحتوم هي الساعة، فإنْ تَحمَّلُوا مرارة هذه الهزيمة، فلن يتحملوا تلك التي تنتظرهم بعدها، ألا وهي مرارة الساعة، وما

أمرّها وأدهاها!

**سرعة الالتفات:**

ثم الذي يزيد من شأن هذه الآيات ويرفع من مستواها الأدبي البلاغي هو سرعة الالتفات، سرعة الالتفات مع عجيب الاستدراج، سرعة الالتفات من الغيبة إلى الخطاب ثم إلى الغيبة حيث قال تعالى:

﴿ولقد جاء آل فرعون النذر. كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر. أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة في الزبر؟ أم يقولون نحن جميع منتصر. سيهزم الجمع ويولون الدبر. بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر﴾.

علماً بأننا لأول مرة نرى في تلك السورة هذا الخطابَ المباشر إلى الكفار، نراه بعد ما قطعنا ثلاثة أرباع السورة ودخلنا في الشوط الأخير منها.

ثم هذا الخطاب يفاجئهم بسرعة مذهلة ويمضي بحيث يتحرك له الوجدان، وتهتز له المشاعر، فما هو السرُّ في هذه المفاجأة المذهلة، أو هذا التحول السريع يا ترى؟

ما نظن هذا السؤال تمكن عليه الإجابة إلا بعد إمعان النظر في نظام تلك الآيات.

لقد أسلفنا أن الله راعى في تلك القصص نوعاً عجيباً من الاستدراج، فما يكاد السامع ينتهي من تلك القصص ـ بشرط أن لا يكون مطموساً ـ إلا وهو يتوجّس الروع ويُدَاخله الفزعُ من حيث لا يشعر، ويجد نفسه مدفوعاً مضطراً إلى أن يراجع سلوكه ويفكر فيما يؤول إليه أمره.

وهنا ينتهز السياق تلك الفرصة السانحة، ويوجّه إليه هذا السؤال بسرعةٍ كسرعةِ البرق، حتى يكون ذلك له معواناً على مراجعة نفسه:

﴿أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة في الزبر﴾؟!

علماً بأنه لم يكن مهيّئاً نفسياً قبل هذا حتى يوجه إليه هذا الخطاب المباشر.

هذا، وكان هناك وراء هؤلاء الجماهير فريق من قادة الكفر، الذي قد بلغ من السمود غايته، ولم يكن مهيّئاً بعد حتى يوجه إليه الخطاب المباشر فإنه على الرغم من

هذا القرع المزلزل العنيف مُصِرٌّ على سموده واستكباره، نشوان ثمل من قوته وشدة بطشه، ويتلوى ويتبجّح في غروره:

«على أية حال، فنحن جميع منتصر!».

وهنا يبادر النص القرآني بردّ هذا الغرور في وجه أصحابه مع الإعراض عنهم:

﴿أم يقولون نحن جميع منتصر. سيهزم الجمع ويولون الدبر. بل الساعة موعدهم. والساعة أدهى وأمر﴾!

ولا شك أن هذا الإعراض يزيد أحياناً في شدة الوعيد ويكون أوقع في النفس وأنجع في التقريع.

ومما يشير إلى هذا الفرق أن السياق لا يقول في آية الخطاب:

«أيها الكفار، أأنتم خير أم أولئكم»؟

بل يعدل عنه إلى قوله:

﴿أكفاركم خير من أولئكم﴾؟

وعلى هذا، فيكون تأويل الآية كما يلي:

أيها الناس، هل ترمقون قادتكم وطواغيتكم هؤلاء؟ أهم خير وأقوى من أولئكم الذين سُحِقوا قبلهم ودُمِّرُوا؟ وهل ترون هؤلاء يفلتون من عذابنا إذا أُخذوا وحُوسبوا؟ وإلا فكيف أخذتم طريقهم وربطتم مصيركم بمصيرهم؟ أم هل تحسبون أن ربكم كتب لكم صك العفو والغفران وصك البراءة من النيران، وأعطاكم «الرخصة» للفجور والعصيان؟!

**براعة الترجيع:**

نرجع مرة أخرى إلى القصص، ونتأمل من خلالها في ترجيع قوله تعالى: ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾؟

فقد رُجِّعت هذه الآية في تلك السورة أربع مرات، رُجِّعت بعد كل مشهد من

مشاهد المَثُلات. . فما الفائدة من هذا الترجيع يا ترى؟ وهل يضيف هذا الترجيع شيئاً جديداً إلى موحيات هذه السورة؟ وهل له دور ملحوظ ملموس في جمال السورة وفي إيقاعاتها؟ أم هو تكرار محض وليس وراءه شيء ملحوظ مذكور يتّصل بجمال السورة وموحياتها؟

تلك أسئلة وجيهة هامّة تفرض علينا أن نمعن النظر في نظام الآيات، فإن الجواب عنها يكمن في نظامها، ومن أراد الإجابة عليها ساهياً عن نظامها، فلا نظن أنه يختلف في جوابه عن الإمام الشوكاني حيث يقول:

«لعلَّ وجه تكريرِ تيسيرِ القرآنِ للذكر في هذه السورة الإشعارُ بأنه مِنَّةٌ عظيمة لا ينبغي لأحد أن يغفل عن شكرها»[1].

بينما التأمل في نظام تلك الآيات لا يدعنا نقف عند هذا الحد الأدنى، بل يفتح أمامنا آفاقاً واسعة في الموضوع، وَيَشخِّصُ لنا جمالَ هذا الترجيع، ويشخص لنا بلاغته وإعجازه من عدة وجوه، وهي كما يلي:

١ ـ هذا الترجيع يسبغ على تلك المشاهد الرهيبة المخيفة المفزعة ثوباً ضافياً فضفاضاً من الرقة والعذوبة والرحمة، فنشعر كلما ينتهي مشهد من هذه المشاهد المرجفة كأن ربنا تجلّى لنا في موكب الرأفة والمودة والحنان، وهو يحذرنا أن نتورّط فيما تورّط فيه أولئك المتمردون من الخزي والعذاب والخسران، ويناديا بحنوٍّ وتأكيد وإصرار:

﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر﴾؟ ﴿ولقد يسّرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر﴾؟

٢ ـ هذا الترجيع ـ بما فيه من تكرار ضمير الجلالة: (نا) ـ يبيّن لنا مدى رأفة اللّه بعباده، ويقرّبنا إليه ويقرّبنا حتى يجعلنا نستشعر كأننا في كَنَفِ ربنا، ويرنُّ صوته في آذاننا، وهو يدعونا وينادينا:

---

(١) فتح القدير: ج٥ ص ١٢٧.

«هل من مدّكر؟ هل من مدّكر؟».

٣ ـ هذا الترجيع يجعل كل حلقة من تلك الحلقات مشهداً مستقلاً بنفسه، ويبرز كلاًّ منها وهي وحدها يكفي للعِظة والتذكار، وكم كان اللّه بعباده رحيماً، وكم كان عليهم حنوناً إذ قصّ عليهم تلك القصص تباعاً، حتى لو تفوتهم قصة تُوقِظهم أخرى.

ولقد صدق نبينا ـ عليه السلام ـ إذ قال: «ولا يَهلكُ على اللّه إلا هالك».

٤ ـ هذا الترجيع يجعل كل حلقة من تلك الحلقات متميزة من صاحبتها، ويجعل لكل واحدة منها إيحاءً يخصُّها ويدعونا إلى أن نُطيل المُكْثَ عند كل واحدة منها ونستوعب إيحاءاتها.

ثم إذا رجعنا إلى تلك الحلقات وعشنا مع تلك الآيات المباركات وتأملنا فيها من هذه الناحية وجدناها كذلك، وسنفصل فيه القول بإذن اللّه.

فلننظر كيف كشف لنا التأملُ في نظام تلك الآيات عن نواحي الجمال والروعة والإشراق في هذا الترجيع والآن، فلا نبالغ إذا قلنا:

إن هذا الترجيع تعرّض في تلك السورة «تعرض أثناء الوشاح المفصّل»، وإن شئتَ فقل: إنه يتلألأ فيها كما تَلألأُ الثريا في كبد السماء، وإن شئت فقل: إنه قد منح تلك السورة حياة شاخصة وحركة متجددة، فجعلها شاخصة حاضرة، فيها الحياة وفيها الحركة.

**تميز وتماثل:**

والآن نأتي لنرى تميز تلك القصص في إيحاءاتها مع تماثلها في جوّها وصياغتها، وتلك ناحية عجيبة من بلاغة أسلوب القرآن، وما يفطن لها إلا من كان مهتمّاً بنظام الآيات، وكان عاكفاً على التأمل فيها والتشبع بعلومها وكنوزها، فنقول وباللّه التوفيق:

القصة الأولى ـ وهي قصة قوم نوح ـ يغلب عليها لونُ رعايةِ اللّه لعباده الأنبياء، ألا ترى كيف بدأ القصة بقوله: «فكذَّبُوا عبدَنا».

ولا ندري كيف نعبّر عما تفيضُ به كلمة «عبدنا» من حفاوة ومودّة تأخذ القلوب

وتملك الشعور، وخاصة في هذا الجو الخانق المكروب إذ «قالوا مجنونٌ وازْدُجِرْ».

ثم نلاحظ كذلك أنه ما تتحرك شفتا نوح بإظهار ضعفه وعجزه أمام ربّه، حتى يسرع إليه ربه بعطفه ورعايته، ويحرّك له الكون كلّه للانتصار من أعدائه:

﴿فدعا ربه أني مغلوب فانتصر. ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر. وفجرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر﴾.

ولننتبه لضمير الجلالة هنا: «ففتحنا» و«فجّرنا»، فإن التصريح بضمير الجلالة هنا يشعر أنه ـ تعالى ـ قد تولى أمر نوح بنفسه، ولم يُسنده إلى غيره اهتماماً بشأن عبده!

ثم نرى نوحاً يَحملُه ربُّه على ذاتِ ألواحٍ ودُسُر، يحمله بنفسه! لا يكلّف به غيره، يحمله ربّه على ذات ألواح ودسر، وهي تجري بأعينه وفي ظلّ رعايته!

وكان هذا جزاء وإكراماً لمن كفرَ به قومُه، فأكرمه ربّه وأسبغ عليه فضله:

﴿وحملناه على ذات ألواح ودسر. تجري بأعيننا. جزاء لمن كان كُفر﴾.

والمراد «بذات ألواح ودسر» هو السفينة كما هو معروف، إلاّ أنّ النصّ القرآني يعدل عن كلمة السفينة إلى كلمة «ذات ألواح ودسر» حتى يصوّر لنا ذلك المشهد الفذّ الجميل، ويجعله حاضراً شاخصاً أمام أعيننا.

فنشعر كلّما نتلو هذه الآية الكريمة كأننا واقفون أمام تلك الألواح، وهي تحمل نوحاً في رعاية ربّه، والأمواج الصاخبة حوله لا تستطيع أن تصل إليه، فإنه في رعاية ربّه، وربُّه يرعاه بنفسه!

وهكذا نرى السياق يبرز في هذه القصة مشهدَ الحماية والرعاية والكرامة، وأما المشهد الأخير ـ وهو مشهد الإهلاك والإغراق ـ فيطويه طياً ويكتفي بالإشارة إليه: «فالتقى الماءُ على أمرٍ قد قُدر».

ثم تأتي الحلقة الثانية: قصة قوم عاد، وتلك القصة بأكملها تمثّل سوء عاقبة المستكبرين كما أن القصة الأولى كانت عبارة عن تأييد اللّه للمرسلين.

فهي تنذر مَنْ يغترُّ بقوته أنّه سَيُصرع صرعاً فظيعاً وما يستطيع من قيام ولو لطرفة

عين، فإنّ جنود الله الجبارين يمرّغون أنوفَ المستكبرين في التراب مهما بلغت قوتهم، ويلصقون جباههم بالرغام مهما عظمت شوكتهم، فتلك عاد شمخوا بأنوفهم أمام ربّهم ﴿وَقَالُواْ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]، فسلط الله عليهم ريحاً صرصراً عاتية، فألقتهم صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية:

﴿كذبت عاد فكيف كان عذابي ونذرِ؟ إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في يوم نحس مستمر. تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر. فكيف كان عذابي ونذر؟﴾.

فنرى السياق يذكر هلاكهم الفظيع بكل سرعةٍ وإيجاز وينتهي، ولا يتعرض لشيء بعده، ثم تأتي الحلقة الثالثة: قصة ثمود، وهي وإن كانت في لونها العام شبيهة بقصة عاد، إلا أنها متميزة عنها من جهة، فإنها تحذيرٌ للكافرين على طلبهم آيةَ العذاب، وتنبيهٌ إلى أن الأمة إذا طلبت آية العذاب، ثم هتكت حرمتها، فلا تمهل بعدها، فالآية دائماً تكونُ حسرةً وندامة في حقٍّ من يطلبها، ويكون موعد ظهورها هو موعد هلاك تلك الأمة:

﴿كذبت ثمود بالنذر. فقالوا أبشراً منا واحداً نتبعه. إنا إذا لفي ضلال وسعر. أألقى الذكر عليه من بيننا؟ بل هو كذاب أشر. سيعلمون غداً من الكذاب الأشر. إنا مرسلو الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر. ونبئهم أن الماء قسمة بينهم. كل شرب محتضر. فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر. فكيف كان عذابي ونذر! إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر. ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر؟».

ثم تأتي الحلقة الرابعة: وهي قصة قوم لوط، وهي وإن كانت شبيهة بقصة قوم نوح على طريق العود على البدء إلا أنها متميزة عنها حيث أنها تبشر بتنجية المؤمنين كافةً وتنادي بِحُسْنِ جزاءِ الشاكرين قاطبةً، إنها تصرح بتنجية آل لوط كلّهم ولا تقتصر على ذكر نجاة سيدنا لوط وحده، علماً بأن القصة الأولى لا تذكر إلا نجاة سيدنا نوح:

﴿وحملناه على ذات ألواح دسر﴾.

وكذلك تناولت هذه القصة هلاك المجرمين بنوع من التفصيل بينما القصة الأولى لم تتناوله بتفصيل، وإنما أشارت إليه إشارة سريعة خاطفة:

﴿كذبت قوم لوط بالنذر. إنا أرسلنا عليهم حاصباً إلا آل لوط. نجيناهم بسحر. نعمة من عندنا كذلك نجزي من شكر. ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر، ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابي ونذر. ولقد صبّحهم بكرة عذاب مستقر. فذوقوا عذابي ونذر﴾.

ثم تأتي الحلقة الخامسة: وهي قصة آل فرعون، وهذه القصة تنبّه إلى أن وفرةَ العتاد والأوتاد أو كثرة الجيوش والجنود لا تغني من ذي الجلال والجبروت، فإنه يقصف الطغاة، ويأخذهم أخذ عزيز مقتدر:

﴿ولقد جاء آل فرعون النذر. كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر﴾.

إلا أن هذه الحلقة تختلف عن أخواتها، بحيث أنها ليست ـ في الحقيقة ـ حلقة مستقلة، وإنّما هي معبرة لطيفة للتخلص من حديث الغابرين إلى واقع الحاضرين.

ولذلك ترى الآذان والأذهان تنتظر بعد ذكر آل فرعون ذلك الترجيع المألوف: ﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر؟﴾.

فإذا بها قد فوجئت بسؤال يهزُّ الوجودَ ويرجف القلوب:

﴿أكفاركم خير من أولئكم؟ أم لكم براءة في الزبر؟ أم يقولون نحن جميع منتصر؟ سيهزم الجمع ويولون الدبر. بل الساعة موعدهم. والساعة أدهى وأمرّ!﴾.

وقد نستأنس لما قلنا عن هذه الحلقة الأخيرة، من أنها ليست في الحقيقة حلقة مستقلة، وإنما هي معبرة لطيفة للتخلص من حديث الغابرين إلى واقع الحاضرين، قد نستأنس لقولنا هذا بأواخر سورة النجم حيث قال تعالى:

﴿وأنه أهلك عاداً الأولى. وثمود فما أبقى. وقوم نوح من قبل. إنهم كانوا هم أظلم وأطغى. والمؤتفكة أهوى. فغشّاها ما غشى. فبأي آلاء ربك تتمارى؟!﴾.

ومعلوم أن سورة القمر جاءت بعد سورة النجم، وهي تُفَصِّلُ بعضَ أمور أُجملت فيها، ومن ضمنها تلك القصص، فإنها ذكرت في سورة النجم إجمالاً، ثم ذكرت في سورة القمر تفصيلاً.

فنرى سورة النجم لا تزيد على أربع أمم، وهي الأمم التي ذكرت في سورة القمر تباعاً، ثم نرى سورة القمر تضيف إلى تلك الأمم أمة أخرى، ولكن بإيجاز عجيب سريع وبدون ترجيع.

ولا يظهر لذلك سبب إلا ما أشرنا إليه مسبقاً، وهو أن السياق جعل من تلك القصة معبرة لطيفة للانتقال من حديث الغابرين إلى واقع الحاضرين بشكل مفاجىء وقويّ.

ولو كان هذا الانتقالُ بعد الترجيع لم نر السياقَ يفيضُ بتلك القوة، وبتلك الشدة، التي تكاد تُلمَسُ بالراح، فإن هذا الترجيع ـ كما بيّناه آنفاً ـ يصرف الكلام من القسوة إلى اللين، ويصبغ الجوّ بلون الرأفة والرقة.

وأيضاً لو كان الانتقال مع الترجيع لأصبحت العبارة خِلْواً من تلك المفاجأة، التي تهزّ النفوس هزّاً، وتملؤها خوفاً ورعباً.

ثم هناك ظاهرة أخرى تميّز المشهد الأخير من أقرانه، وهي أن المشاهد الأخرى السابقة جاءت مفصولة بعضها من بعض، بحيث لا يربطها رابط من واو الوصل، فقال تعالى:

﴿كذبت قبلهم قوم نوح... كذّبت عاد... كذّبت ثمود... كذّبت قوم لوط...﴾، بينما نرى المشهد الأخير جاء بواو الوصل حيث قال تعالى:

﴿ولقد جاء آل فرعون النذر﴾.

وتلك لمحة مليحة إلى أن المشهدَ الأخير يختلف عن سائر المشاهد في نوعيته وطبيعته ودلالته، وتلك لطائف عجيبة من لطائف أسلوب القرآن، بحيث يتحرك لها الوجدانُ وتهتزُّ لها حاسة البيان، ولا يمكن العثور عليها ـ كما لا يخفى ـ إلا بعد ترداد النظر في تصاريف النظام.

### براعة الترتيب في القصص:

لا يخفى على الباحث المتأمل أن القرآن ليس له عادة معلومة، أو قاعدة مطّردة

في ذكر القصص والأخبار، بل له في ذلك مناحٍ وأساليب في غاية الدقة.

فأحياناً يسرد القصص سرداً حسب ترتيبها في الزمان، وأخرى يعدل عنه إلى ترتيب آخر تقتضيه حكمة البيان.

نأخذ ـ مثلاً ـ سورة الصافات، فقد جاء فيها ذكر الرسل وذكر أقوامهم على غير ترتيبهم في الزمان، فذكر السياق أولاً نوحاً وقومه فقال:

﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ * وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الصافات: ٧٥ ـ ٧٦].

ثم ذكر إبراهيم وقومه فقال:

﴿ ۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ * إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴾ [الصافات: ٨٣ ـ ٨٥].

ثم ذكر موسى وهارون وقومهما فقال:

﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ * وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الصافات: ١١٤ ـ ١١٥].

ثم ذكر إلياس وقومه فقال:

﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [الصافات: ١٢٣ ـ ١٢٤].

ثم ذكر لوطاً وقومه فقال:

﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ * إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ * ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴾ [الصافات: ١٣٣ ـ ١٣٦].

ثم ذكر يونس وقومه فقال:

﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ * إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴾ الخ [الصافات: ١٣٩ ـ ١٤٠].

وكذلك نرى في سورة الذاريات، فقد ذكر فيها الأنبياء وقومهم على غير ترتيبهم

في الزمان، فذكر السياق أولاً إبراهيم وقوم لوط فقال:

﴿قال فما خطبكم أيها المرسلون؟ قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين لنرسل عليهم حجارة من طين﴾.

ثم ذكر فرعون وجنوده فقال:

﴿وفي موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسلطان مبين، فتولى بركنه وقال ساحر أو مجنون﴾.

ثم ذكر عاداً فقال:

﴿وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم﴾.

ثم ذكر ثمود فقال:

﴿وفي ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين﴾.

ثم ذكر قوم نوح فقال:

﴿وقوم نوح من قبل. إنهم كانوا قوماً فاسقين﴾.

وهكذا نرى القرآن لا ينهج في ذكر الأنبياء وقومهم منهجاً معيّناً مرسوماً، بل ذكرهم، إذا ذكرهم، بترتيب خاص توحيه الحكمة الحكيمة، وتقتضيه البلاغة العالية المعجزة.

وتلك الحكمةُ وتلك البلاغة لا يُهتدى إليها إلا بعد رجع الفكر وتَردادِ النظر والإقامة الطويلة الواعية المتأنية على نظام الآيات.

ولا يسعنا هنا أن نتناول بالنقاش جميع تلك الآيات، فنرجع إلى ما كنا فيه من سورة القمر، ولنمعن النظر في ترتيب قصصها عسى أن ندرك ما فيه من الحكمة الحكيمة والبلاغة العالية السامقة.

من المعلوم أن هذا الترتيب الذي نلاحظه في هذه السورة جاء على وفق الزمان، فذكر السياق أولاً قوم نوح، ثم عاد، ثم ثمود، ثم قوم لوط، ثم آل عمران.

ولا شك أننا إذا مررنا على مصارع هؤلاء الأحزاب هكذا، على ترتيبهم في الزمان، حيث يتبع بعضهم بعضاً، تَمَثَّلَتْ لنا سنةُ اللّه التي عملت عملها دائماً، وغلبَ على حِسِّنا أن أية أمة من الأمم ـ على مدار التاريخ ـ لما ركبت مركب الكفر والمعصية، ذاقت وبال أمرها، وكان عاقبة أمرها خسراً.

فهذا النظم له دور بارز ملموس في إعداد هذا الجو الرهيب المفزع.

والآية التالية لتلك القصص، قد نجد فيها نوعاً من التأييد لهذا القول.

فإنه لما تهيّأ هذا الجو، وتمكّن من القلوب الرَّوعُ، تقدّمَ النصُّ خطوة أخرى، وهزّ أعداء اللّه هزّاً:

﴿أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة في الزبر؟﴾.

أي: إذا كانت تلك سنةُ اللّه في الأمم، وكانت سنةً قائمة دائمة على مرّ الزمان، بحيث لم تركب أمة من الأمم هذا المركب الخشن إلا جَنَتِ الندمَ، ودارت عليها دائرة المحن، فما بالكم يا طغام الأحلام، حتى أمنتم على أنفسكم، وتجرأتم على ربكم؟!

أأنتم خير من أولئكم، فلا تَمَسّكم نفحة من عذاب ربكم؟ أم كتب لكم ربكم «صك» البراءة والغفران، فلا تقطفون ثمار كفركم وإنكاركم؟!

ولمثلِ هذا النظم نظائر أخرى في القرآن، فالأمر ليس بحاجة إلى أن نفيض فيه الكلام، ونقيم عليه البرهان.

**براعة المقطع:**

وأخيراً نأتي على مقطع السورة، فإنه غاية في الحسن والروعة:

﴿إن المتقين في جنات ونهر. في مقعد صدق عند مليك مقتدر﴾.

ولكي ندرك روعة هذا المقطع لا بد لنا من أن نضع في اعتبارنا ذلك الجو الرعيب المكفهرّ، الذي يسود السورة، والذي مررنا عليه قبل قليل.

ويزداد هذا الجوّ تجهّماً ويشتدّ حين تستقبلنا هذه الآيات:

﴿إن المجرمين في ضلال وسعر. يوم يسحبون في النار على وجوههم. ذوقوا مسّ سقر. إنا كل شيء خلقناه بقدر. وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر. ولقد أهلكنا أشياعكم هل من مدكر؟ وكل شيء فعلوه في الزبر. وكل صغير وكبير مستطر﴾.

يا لهولِ المصير!! ويا لخطورة الموقف!!

﴿كل شيء فعلوه في الزبر وكل صغير وكبير مستطر﴾.

فكأن هذا العذاب البئيس، الذي دمّرهم ومزّقهم وجعلهم كهشيم المحتظر، لم يُحسبْ في حسابهم ولم يُنقِصْ من أوزارهم، بل كل صغير وكبير مسطور في زبر أعمالهم، وهم سيحاسبون عليه واحداً بعد واحد.

والنتيجة واضحة معلومة، فهم يُسحبون في النار على وجوههم، وكل شيء حولهم يَسْخَرُ منهم ويُقَرِّعهم: ﴿ذوقوا أيّها السامدون، ذوقوا مسّ سقر﴾!

في مثل هذا الجوّ العبوس القمطرير ترد هاتان الآيتان:

﴿إن المتقين في جنات نهر. في مقعد صدق عند مليك مقتدر﴾.

يا لروعة هذه الكلمات في هذا الجوّ المكفهرّ القاتم! فلعمري إنها لأروعُ من كوكب درّي كريم يضيء في ليلٍ بهيم، وهي أغلى في نفس المؤمن من كل كنز ثمين، ومن كل متعة ونعيم.

وتزداد روعة هذا المقطع وترتفع حين نتوسع قليلاً، ونتنسم وجوه الارتباط بين هذه السورة وبين جارتيها القريبتين: سورة النجم وسورة الرحمن.

فسورة النجم ـ كما يظهر من سياقها ـ ردٌّ وإبطال للشفاعة الباطلة، التي كان يحلم بها المشركون، فإنهم كانوا يعبدون اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، وهي كانت ـ عندهم ـ أسماء الملائكة، وقد سموّهم تسمية الأنثى زاعمين أنهم بنات الله! والعياذ بالله.

وكانوا يزعمون أنهم بعبادتهم هذه سيكسبون رضاهم، فهم يشفعون لهم عند الله، ويدفعون عنهم البلاء والشقاء، ويحملون عنهم أثقالهم وأوزارهم يوم القيامة.

فجاءت تلك الآيات تفنّدهم فيما زعموا، معتمدين على الظنّ والهوى:

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ * وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ * أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ * إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ * أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ * فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ * ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ * إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ * وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [النجم: ١٩ ـ ٢٨].

ثم نبّههم السياقُ أن الله هو الذي يملك الأرض والسماء، وهو المتصرف في الكون، يتصرف فيه كيف يشاء.

ثم هو الذي يتولى بنفسه الجزاء، فليس لأحد أن يتدخل في قضائه إذا قضى.

﴿أم لم ينبأ بما في صحف موسى وإبراهيم الذي وفّى. أن لا تزر وازرة وزر أخرى. وأن ليس للإنسان إلا ما سعى﴾.

والتاريخ حافل كافل بالمواعظ والعبر لمن أراد أن يعتبر، فقد مضت أمم لم تتعلق بأهداب العمل، وزعمت أن هناك من يشفع لها عند الله، فجرّت أذيال اليأس والشقاء، وما أغنت عنها ولاية الأولياء، أو شفاعة الشفعاء، ألم يشهد التاريخ:

﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ * وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ * وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ * وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ * فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ﴾ [النجم: ٥٠ ـ ٥٤].

فأين كان أولئك الشفعاء، إن كانوا يملكون الشفاعة، أو كانوا يستطيعون لهم ضراً أو نفعاً؟

ثم جاءت سورة القمر، وفَصّلت تلك المصارع بأسلوب ينطق بقدرة الله وملكه وتفرده بالسلطان دون غيره، فله المُلكُ وله الحكم، يحكم ما يشاء ويفعل ما يريد، يبطش بالطغاة وينتصر من البغاة، ويأخذ من يشاء أخذَ عزيز مقتدر.

ثم هذا ليس نهاية المطاف، بل الساعةُ موعدُهم والساعة أدهى وأمرّ، فهم

يسحبون في النار على وجوههم ولا يجدون لديهم من يشفع لهم أو يخفف من عذابهم.

وأما المتقون، فهم ينعمون ويفرحون وهم اليوم في شغل فاكهون:

﴿في جنات ونهر. في مقعد صدق عند مليك مقتدر﴾.

فاليوم يومهم والمليك مليكهم.

فهم اليوم في عزٍّ وسرور، وسعادة وحبور.

والمليك يتوّجهم بتاجِ العزّ والكرامة، ويخلع عليهم حُلَلَ الشرف والسعادة.

ويرفع من شأنهم ويرفع، حتى يُجلِسَهُمْ حول عرشه، وينزلهم في كنفه.

فإنهم عرفوا لصاحب الملك ملكه، وخشعوا له وسجدوا، وأُوذوا في سبيله فصبروا، وقاتلوا وقُتلوا، وأما الذين عدلوا عن المليك، وتعلقوا بأهداب الشفعاء، فلهم الويل كل الويل، فإنّهم أسخطوا المليك، ولم ينفعهم البديل.

وما أروع مشهد المتقين حيث ينعمون ﴿في جنات ونهر. في مقعد صدق عند مليك مقتدر﴾.

ما أروع هذا المشهد إذا قسناه إلى مشهد الكفار، وهم يُسحبون على وجوههم، ويُعتلون إلى نيرانهم، وكأن الملائكة الذين كان يحلم هؤلاء بشفاعتهم يتبرّؤون منهم ويعنّفونهم:

﴿ذوقوا مس سقر﴾!

ثم تدهشنا روعة هذا المقطع من ناحية أخرى، إذا قسناه إلى سورة «الرحمن».

وبيانه أن سورة القمر تَطفحُ بلهيب الإنذار، وتَجيشُ بغضبِ الجبّار، فد تكررت فيها كلمة «النذر» و«الإنذار» اثنتي عشرة مرة وتكررت كلمة «العذاب» سبع مرّات.

وهذا شيء يخصّ سورة القمر، دون سائر السور، حيث لم تتكرر هاتان الكلمتان بهذا الشكل في أية سورة من السور، ثم تجيء سورة الرحمن، وهي سورة تلوّنها الرحمة والنعمة والإنعام والإحسان، حيث إنها استهلّت بكلمة «الرحمن»، وتنفست في

ذكر آلاء الرحمن، حتى أن كلمة الآلاء تكرّرت فيها إحدى وثلاثين مرة.

ثم نِصْفُها الأخير كلها روح وريحان، وحور وجِنان، وبرد وسلام، وإنعام وإكرام.

فلننظر هذا المقطع كيف جمع بين الغايتين المتنائيتين، وأصبح معبراً لطيفاً انتقل عليه الكلام من لهيب الإنذار إلى آلاء الرحمن.

تلك إشارات سريعة عجلى إلى محاسن السورة وروائعها البلاغية، وكلّها مُستنبطة ـ كما لايخفى ـ من نظام الآيات، فللّه الحمد وله المنة على ما هدانا إليه وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا اللّه.

ولعل هذا القدر من الكلام يكفينا لإدراك ما نحن بصدده من أن هناك جوانب وأطرافاً من البلاغة القرآنية المعجزة لا يطَّلع عليها إلا مَنْ يُدمنُ النظرَ في نظام الآيات، ويلتمس الوشائج التي تربط المعاني بعضها برقاب بعض.

ومما يروى في كتب السيرة أن أبا سفيان ابن حرب وأبا جهل بن هشام والأخنس بن شريق، خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول اللّه ـ ﷺ ـ وهو يصلي من الليل في بيته، فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه، وكلٌّ لا يعلمُ بمكان صاحبه.

فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريقُ فتلاوموا، وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً».

ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثانية، عاد كل رجل منهم إلى مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة، ثم انصرفوا.

حتى إذا كانت الليلة الثالثة، أخذ كل رجل منهم مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض: لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعودَ، فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا[1].

---

(١) الروض الأنف للسهيلي: ج٢ ص٦٦.

لقد كانت تمرّ بنا تلك القصة وأمثالها في كتب السيرة، فكنا نَتحيَّرُ كيف كان يحرصُ هؤلاء الأعداء على سماع القرآن مع شدة عداوتهم وحنقهم على الإسلام؟ وما الذي كان يسوقهم إليه سوقاً في جنح الظلام؟ وكيف كانوا يُؤخذونَ بروعةِ آياتهِ وجمال أسلوبه؟ مع أن العداوة تعمي العيون وتصمّ الآذان.

ولكن لم يطل بنا الزمان، حتى تعرفنا على فكرة النظام، فانقشعت عنّا الحيرة، وعرفنا أنّ هذا القرآن ينطوي في نظام آياته ورباط معانيه على عالم عجيب من الروعة والجمال، بحيث لا يكاد يصبرُ عنه مَنْ يتذوقُ اللسان، ولو قد جعلته العداوة من أعمى العميان.

فسبحان ربنا الرحمن، الذي كرّمنا بهذا القرآن، وفضلّنا به على سائر الأقوام.

* * * * *

# الفصل السابع
# المزية السابعة

رعاية النظام تفتح على الدارس ما تقرّ به عينه ويستنير به قلبه، وتورثه برد اليقين، الذي لا يتزلزل ولا يتزعزع.

**الشاهد على هذه الميزة:**

ويشهد له ما رواه أصحاب السير في تَصلُّبِ أبي بكر وإصراره على قتال قوم امتنعوا من أداء الزكاة، مع أن فضلاء الصحابة لم يوافقوه أولاً فيما قرّر، وأرادوا صرفه عنه إلى اتخاذ موقف الملاينة معهم، ولكنه رضي اللّه عنه لم يعبأ بخلافهم، وصمّم على إقامة علم الجهاد، ونظّم جيشاً كبيراً لتأديب هؤلاء المارقين، وإليك ما رواه ابن كثير في هذا الموضوع:

«وجعلت وفود العرب تقدم المدينة، يقرون بالصلاة ويمتنعون من أداء الزكاة ومنهم من امتنع من دفعها إلى الصدِّيق...

«وقد تكلم الصحابة مع الصديق في أن يتركهم وما هُمْ عليه من منع الزكاة، ويتألفهم حتى يتمكن الإيمان في قلوبهم، ثم بعد ذلك يزكون، فامتنع الصديق من ذلك وأباه.

وقد روى الجماعة في كتبهم سوى ابن ماجه عن أبي هريرة أن عمر بن الخطاب قال لأبي بكر:

علامَ تقاتلُ الناسَ؟ وقد قال رسول اللّه ـ ﷺ ـ:

أُمرتُ أن أقاتلَ الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا اللّه وأن محمداً رسول اللّه، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها.

فقال أبو بكر:

واللّه لو منعوني عناقاً ـ وفي رواية عقالاً ـ كانوا يؤدونه إلى رسول اللّه ـ ﷺ ـ لأقاتلنهم على منعها، إن الزكاة حق المال، واللّه لأقاتلن مَنْ فَرَّقَ بين الصلاة والزكاة»[1].

ولا يمكن تفسير هذا الموقف الصارم الجازم، الذي وقفه أبو بكر في شأن مانعي الزكاة ـ مع كونه وحيداً متفرداً برأيه ـ إلا بأنه كان يعتمد في رأيه هذا على نظم القرآن، فإذا ثبت له شيء من نظم القرآن فماذا يضيره إن بقي وحيداً متفرداً لا يوافقه أحد من الناس!

ولقد أشار ـ رضي اللّه عنه ـ إلى سبب إصراره على موقفه مع عدم تأييد الناس له، فقال:

«واللّه لأقاتلن مَنْ فَرَّق بين الصلاة والزكاة».

أي: ما يكونُ لنا أن نفرق بين الصلاة والزكاة، ما دام أن اللّه لم يفرق بينهما في وَحْيِه بل قرن بينهما في تنزيله.

فإذا كان المُصِرُّ على تركِ الصلاة يعتبر خارجاً عن الإسلام، وكان مباح القتل فلا بد أن يُطبَّقَ نفسُ الحكم على من يُصِرُّ على منع الزكاة، ولا بدّ أن يُنظرَ إليه بتلك النظرة الصارمة الجازمة، فإنه لا يعقل أن يفرق بينهما في الحكم وقد جمع اللّه بينهما في الذكر.

فسيدنا أبو بكر استلهم موقفه من نَظْمِ القرآن، ولا شك أنه كان في يومه ذاك أعلم الناس وأدراهم بدلالات نظم القرآن.

---

(١) البداية والنهاية: ٦/ ٣١١.

وهذا الشيء أورثه الثقة بصحة رأيه وسداد خطوته، وأورثه برد اليقين، الذي لا يزول ولا يتزلزل عن مكانه.

**شاهد آخر:**

ونرى مثل هذا الوضع في سقيفة بني ساعدة، حيث اجتمع الأنصار وأرادوا أن يختاروا لهم أميراً منهم حتى قال قائلهم:

«أنا جَذيلها المُحَكَّك وعذيقها المُرجَّب، مِنَّا أميرٌ ومنكم أمير يا معشر قريش»(1).

حتى كَثُرَ اللغطُ واحتدَّ النقاش، وكاد أن يتفاقم الأمر ويتّسع الخرق.

في مثل هذا الوضع الدقيق والموقف الخطير قام فيهم سيدنا أبو بكر حتى يتداركهم قبل فوات الأمر، فقال فيما قال:

«أيها الناس، نحن المهاجرون، أولُ الناس إسلاماً... أسلمنا قبلكم وقُدِّمْنَا في القرآن عليكم فقال تبارك وتعالى:

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ [التوبة: ١٠٠]، فنحن المهاجرون وأنتم الأنصار، إخواننا في الدين وشركاؤنا في الفيء»(2).

فاستنبط سيدنا أبو بكر أولويةَ المهاجرين وأَحقِّيتهم بالإمارة من نظم القرآن فقال: «وقُدِّمنا في القرآن عليكم».

فظهر له الأمرُ كفلقِ الصبح، فاقتنع وأقنع، وأيقن وأيقن معه الجميع، وخفتت أمامَ صوتهِ الهادىء العادل جميعُ تلك الأصوات التي كادت تشوّش الأذهان، وكادت تُنفِّرُ القلوب وتُشَتِّتُ النظام.

وأصبح هذا القولُ المستنبط من نظم القرآن هو القولُ الفيصل الحاسم لبوادر الخلاف.

---

(1) الروض الأنف للسهيلي: ٤ / ٢٦٢.

(2) جمهرة خطب العرب: ١ / ٦٣.

فاجتمع عليه الناس، واجتمعت عليه الأنصار، واستقر عليه الأمر، ونامت تلك الفتنة إلى الأبد.

وأيقن الأنصار بما استلهمه أبو بكر من نظم القرآن بحيث لم يتزلزل يقينهم هذا ولم يتزعزع، فلم يعودوا لِمَا قالوه أول مرة، ولم يعودوا لتلكم الخلافات أبداً.

هذان مثلان، وفيهما كفاية ومقنع.

ولو شئنا لأوردنا بخصوص تلك المزية أمثلة أخرى، يتلو بعضها بعضاً، ولكن ليس من الرأي أن نستنفد الجهد، وقد صرّح المحض عن الزبد.

* * * * *

# الفصل الثامن
# المزية الثامنة

رعاية النظام تُمكِّنُ من فهم أسباب النزول، والذي يغفل عنه يتحيّر في فهمها، ويضعها في غير موضعها، ثم يتحير في تأويل الآيات وتفسيرها.

وبيان ذلك أن أسباب النزول، التي وصلت إلينا عن طريق الرواية لا تكون دائماً هي السبب الحقيقي لنزول الآية، بل كثيراً ما تكون تطبيقاً للآية على الواقع.

**أقوال في سبب النزول:**

يقول الإمام الزركشي في البرهان:

«وقد عُرف من عادة الصحابة والتابعين أن أحدهم إذا قال: نزلت هذه الآية في كذا، فإنه يريد بذلك أنها تتضمنُ هذا الحكمَ، لا أن هذا كان السبب في نزولها، وجماعة من المحدثين يجعلون هذا من المرفوع المسند كما في قول ابن عمر في قوله ـ تعالى ـ: ﴿نساؤكم حرث لكم﴾، وأما الإمام أحمد فلم يدخله في المسند وكذلك مسلم وغيره، وجعلوا هذا مما يقال بالاستدلال وبالتأويل، فهو من جنس الاستدلال على الحكم بالآية، لا من جنس النقل لما وقع»[1].

ويقول الإمام ابن تيمية:

(قولهم «نزلت هذه الآية في كذا»، يُرادُ به تارةً أنه سببُ النزول، ويراد به تارة أن

---

(١) البرهان في علوم القرآن: ١ / ٣١، ٣٢.

ذلك داخل في الآية وإن لم يكن السبب كما نقول: عنى بهذه الآية كذا.

وقد تنازع العلماء في قول الصحابي: «نزلت هذه الآية في كذا»، هل يجري مجرى المسند كما لو ذكر السبب الذي أُنزلت لأجله، أو يجري مجرى التفسير منه، الذي ليس بمسند؟ فالبخاري يدخله في المسند، وغيره لا يدخله فيه، وأكثر المسانيد على هذا الاصطلاح كمسند أحمد وغيره)[1].

**سؤال في سبب النزول:**

فإذا كانت أسباب النزول بحيث لا تترجمُ دائماً عن السبب الحقيقي لنزول الآية أو السورة، بل كثيراً ما تكون من قبيل التفسير أو التطبيق للآية على ما وقع، فكيف نعرف أحدَ النوعين من الآخر؟ وكيف نحكم على ما نحكم عليه بأنه سببٌ حقيقي لنزول الآية أو السورة، أو من جنس التفسير أو الاستدلال على الحكم بالآية؟

**الرد على هذا السؤال:**

لقد كان هذا السؤال موضع اهتمام الإمام السيوطي فأفاض فيه الكلام، ثم قال:

«تأمل ما ذكرتُه لك في هذه المسألة، واشدد به يديك، فإني حرّرته واستخرجته بفكري من استقراء صنيع الأمة ومتفرقات كلامهم ولم أسبق إليه»[2].

فلننظر كيف عالج السيوطي تلك المشكلة، فإن وثوقه من كلامه يبشّرنا بأنه تغلّب عليها، وجاء لها بحلول ناجحة رائعة. يقول ـ رحمه الله ـ:

١ ـ كثيراً ما يذكر المفسرون لنزول الآية أسباباً متعدّدة، وطريق الاعتماد في ذلك أن تنظر إلى العبارة الواقعة، فإنْ عبّر أحدهم بقوله: نزلت في كذا، والآخر نزلت في كذا، وذكر أمراً آخر، فقد تقدم أن هذا يراد به التفسير، لا ذكر سبب النزول، فلا منافاة بين قولهما إذا كان اللفظ يتناولهما.

---

(١) مقدمة في أصول التفسير: ص ٤٨.

(٢) الإتقان في علوم القرآن: ١ / ٣٤.

٢ ـ وإن عبّر واحد بقوله: نزلت في كذا، وصرّح الآخر بذكر سبب خلافه فهو المعتمد كما قال ابن عمر في قوله تعالى: ﴿نساؤكم حرث لكم﴾، أنها نزلت رخصة في وطء النساء في أدبارهن، وصرح جابر بذكر سبب خلافه، فاعتمد حديث جابر.

٣ ـ وإن ذكر واحد سبباً، وآخر سبباً غيره فقد تكون نزلت عقيب تلك الأسباب كما سيأتي في آية اللعان.

٤ ـ وقد تكون نزلت مرتين كما سيأتي في آية الروح، وفي خوانيم النحل وفي قوله:

﴿ما كان للنبي والذين آمنوا﴾ الآية.

٥ ـ وقد يعتمد في الترجيح النظر إلى الإسناد وكون راوي أحد السببين حاضر القصة، أو من علماء التفسير كابن عباس وابن مسعود.

٦ ـ وربما كان في إحدى القصتين «فتلا» فوهم الراوي فقال: «نزلت»، كما سيأتي في سورة «الزمر»[1].

تلك ست نقاط ذكرها الإمام السيوطي في كتابه «لباب النقول في أسباب النزول»، لعلاج هذه المشكلة، وتلك التي ذكرها في كتابه: «الإتقان في علوم القرآن»[2] مع فرق يسير وشيء من التفصيل.

**نقاط لا تفي بالحاجة:**

ونحن نعترف للإمام السيوطي بفضله وأسبقيّته في هذا المضمار، حيث أنه بذل جهده للتوصل إلى نقاط تساعدنا على حلّ هذه المشكلة وإن كان الأمر ما زال بحاجة إلى بحث ودراسة جادّة، فإن تلك النقاط لا تحسم المشكلة نهائيّاً، ولا تفي بالحاجة إلا نادراً.

---

(١) لباب النقول في أسباب النزول: ص ١٥، ١٦.

(٢) انظر: النوع التاسع معرفة سبب النزول: ١ / ٢٨ ـ ٣٥.

وما أكثر أن تقف دون المشكلة عاجزة.

ولا يمكننا في وقتنا هذا أن ندرس جميع تلك النقاط فلنقتصر في هذه العجالة على واحدة منها، وهي النقطة الثانية.

ولنضف إلى العبارة التي مضت معنا من «لباب النقول» عبارة «الإتقان» حتى يزداد الأمر وضوحاً، يقول ـ رحمه الله ـ:

«إنْ عَبَّرَ واحد بقوله نزلت في كذا، وصرّح الآخر بذكر سبب خلافه فهو المعتمد، وذاكَ استنباطٌ، مثاله ما أخرجه البخاري عن ابن عمر، قال:

أُنزلت ﴿نساؤكم حرث لكم﴾، في إتيان النساء في أدبارهن، وتقدم عن جابر التصريح بذكر سبب خلافه فالمعتمدُ حديث جابر لأنه نقل، وقول ابن عمر استنباطٌ منه، وقد وَهَّمهُ فيه ابنُ عباس، وذكر مثل حديث جابر كما أخرجه أبو داود والحاكم»[1].

وحديث جابر هذا قد رواه الشيخان وأبو داود والترمذي والحاكم ونصه هكذا: كانت اليهود تقول إذا جامعها من ورائها جاء الولد أحول، فنزلت: ﴿نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنّى شئتم﴾.

**تناقض وتعارض:**

هذا وهناك روايات ذكرها الإمام السيوطي نفسه في كتابه: لباب النقول[2] وهي تُنبيء أن ما قاله ابن عمر ليس استنباطاً منه، وإنما هو تصريحٌ بذكرِ سبب خلاف ما ذكره جابر، فإنه لا يفسر الآية من عنده، وإنما يعتمد في قوله على ما حدث فعلاً فنزلت عليه الآية، وعلى هذا فلم يُصِبْ كلامه المحزَّ وانتُقِضَ قولُه بقوله.

ولعل الحافظ ابن حجر كان يريد أن ينبّه على هذه النقطة حيث قال: وهذا السبب

---

(١) ١ / ٣١، ٣٢.

(٢) انظر لباب النقول: ص ٤٣، ٤٤.

في نزول هذه الآية مشهور، وكأن حديث[1] أبي سعيد لم يبلغْ ابنَ عباس وبلغه حديث ابن عمر فوهَّمه فيه[2].

فإذا اجتمع سببان لنزول الآية، وكلاهما قويّان فما الذي يحكم بينهما؟ وهل نأخذ واحداً منهما دون الآخر؟ أم نجمع بينهما ونفسر الآية بكليهما؟ أم ماذا نفعل؟

الحق أن أية نقطة من تلك النقاط الست لا تحضرنا حينئذ لتحلّ هذه المشكلة.

فما الحيلة إذاً؟ وما هو الطريق لعلاجها؟

الموقف يفرض علينا بكل صرامة وجدٍّ أن نرجعَ إلى النظام، فهو أولى بأن يحلّ هذه العقدة، وأولى بأن يكشف لنا الأمر بعد ما أصبح علينا غُمّة.

**تأمل في نظم الآية:**

فنرجع الآن إلى الآية مباشرة حتى نتدبرها ونستلهم معناها في ضوء نظامها.

يقول ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ۞ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢ ـ ٢٢٣].

التأمل في هاتين الآيتين يؤدينا إلى الحقائق التالية:

**الحقيقة الأولى:**

أمر اللّه ـ تعالى ـ باعتزال النساء فيّ المحيض، ونهى عن غشيانهن قبل أن يطهرن، وهذا المحيضُ وهذا الطُّهْرُ لا علاقةَ لهما بالدُّبر، فالأمرُ باعتزال النساء في

---

(١) ونص الحديث هكذا: عن أبي سعيد الخدري أن رجلاً أصاب امرأته في دبرها فأنكر الناس عليه ذلك فأنزلت: ﴿نساؤكم حرث لكم﴾ الآية.

(٢) فتح الباري: ٨/ ١٤٢.

المحيض، وحظر غشيانهن قبل الطهر تصريحٌ بأن موضعَ الغشيانِ واحدٌ لا غير، فيجوز الغشيان إذا كان موضعه صالحاً وقابلاً للغشيان وإلاّ فلا.

**الحقيقة الثانية:**

رخص - تعالى - في الإتيان بعد الطهر بشرط أن يكون هذا الإتيان من حيثُ أمرَ اللّه:

﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾.

وهذا الأمر هو الأمر التكويني، أي: فأتوهن من المأتى الذي بَرَأَ اللّه - تعالى - الفطرةَ على الميلِ إليه، ومضت سُنّته بحفظِ النوع به وهو موضع النسل[1].

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ يقول: في الفرج ولا تَعْدُوه إلى غيره فمن فعل شيئاً من ذلك فقد اعتدى[2].

**الحقيقة الثالثة:**

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ من هم «التوابون المتطهرون» في هذا السياق؟ هم الذين يذكرون ربهم ويخافون سخطه، ولا يلوّثون فطرتهم السليمة النظيفة الطاهرة بأن يستسلموا لسلطان الشهوة ويسترسلوا لنزوة الجسد العارضة، ويأتوا نساءهم في زمن المحيض أو في غير المأتى الذي أمر اللّه به.

هؤلاء الذين يسمّيهم اللّه «التوابين المتطهرين»، ويرضى عنهم، وبالتالي هو يبغض الذين يخالفون هذا الحكم، ولا يهمّهم إلا أن يحققوا لذّتهم الحيوانية كيفما اتفق.

**الحقيقة الرابعة:**

﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾، أي: النساء حرثٌ لكم وليست لهواً ولا

---

(١) انظر تفسير المنار: ٢ / ٣٦٠، ٣٦١.

(٢) تفسير ابن كثير: ١ / ٢٦٠.

علالة تتعلّلون بها، وما دام أنهنّ حرث لكم فأتوهن كيفما شئتم، ولكن بشرط أن يكون هذا الإتيانُ في موضعِ الإخصابِ الذي يحقق غاية الحرث.

يقول صاحب المنار وهو يفسر الآية:

«بيّن في الآية السابقة حكم المحيض، وأحل غشيان النساء بعده، وبيّن في هذه الآية حكمة هذا الغشيان، التي شُرعَ الزواجُ لأجلها وكان من مقتضى الفطرة، وهي الاستنتاج والاستيلاد، لأن الحرث هو الأرض التي تستنبت، والاستيلاد كالاستنبات، وهذا التعبيرُ على لُطفه ونزاهته وبلاغته وحُسْنِ استعارته تصريحٌ بما فهم من قوله عز وجل ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾، أو بيان له، فهو يقول: إنه لم يأمر بإتيان النساء الأمرَ التكوينيَّ إلا لأجل حفظ النوع البشري بالاستيلاد كما يحفظ النبات بالحرث والزرع، فلا تجعلوا استلذاذَ المباشرة مقصوداً لذاتهِ فتأتوا النساء في المحيض حيث لا استعدادَ لقبولِ زراعةِ الولد وعلى ما في ذلك من الأذى، وهذا يتضمنُ النهيَ عن إتيانهن في غير المأتى الذي يتحقق به معنى الحرث»[1].

**الحقيقة الخامسة:**

﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾، هذه العبارة وإن كانت تُوهِمُ ـ بظاهرها ـ بمعنى الإطلاق والتعميم، ولكن النظر في سياقها يبيّن أن الهدف ليس هو الإطلاق والتعميم بشكل نجده في روايات سبب النزول، حتى نقول: إنها جاءت لِتُبيح شرحَ النساء شرحاً وتُفيد إتيانهن مُقبلات ومُدبرات ومُستلقيات، فإن العبارة التي جاءت بعدها لا تلائم هذا الجوّ بل هي تَصرفُ الكلامَ إلى جوٍّ آخر، فلنتدبَّرْ هذه التحذيرات وهذه التعليمات: «﴿وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ﴾، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾، ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ﴾، ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾».

فهذا السياق وهذا الجوّ ـ الذي تُلَوِّنُه التقوى وتَذكُّر الآخرة واستشعار لقاء اللّه وإحساس المسؤولية أمام اللّه ـ لا يسمحُ لنا أبداً بأن نفسر الآية كما فسّرت، ونقول، إنها جاءت لتؤكد للمهاجرين مألوفهم في أمر النساء، وأما ما نرى فيها من لون التعميم

---

(١) تفسير المنار: ٣٦١، ٣٦٢.

فهو في مقابل الحظر والتخصيص الذي سبق هذا التعميم حيث قال:

﴿فاعتزلوا النساء في المحيض، ولا تقربوهن حتى يطهرن، فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله﴾.

فهذا التعميم بعد ذلك الحظر والتخصيص لا يعني إلا إشعار المسلمين بأن ربهم - إذا أمرهم باعتزال النساء في المحيض وأمرهم أن يأتوهن من حيث أمرهم - ما أراد ليجعلَ عليهم من حرجٍ ولكن أراد ليطهرهم وليتمّ نعمته عليهم.

فهو لم يمنع عنهم إلا ما يكونُ شراً لهم ويجلب الضرر عليهم وإلا فبابُ السعادة والهناء مفتوح أمامهم، فليدخلوا فيه كيفما شاؤوا، وليتصرفوا فيه كيفما أحبّوا.

فهذه الآية - بطبيعتها وإيحاءاتها - تشبه الآية التي جاءت في سورة المائدة بعد ما أمر الله بأشياء ونهى عن أشياء فقال:

﴿ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦].

وهكذا قال في سورة البقرة، بعد ما أمر بالصيام وذكر شيئاً مما يتصل به من أحكام:

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

**نظرة على سبب النزول في ضوء هذا النظام:**

وبعد ما اتضح لنا نظم هذه الآية لم يعد عسيراً علينا أن نفهم ما روي لنا في سبب نزولها.

فرواية جابر لا تترجم عن السبب الحقيقي لنزول هذه الآية، بل هي من مُتضمَّناتها، فالآيةُ تلقي ضوءاً على هذه القضية، وتفيد أن ما تقوله اليهود قولُ لا يُلتفَتُ إليه، فإنَّ المهم هو إلقاءُ البذرة في منبتها، فإذا وصلت البذرة إلى منبتها فلا يضر إن ألقيت عن اليمين أو عن الشمال.

وأما كونُ الولدِ أحولَ أو غيره فهو موكولٌ إلى مشيئة اللّه ولا تأثير فيه لأيِّ شيء آخر، فالآية تحكم في هذه القضية، أو تحسم هذه الشبهة، ولكن لا نقول: إنها نزلت لهذا السبب بالذات.

فكلمة «نزلت» في هذه الرواية جاءت في المعنى الذي أشار إليه الإمام الزركشي حيث قال:

«قد عُرِفَ من عادة الصحابة والتابعين أن أحدهم إذا قال: نزلت هذه الآية في كذا فإنه يريد بذلك أنها تَتضمَّنُ هذا الحكم، لا أن هذا كان السبب في نزولها»[1].

وكذلك نقول في رواية ابن عباس وهي نفسها تؤيّد بعبارتها ما نقول، فقد جاء فيها:

«فسرى أمرهما، فبلغ ذلك رسول اللّه ـ ﷺ ـ فأنزل اللّه: ﴿نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم﴾.

جاءت ثلاث جمل معطوفة بعضها على بعض بحرف «الفاء»، «فسرى ـ فبلغ ـ فأنزل»، «والفاء» ـ كما هو معروف ـ تدلّ ـ في أصلها ـ على الترتيب مع التعقيب، أي: حصلت هذه الأفعال كلها متعاقبة متتابعة بدون أن يكون بينها فاصل من الزمان.

فكان أن انتشر هذا الخبر، فبلغ ذلك النبي ـ ﷺ ـ فتلا هذه الآية وكانت قاضيةً بين الزوجين، وحاسمةً لما حصل بينهما من خلاف.

وإلا فالوحي ما كان ينزل هكذا حثيثاً معجّلاً فورَ كلِّ حادث يحدث، خاصة والأمر لم يكن بتلك الخطورة التي تقتضي العجل.

وأيضاً لو كانت الآية قد نزلت في تلك القضية بالذات، لم يكن الراوي ليصرّح في الرواية بسريان الأمر وبلوغه إلى رسول اللّه ـ ﷺ ـ فإن نزول الآية لم يكن بتوقف على ذلك، والذي يُنزِلُ الآيات يعلمُ كل شيء قبل أن يعلمه الناس.

---

(١) البرهان في علوم القرآن: ١ / ٣١، ٣٢.

فالتصريح بسريان الأمر وبلوغه إلى رسول الله يشير إلى أنّ رسول الله هو الذي تولّى هذا الأمر وقضى بينهما، وتلا هذه الآية، وكانت الآية قد نزلت قبل أن تحدث هذه الحادثة.

وأما رواية الطبراني عن ابن عمر أنه قال:

«إنما أنزلت على رسول - ﷺ - ﴿نساؤكم حرث لكم﴾، رخصة في إتيان الدبر»، فالإمام السيوطي يصرّح بأنها جاءت بسند جيد، مع التعليق عليه بأن «قول ابن عمر استنباطٌ منه، وقد وهَّمه فيه ابن عباس».

وبعبارة أخرى فالإمام السيوطي يعترفُ بوجاهةِ الروايةِ من جهة السند، ولكن لا يعترفُ بصحّة مضمونها، ويعتبرها استنباطاً ناتجاً من الوهم.

ولكن الاطلاع على نظم تلك الآيات يجعلنا نجزم بأن هذا افتراء على ابن عمر، وسيِّدنا ابن عمر بريءٌ منه.

علماً بأن هناك من الروايات ما يصرّح بخلاف ذلك، ويصرّح أن ابن عمر كان يرى تكفيرَ مَنْ يتعمَّدُ ذلك[1].

وإن كانت تلك الرواية جيّدة من جهة السند - على حسب قول السيوطي - فهي رديئة من جهة المتن.

وكم من متون واهية رديئة رُكِّبَتْ عليها أسناد جيدة قوية!

وأما رواية أبي سعيد الخدري أن رجلاً أصاب امرأته في دبرها فأنكر الناسُ عليه ذلك فأنزلت ﴿نساؤكم حرث لكم﴾.

فهذه الرواية لا تفيد أن الآية جاءت لإقرارِ ما فعله الرجلُ، وإنما الذي يستفاد منه أن رجلاً وقع في هذا الخطأ فالناس أنكروا عليه، والآية وردت لتنبّه على هذا الخطأ، وتُرشِدَ إلى المنهج الصحيح في إتيان النساء.

---

(١) انظر «المحرر الوجيز» للقاضي ابن عطية الأندلسي: ٢ / ١٨٣.

ولقد كان الإمام الشوكاني موفّقاً في مقاله إذ قال:

«من زعم أن سبب نزول الآية أن رجلاً أتى امرأته في دبرها، فليس في هذا ما يدلّ على أن الآية أَحلَّتْ ذلك، ومن زعم ذلك فقد أخطأ، بل الذي تدلّ عليه الآية أن ذلك حرامٌ، فكون ذلك هو السبب لا يستلزم أن تكون الآية نازلة في تحليله، فإن الآيات النازلة على أسبابٍ تأتي تارة بتحليلِ هذا وتارةً بتحريمه»[1].

وهكذا الوضع فيما أخرجه الطبراني عن ابن عمر:

فإنه ـ رضي اللّه عنه ـ لا يقصد أن هذه الآية جاءت لتصويب هذا العمل.

وإنما قَصْدُه أن هذه الحادثَة حدثت، فأنكرها الناسُ، وجاءت الآية لتنبّه على هذا الموقف الجائر ثم ترشد إلى ما هو أزكى وأطهر.

وأما ما روي عن ابن عباس ـ رضي اللّه عنهما ـ أنه قال:

«إن ابن عمر ـ واللّه يغفر له ـ وَهِمَ».

فلا يخلو من حالتين:

١ ـ فهو إمّا أن يكون مدسوساً على ابن عباس من جهة أعداء القرآن، حتى يلتبس الأمر على الناس ويتبادر إلى الأذهان أن ابن عمر كان يرى هذا الرأي، فيقعوا في الخطأ ويَبعدُوا عن الصواب وحدث ذلك فعلاً، فكثير من الناس اشتبه عليهم الأمر، وزعموا أن القرآن رخّص في إتيان النساء في أدبارهن، أو أنه يحتمل هذه الرخصة، ولولا أن الحديث خَصَّصَ الآية لبقيت الرخصةُ بدون كراهية!!

ومن أراد زيادة التفصيل فليراجع ما أورده ابن حجر في فتح الباري، والشوكاني في فتح القدير[2].

٢ ـ وإما أن يكون ابن عباس لم يبلغه الخبر على وجهه، فقال ما قال. ومما يؤكد

---

(١) فتح القدير: ١ / ٢٢٩.

(٢) فتح الباري: ٨/ ١٤٢، ١٤٣، فتح القدير: ١/ ٢٢٩.

هذا الاحتمال ما روي عن سعيد بن يسار عن ابن عمر أنه قال: (أي: حين بلغه أنه أشيع عنه القول بجواز إتيان المرأة في دبرها): «أفّ! أَوَ يقولُ ذلك مسلم»؟[1].

**جماع القول:**

لعل هذا القدر من الكلام يكفي للقول بأن التأمل في نظام الآيات يساعد على فهم أسباب النزول، لكن الذي يغفل عنه يتحيّر في فهمها، ويضعها في غير موضعها، ثم يتحيّر في تأويل الآيات وتفسيرها.

وهذا ما حصل مع رواية ابن عمر ورواية أبي سعيد الخدري فإن الناس لم يكونوا جادّين في فهمهما، ولو أنهم أمعنوا النظر في سياق النص، واستوعبوا معنى الآيات ثم نظروا فيهما لما حصل ما حصل، ولأمكنهم التوفيق بين روايتيهما ورواية جابر وابن عباس - رضي الله عنهم - فإن هذه الروايات كلها مما تتضمنه الآية وتنطبق عليه، ما خلا رواية واحدة، قد سبق عليها الكلام.

ولننتبه إلى هذه النكتة، فإن تلك الروايات من متضمنات هذه الآية، وليست هي السبب الحقيقي لنزولها.

فالسببُ الحقيقي لنزولها أَعَمُّ وأعظم مما تترجم عنه هذه الروايات، وهو لا يدرك إلا بعد ترداد النظر في نظام الآيات، ولقد مضت إليه بعض الإشارات.

**مقال خاطىء للواحدي:**

والآن، فلنعلم أن الواحدي لم يكن دقيقاً في مقاله إذ قال:

«. . . فآلَ الأمرُ بنا إلى إفادة المبتدئين المتسترين بعلوم الكتاب إبانةَ ما أُنزل فيه من الأسباب، إذ هي أوفى ما يجبُ الوقوفُ عليها، وأولى ما تُصرَفُ العنايةُ إليها، لامتناع معرفة تفسير الآية وقصد سبيلها، دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها، ولا يحلّ القول في أسباب نزول الكتاب، إلا بالرواية والسماع ممن شاهدوا التنزيل،

---

(١) فتح الباري: ٨/ ١٤٢.

ووقفوا على الأسباب، وبحثوا عن علمها وجَدُّوا في الطلاب، وقد ورد الشرع بالوعيد للجاهل ذي العثار في هذا العلم بالنار»[1].

فإن الأمر ليس على هذا الإطلاق، والأسباب التي وصلت إلينا عن طريق الرواية هي نفسها لا تكاد تُفهَمُ في أكثر الأحيان إلا بعد الوقوفِ على نظمِ الكلام، فكيف يجوز أن تكون هي العمدة والأساس لمن يريد أن يجيد فهم القرآن؟

والشيء الذي نلاحظه في أسباب النزول ـ بشكل عام ـ هو أنها لا تفسر السبب الحقيقي لنزول الآية إلا نادراً، وإلا فهي تكون ـ في أغلبها ـ عبارة عن عمومات الآية ومتضمناتها، فلو حصرنا القولَ في أسباب النزول على ما روي لنا بهذا العنوان ـ مع ما يوجد في معظمه من ضعفٍ شديدٍ ـ نكون قد أقمنا حُجّةً على غفلتنا عن الواقع، وعلى تفريطنا في جنب القرآن، ونكون قد وقفنا منه موقفاً لا يليق بحامليه.

ونسوق هنا نموذجين مما ذكره الواحدي في كتابه، حتى يبلغ الأمرُ غايته من الوضوح، وإن كان فيما قدمناه كفاية لمن أراد أن يقنع.

**نموذج مما ذكره الواحدي من أسباب النزول:**

يقول الواحدي وهو يذكر سبب نزول مطلع سورة الممتحنة:

قوله عز وجل: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ الآية، قال جماعة من المفسرين: نزلت في حاطب بن أبي بلتعة وذلك أن سارة مولاة أبي عمر ابن صهيب بن هشام بن عبدمناف أتت رسولَ اللّه ـ ﷺ ـ من مكة إلى المدينة، ورسولُ اللّه ـ ﷺ ـ يتجهز لفتح مكة، فقال لها: أمسلمةً جئتِ؟ قالت: لا، قال: فما جاء بكِ؟ قالت: أنتم الأهل والعشيرة والموالي، وقد احتجتُ حاجة شديدة فقدمت عليكم لتعطوني وتكسوني، قال لها: فأين أنتِ من شباب أهلِ مكة، وكانت مُغنّيةً، قالت: ما طلب مني شيء بعد وقعة بدر، فحثَّ رسول اللّه ـ ﷺ ـ بني عبدالمطلب فكسوها وحملوها وأعطوها، فأتاها حاطب بن أبي بلتعة وكتب معها إلى أهل مكة وأعطاها عشرة دنانير

---

(١) أسباب النزول: ص ٤.

على أن تُوصلَ إلى أهل مكة، وكتب في الكتاب: من حاطب إلى أهل مكة، إنّ رسول - ﷺ - يريدكم فخذوا حِذْركم، فخرجت سارة ونزل جبريل - عليه السلام - فأخبر النبي - ﷺ - بما فعل حاطب. . .

إلى أن يقول: «فأرسل رسول اللّه - ﷺ - إلى حاطب فأتاه، فقال له: هل تعرف الكتاب؟ قال: نعم، فما حملكَ على ما صنعتَ؟ فقال: يا رسول اللّه، واللّه ما كفرت منذ أسلمت ولا غششتك منذ نصحتك ولا أحببتهم منذ فارقتهم، ولكن لم يكن أحد من المهاجرين إلا وله بمكة مَنْ يمنع عشيرته، وكنت غريباً فيهم وكان أهلي بين ظهرانيهم فخشيت على أهلي فأردت أن أتخذ عندهم يداً، وقد علمتُ أن اللّه يُنزلُ بهم بأسه وكتابي لا يغني عنهم شيئاً، فصدقه رسول اللّه - ﷺ - وعذره، فنزلت هذه السورة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾[1].

هذا ما ذكره الواحدي في سبب نزول مطلع سورة الممتحنة.

فهل الواقع هكذا؟ وهل نقول: إن هذا الحادث هو السبب الحقيقي لنزول تلك الآيات؟ مع أن نظامَ الكلام وسياق الآيات يصرفنا عنه صرفاً ويذهب بنا إلى غير هذا المذهب.

## نظرة في الآيات في ضوء نظامها:

فإننا حينما نتدبر هذه الآيات ونتأمل في سياقها نجد أن وجه الكلام ليس فيها إلى أهل مكة ألبتة، وإنما هو ناظر إلى اليهود القابعين في المدينة وما حولها.

وليس ذلك مقصوراً على تلك الآيات، بل تلك المجموعة من السور بكاملها - وهي تبدأ من سورة الحديد وتنتهي بسورة التحريم - تتعرض - في أغلبها - لليهود وأشياعهم من المنافقين وتكشف عن عوارهم، وتحذر المسلمين من ولائهم والوقوع في حبائلهم.

والهدف من ذلك تطهير المسلمين وتزكيتهم حتى ينالوا ما وعدهم ربّهم ولا

---

(١) أسباب النزول: ص ٢٨١ - ٢٨٣.

يلاقوا مثل ما لاقى اليهود لعنادهم وسوء انقيادهم.

ولو تفرّغنا لهذه السور وخضنا في نظامها ورباط معانيها لكان ذلك أدنى أن تتجلى هذه الظاهرة بظلالها وسماتها.

وإذ كان المقام لا يسمح لنا بذلك فلا أقل لتفهّم هذه الآيات وطبيعتها من أن نمرّ ببعض نظائرها في تلك المجموعة. قال ـ تعالى ـ في سورة المجادلة:

﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۞ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۞ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [المجادلة: ١٤ ـ ١٦].

ما أشبه هذه الآيات بتلك التي نحن بصددها، فهي تعنّف المنافقين على أنهم يَتولَّونَ اليهودَ مع علمهم بأن اللّه غضب عليهم.

ثم تكرّر هذا العتاب بنفس الأسلوب في السورة التي تليها، وهي سورة الحشر، قال ـ تعالى ـ: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الحشر: ١١].

ثم جاءت سورة الممتحنة تعهد إلى المؤمنين أن لا يتخذوا هؤلاء اليهود أولياء ما دام أنهم أعداء اللّه وأعداؤهم:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة: ١].

زِدْ إلى ذلك أنه أنذرهم في سورة المجادلة فقال:

﴿لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المجادلة: ١٧].

ثم تكرر مثل هذا الإنذار في سورة الممتحنة حيث قال:

﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ ۚ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الممتحنة: ٣].

ثم وجّه الأمر إلى المؤمنين بأن يتأسوا بأبيهم إبراهيم وصَحْبِهِ إذ جاهروا قومهم بالبراءة وكاشفوهم بالعداوة وفاصلوهم مفاصلة كاملة حتى يؤمنوا بالله وحده:

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة: ٤].

وما أشبه هذه الآيات بتلك التي جاءت في سورة المجادلة حيث قال:

﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ﴾ [المجادلة: ٢٢].

إذ تعرض هذه الآية ميزة بارزةً لازمةً لمن يؤمن بالله واليوم الآخر، ألا وهو أن يكون دائماً حرباً على أعداء الله ولا يبذل نصحه ومودته لقوم يحادون الله.

ثم تأتي سورة الممتحنة وتُشَخِّص تلك الميزة بنموذج عملي رائع، ألا وهو الموقف الذي وقفه إبراهيم وصحبه من قومهم أعداء الله.

وكما أن هذه السورة جعلت مفاصلة الأعداء من لوازم الإيمان بالله واليوم الآخر فكذلك سورة الممتحنة تنبه إلى هذه الظاهرة:

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ۚ﴾ [الممتحنة: ٦].

ثم مقطع هذه السورة يكفي للقطع بأن المراد ﴿بعدوّي وعدوّكم﴾ هم اليهود حيث قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ [الممتحنة: ١٣].

وما جاءت هذه الآية إلا على طريق العود على البدء، وذلك أسلوب شائع في القرآن وشائع في كلام العرب.

فبدأ السورة بقوله:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾.

ثم عاد إليه مرة أخرى ـ بعد ما تناول أطراف الكلام بهذا الخصوص وبعد ما رغّب ورهّب وأمر ونهى ـ فقال:

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوماً غضب الله عليهم﴾.

ولعلنا لسنا بحاجة إلى سرد الأدلة على أن المراد بقوم غضبَ اللّهُ عليهم هم اليهود، فهم أشهر بهذا الوصف من نارٍ على عَلَم.

والآن تمّ القِرانُ بين السورتين، نعني سورتي المجادلة والممتحنة، حيث قال تعالى في الأولى: ﴿ألم تر الذين تولوا قوماً غضب الله عليهم﴾.

ثم انظر القرابة القريبة بين هذه السورة وسورة المنافقون، حيث قال تعالى في هذه: ﴿يُخْرِجُون الرسولَ وإياكم أنْ تُؤمنوا باللّه ربّكم﴾.

وقال في تلك:

﴿يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعزّ منها الأذلّ﴾.

ومما يجدر بالانتباه أن النص هنا ورد بصيغة المضارع: ﴿يخرجون الرسول﴾، أي: يريدون ليخرجوا[1]، ومعلوم ـ بالطبع ـ أنهم هم اليهود وعملاؤهم، ولو كان المراد بهم قريش لوردَ النصُّ بصيغةِ المضي كما جاء في موضع آخر:

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴾ [محمد: ١٣].

﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ﴾ [التوبة: ٤٠].

---

(١) والفعل كثيراً ما يطلق على محاولة الفعل وإراداته كقوله ـ تعالى ـ: «إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين»، أي: أراد أن يخطف السمع كما روي عن ابن عباس (انظر تفسير الطبري ٧ / ١١)، وكقوله ـ تعالى ـ: ﴿إنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً﴾، قال ابن كثير: أي: من يروم أن يسترق السمع اليوم يجد له شهاباً مرصداً له (تفسير ابن كثير ٤ / ٤٢٩).

تلك لمحات سريعة من نظم الكلام وسياق السورة، وهي تدفعنا دفعاً إلى القول بأن وجَه الكلام في تلك الآيات إلى اليهود.

وأما أن نقول إنها ناظرة إلى قريش أو إلى أهل مكة، فهذا لا يتَّجهُ أبداً إلا إذا صرفنا الكلام عن وجهه وأغمضنا العين عن نظمه وسياقه.

**شهادة الحادث نفسه:**

ثم ليس هذا مقصوراً على نظمِ الكلام وسياقِ السورة فحسب، بل الحادث نفسه ـ الذي روي كسبب النزول لهذه الآيات ـ ينطق عن نفسه وينادي عليه بأنه لا ينهض سبباً حقيقياً لنزول هذه الآيات.

اللهم إلا أنْ يُقالَ إنه داخلٌ في عموم هذه الآيات، وهي تنطبق عليه جزئيّاً، إن لم تكن تنطبق عليه كليّاً.

فترى في القصة ـ مثلاً ـ أن حاطب بن أبي بلتعة يقول فيما يقول:

«ولا أَحْبَبْتُهم منذُ فارقتهم».

فكيف نُوفِّق بين قول حاطب هذا وبين قوله ـ تعالى ـ:

﴿تُلْقُون إليهم بالمودة﴾.

﴿تُسِرُّون إليهم بالمودة﴾.

هل نقول: إن حاطباً ـ رضي الله عنه ـ لم يكن صادقاً في قوله؟

أنقول هذا بعد ما صَدَّقهُ النبيُّ ـ ﷺ ـ وعَذَرهُ؟

أم ماذا نقول؟

هذه مشكلة لا نجد منها مخرجاً إذا فسّرنا هذه الآيات بذاك الحادث.

وأما إذا فسرناها في ضوء نظامها فلن نواجه مشكلة، فإن النظم يقول: إن قوله ـ تعالى ـ:

﴿تلقون إليهم بالمودة﴾.

و﴿تسرون إليهم بالمودة﴾.

حكاية عن حالِ المنافقين ومودّتهم لأهلِ الكتاب، إذ مضى قولهم في السورة التي قبلها: ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ﴾ [الحشر: ١١].

**نكتة أخرى:**

ثم هناك نكتة أخرى لا بد أن نتنبه لها، وهي أن هذا الحادث حدث حينما كان النبي - ﷺ - في طريقه إلى فتح مكة بينما جوّ السورة، بل جوّ هذه المجموعة من السور يوحي إلينا أنها نزلت في فجرِ العهد المدني أو في ضُحاه حين كان الوحيُ متوجهاً إلى إعداد الجماعة المسلمة وإلى ترويضها على الجهاد والتضحية.

فأول سورة من هذه المجموعة تطلع علينا بهذه الآيات:

﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الحديد: ١٠].

﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥].

ثم ترى هذه السورة نفسها كيف تعرض أمام المسلمين أسوة إبراهيم وصحبه بعبارة موحية ومثيرة ثم تحرضهم من خلالها على البراءة الكاشفة والمفاصلة الكاملة مع الذين يحاربون اللّه ورسوله.

معنى ذلك أن النفوسَ لم تكن قد تَجرَّدتْ بَعْدُ من مودة أعداء اللّه، وكانت ما زالت في مرحلة إعداد وتربية.

ثم تأتي بعدها سورة الصف، وهي تُندِّدُ بالذين نكصوا عن الجهاد:

﴿يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون. كبر مقتاً عند اللّه أن تقولوا ما لا تفعلون. إن اللّه يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص﴾.

ثم تُشَوِّقُهم إلى الجهاد فتقول:

﴿يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم. تؤمنون باللّه

ورسوله وتجاهدون في سبيل اللّه بأموالكم وأنفسكم. ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾.

ثم تبالغ في تحريضهم وتشويقهم فتقول:

﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار اللّه كما قال عيسى بن مريم للحواريين من أنصاري إلى اللّه. قال الحواريّون نحن أنصار اللّه﴾.

هذا الوضع يدل على أن هذه السور كانت ـ بطبيعتها ـ سُوَرَ إعدادٍ وتربية وكلها جاءت لِتُذْكي عواطفَ المسلمين وتشحذ عزائمهم، وتغرس في قلوبهم حب البذل والتضحية وتسيطر بهم على فتنة الأرحام والأولاد، حتى يشمّروا عن سيقان الجدّ ويندفعوا إلى درب الجهاد مفعمين بروح الاستماتة في سبيل اللّه.

فإذا كانت هذه السورُ سورَ إعداد وتربية ـ ومنها سورة الممتحنة، التي نحن بصدد الحديث عنها ـ وكانت كلها قد نزلت في فجر العهد المدني، فكيف يسوغ لنا القول بأن تلك الآيات كان سببَ نزولها ذلك الحادث الذي حدث بعدها بعدة سنوات؟

اللهم إلا أن يقال إن تلك الآيات تصدق على ذلك الحادث، وتنطبق عليه بحكمها ومضمونها وإن كانت قد نزلت قبله بفترة طويلة.

ولقد أجمع أهلُ التأويل على أن الآيات الأخيرة من تلك السورة كانت قد نزلت في أثناء صلح الحديبية فلو وُفِّقنا إلى تأويلِ الآيات الأولى بحيث لا يبقى بينها وبين أواخر السورة كبيرُ فارقٍ من الزمن وتكون الأولى هي الأولى نزولاً وتكون الأخيرة هي الأخيرة نزولاً يكن ذلك أقرب إلى الانسجام وأوفق بالنظام وأدعى إلى الالتئام.

**نموذج آخر:**

يقول الواحدي وهو يذكر سبب نزول سورة الفيل:

«نزلت في قصة أصحاب الفيل وقصدهم تخريب الكعبة وما فعل اللّه ـ تعالى ـ بهم من إهلاكهم وصرفهم عن البيت وهي معروفة»[1].

---

(١) أسباب النزول: ص ٣٠٦.

هذا ما ذكره الواحدي في سبب نزول هذه السورة، فما رأي القارىء الكريم في ذلك؟ وهل نقبله باعتباره سبباً لنزول هذه السورة؟ فهذا ـ ولا شك ـ من تسمية الشيء بغير اسمه؟ فإن ما ذكره مادّة السورة وليس سبباً لنزولها.

وإنما سببُ نزولها ما لأجلهِ أُنزلت السورةُ، ولقد مضى تفصيله في الفصل الثاني.

### تعقيب السيوطي:

ولقد أحسن الإمام السيوطي حين عقب على قول الواحدي فقال:

«والذي يتحرر في سبب النزول أنه ما نزلت الآية أيام وقوعه ليخرج ما ذكره الواحدي في سورة الفيل من أن سببها قصة قدوم الحبشة فإن ذلك ليس من أسباب النزول في شيء»(١).

فنحن نحبّذ قول السيوطي ونؤيده من ناحية ومن ناحية أخرى فإن ما ذكره أيضاً لا يخلو من إشكال، فإنه ـ رحمه الله ـ إن كان يقصد بسبب النزول ما تتضمنه الآية فهذا لا ينحصر فيما نزلت الآية أيام وقوعه، بل كلُّ أمرٍ يدخلُ في ضمن الآية ويصدقُ عليه حُكمُها يُعتَبرُ سبباً لنزولها بغضّ النظر عن وقوعه في حين نزول الآية أو بعده أو قبله.

وإن كان يقصد به السبب الحقيقي لنزول الآية، فليس كل ما نزلت الآية أيام وقوعه سبباً حقيقياً لنزولها، وإنما السببُ الحقيقي لنزولها هو ما يدلُّ عليه السياقُ ويستقيم به النظام وتتماسك به الآيات آخذة بعضها بأعناق بعض.

ولنضرب لذلك مثلاً. قال ـ تعالى ـ:

﴿ ۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٥٨].

ذكر الإمام السيوطي سبب نزول تلك الآية كما يلي:

---

(١) لباب النقول في أسباب النزول: ص ١٤.

«أخرج الشيخان وغيرهما عن عروة عن عائشة قال: قلت: أرأيتِ قولَ اللّه:

﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾، فما أرى على أحدٍ شيئاً أن لا يطّوَّفَ بهما، فقالت عائشة: بئسما قلتَ يا ابن أختي، إنها لو كانت على ما أوّلتها عليه كانت، فلا جناح عليه أن لا يطّوف بهما ولكنها إنما أُنزلت لأن الأنصار قبل أن يُسْلِمُوا كانوا يُهِلُّون لِمَناةَ الطاغية، وكان من أهلّ اها يتحرج أن يطوف بالصفا والمروة فسألوا عن ذلك رسول اللّه، فقالوا: يا رسول اللّه إنا كنا نتحرّج أن نطوف بالصفا والمروة في الجاهلية، فأنزل اللّه: إن الصفا والمروة من شعائر اللّه ـ إلى قوله ـ فلا جناح عليه أن يطّوف بهما».

وأخرج البخاري عن عاصم بن سليمان قال: سألت أنساً عن الصفا والمروة؟ قال: كنا نرى أنهما من أمر الجاهلية، فلما جاء الإسلام أمسكنا عنهما، فأنزل اللّه ﴿ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ﴾.

وأخرج الحاكم عن ابن عباس قال: كانت الشياطينُ في الجاهلية تطوفُ الليلَ أجمع بين الصفا والمروة، وكان بينهما أصنام لهم، فلما جاء الإسلام قال المسلمون: يا رسول اللّه، لا نطوفُ بين الصفا والمروة فإنه شيءٌ كنا نصنعه في الجاهلية، فأنزل اللّه هذه الآية»[1].

تلك هي الأسباب التي أوردها الإمام السيوطي لنزول هذه الآية، وهي أسباب لا تصلح أبداً لأن تسمى أسباباً حقيقية لنزول الآية، وإنْ كان يَصْدُقُ عليها قوله ـ رحمه اللّه ـ:

«والذي يتحرر في سبب النزول أنه ما نزلت الآية أيام وقوعه».

وذلك لأن تلك الأسباب لا تتلاءم مع السياق، وما يستقيم بها النظام.

والذي يتحرر في تلك الأسباب هو أنها من مُتضمَّنات الآية ومن عُموماتِها، فإن الآية ـ في عمومها ـ تعالج هذه الشبهات وتردّ على هذه التساؤلات.

---

(١) لباب النقول في أسباب النزول: ص ٣٠، ٣١.

وأما السبب الحقيقي لنزول الآية ـ كما يدلّ عليه السياق ويرشد إليه النظام ـ فهو كشف القناع عن كتمان اليهود وتلبيسهم في أمر الصفا والمروة، ولقد أشبعنا عليه الكلام في الفصل الخامس، فنحيل القارىء الكريم إليه.

كما نريد أن نلفت الانتباه إلى ما توحي إلينا كلمة «شعائر اللّه»، فإن التصريح بكونهما من شعائر اللّه يَشِي بأن هناك مَنْ يسعى ليلبّس على الناس أمرهما، ويسدل الستر على حقيقتهما.

ولقد استعملت تلك الكلمة في مثل هذا الجوّ في أمر البُدْنِ كذلك، فأن اليهود لما حاولوا أن يلبّسوا على الناس أمرها، ويُرْخُوا سُدولَ الكتمان على شرفها ومكانتها، ويوهموا الناس بأن اللّه حرّمها من أول يومها، حتى يتذرعوا بذلك إلى إثارة الشبهات حول بعثة النبي ـ ﷺ ـ لم يزد ربنا حينذاك على أنْ وصف البُدن بأنها من شعائر اللّه، وبذلك جعل كيدهم وافتراءهم هذا هباء منثورا، قال ـ تعالى ـ:

﴿ وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ﴾ [الحج: ٣٦].

﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ * لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴾ [الحج: ٣٢ ـ ٣٣].

ولقد أسلفنا الكلام على تلك الآيات في الفصل الأول، وفيه كفاية، والحُرُّ تكفيه الإشارة.

* * * * *

لقد أفضنا في القول، وكثّرنا الأمثلة، فتعبنا وأتعبنا، ولم يدفعنا إليه إلا الحرص الشديد على أن يقتنع القارىء بهذه الحقيقة الهامّة، ويتضح أمامه أن رعاية النظام لها دور كبير في فهم سبب النزول، فالذي يهمل النظام يتحيّر في فهمه ويتعذر عليه الوصول إلى حقيقة أمره.

### موقف الفراهي من سبب النزول:

وللإمام الفراهي كلمة جميلة في سبب النزول، فلا بأس بأن نسجّلها هنا كختام

المسك لهذا الفصل، يقول ـ رحمه الله ـ:

«ليس سبب النزول ـ كما قيل تسامحاً ـ سبباً لنزول آية أو سورة، بل هو شأن الناس وأمرهم الذي كان محلاً للكلام، فما من سورةٍ إلا ولها أمرٌ أو أمور جعلتها نصب العين، وذلك تحت عمود السورة.

فعليكَ أن تلتمس سبب النزول من نفس السورة، فإن الكلام لا بد أن يكون مطابقاً لموضعه كما أن الطبيبَ ـ مثلاً ـ يتوسَّمُ من الوصفةِ الطبية داءَ مَنْ قد كُتبت له تلك الوصفة.

فإذا كان سوقُ الكلام لموضوع، تَنَاسَبَ هذا الكلامُ والموضوعُ كتناسبِ اللباس والجسم بل كتناسب الجلود والأبدان، والكلام له مناسبة بين أجزائه بعضها ببعض.

وما جاء في الآثار أن كذا وكذا من الآيات نزلت في كذا وكذا من الأمور فمعناه أن كذا وكذا من الأمور كان موجوداً حين نزول السورة، لكي يُعلَمَ أن الآيات كانت لها دواع ومواقع...

وبهذا ينحلّ ما أشكل على الإمام الرازي في سورة الأنعام في تفسير آية: ﴿وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا﴾، حيث قال:

«ولي ها هنا إشكال وهو أن الناس اتفقوا على أن هذه السورة نزلت دفعة واحدة.

وإذا كان الأمر كذلك فكيف يمكن أن يقال في كل واحدة من آيات السورة إن سبب نزولها هو الأمر الفلاني بعينه».

فإن الأمر عندي ـ كما علمت ـ أن الله ـ تعالى ـ حين أنزل سورة ما كان إلا لِيُبَيِّنَ الأمورَ التي اقتضت البيان بكلام لم يلتبس نظامه، كما يفعل الخطيب الحكيم فإنه ينزل كلامه ويسوقه على حسب دواعٍ خاصة بين يديه، فكثيراً ما لا يذكر أمراً خاصاً ولكن يجري كلامه إلى ما يحوي أمثاله من الصور والحالات، وقليلاً ما يسمي أمراً خاصاً أو شخصاً خاصاً، فيأتي بكلام عليٍّ سابغٍ كغيثٍ مُطْبق.

وكان نزول القرآن هكذا كما قال الله تعالى:

﴿وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ﴾ [المائدة: ١٠١].

فكان القرآن يأتي بجوابهم حين نزوله جارياً على رَسْله ومنهجه، فإذا بلغت سورةٌ حَدَّ الكلام وقضت شأنها، وأَوفَتْ لدواعي الكلام بيانَها، سكنت وألقت جِرانها، فما جاوزت ولا قصرت.

ولكن ربما كانت الحاجة باقية فأنزل الله سورة أخرى ولكن بَدَّلَ الأسلوبَ الأول لكيلا يملّوا، وسبب النزول لم يتبدّل.

ولذلك ترى في أول النبوة سوراً كثيرة في ذِكْرِ البعث والتوحيد وتصديق الرسول وما يلتئم به، ولكن بتبديل الأسلوب وتصريف القول، وكذلك ربما وقعت حاجة لتوضيح أمر فنزل بعض الكلام ووضع حيث كانت حاجته، إنجازاً لما وعد: ﴿ثم إن علينا بيانه﴾[1].

فلم يراع زمان النزول بل نظام القول.

ثم ربما نبّه أن هذا بيان بعض الآيات، فإنك ترى بَعد أكثر آيات ألحقت بأخواتها للبيان، مثل قوله تعالى:

﴿كذلك يبينُ الله آياتهِ للناس لعلهم يتقون﴾.

فإن أردت الحق الصريح واليقين المريح فلا يبعدك طلبُ سببِ النزول عن أصل نظم القرآن فيبهم عليك الأمر ويغادرك في متفرق السبل، لا تدري أيها تسلك.

بل تَحَسَّسْ سببَ النزول من القرآن ثم خذ من الروايات ما يؤيِّد القرآن لا ما يبدّد نظامه»[2].

* * * * *

(١) يراجع للتوسع تفسير سورة القيامة للفراهي.

(٢) فاتحة تفسير نظام القرآن: ص ٨، ٩.

# الفصل التاسع
# المزية التاسعة

رعاية النظام والبحث عن رباط الآيات هو المحك الناجح لنقد الروايات التفسيرية، فبه تتميّز الضِّعافُ من الصحاح، ويتميّز السقيم من السليم.

فإن كتب التفسير - مع الأسف - طافحة بالإسرائيليات والموضوعات كما هو معروف عند الثقات، وما وجدتْ هذه الإسرائيلياتُ وتلك الموضوعات طريقَها إلى كتب التفسير، وما خلا لها الجوُّ حتى تبيض وتصفر إلا بعد ما تساهل الناسُ في النظام ولم يهتمّوا به في تأويل الآيات.

ولوأنهم اهتموا بنظام الآيات، وحكّموه في قبول الروايات، لاجتثَّت الإسرائيلياتُ من أصلها، وماتت الموضوعات في مهدها، ولم تجد إلى تراثنا المجيد سبيلاً.

فإذا كانت هذه الإسرائيليات وتلك الموضوعات قد تسرّبت إلى تراثنا المجيد وكنا نريد أن نعثر عليها حتى نأمن شرّها ونجذم أصلها، فليس أمامنا إلا أن نعنى بما فيه قصّرنا، ونؤوب إلى ما عنه أعرضنا، فنعطي النظام حقه من الرعاية والاهتمام، فهو الذي يكفل لنا الوصول إلى بغيتنا، ويكفل لنا النجاة مما كدّر صَفْوَنا، ويضمن لنا السلامة من كيد أعدائنا وأعداء قرآننا.

### مثال لتنبيه نظام الآيات على مواضع الضعف في الروايات:

ولا بد هنا من مثال، حتى يتبلور الأمر ويتبرهن أن رعاية النظام كيف تُنبّهُ على مواضع الضعف في الروايات، وكيف تساعد على تمييز غثها من سمينها.

قال الله ـ تعالى ـ في كتابه العزيز:

﴿ ۞ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ * إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ * قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ * فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ * يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص: ٢١ ـ ٢٦].

يقول الإمام ابن جرير ـ رحمه الله ـ وهو يفسر تلك الآيات:

«واختلف في سبب البلاء الذي ابتُلي به نبيُّ الله داود ـ ﷺ ـ فقال بعضهم: كان سبب ذلك أنه تذكر ما أعطى الله إبراهيمَ وإسحاق ويعقوب من حُسْنِ الثناء الباقي لهم في الناس، فتمنى مِثْلَهُ، فقيل له: إنهم امتُحِنُوا فصبروا، فسأل أن يُبتلَى كالذي ابتُلوا ويُعطى كالذي أُعطوا إن هو صبر، ذكر من قال ذلك حدثني محمد بن سعد قال: حدثني أبي، قال ثني عمي، قال ثني أبي عن أبيه عن ابن عباس قوله:

﴿ ۞ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ قال: إن داود قال: يا رب قد أعطيتَ إبراهيم وإسحاق ويعقوب من الذكر ما لَوددتُ أنك أعطيتني مثله، قال الله: إني ابتليتهم بما لم أبتلك به فإنْ شئتَ ابتليتُكَ بمثل ما ابتليتهم به وأعطيتك كما أعطيتهم قال: نعم، قال له: فاعملْ حتى أرى بلاءك، فكان ما شاء الله أن يكون وطال ذلك عليه فكاد أن ينساه، فبينا هو في محرابه إذ وقعت عليه حمامة من ذهب فأراد أن يأخذها فطارت إلى كوة المحراب فذهب ليأخذها فطارت فاطَّلعَ من الكوة فرأى امرأةً تغتسلُ، فنزل نبيّ الله ـ ﷺ ـ من المحراب فأرسل إليها فجاءته فسألها عن زوجها وعن شأنها فأخبرته أن زوجها غائب، فكتب إلى أمير تلك السريّة أن يؤمّره على السرايا ليهلك زوجها ففعل، فكان يُصابُ أصحابه وينجو وربما نصروا، وإن الله عز وجل لما رأى الذي وقع فيه داود أراد أن يستنقذه، فبينما داود ذات يوم في محرابه إذ تَسوَّرَ عليه

الخصمان من قبل وجهه، فلما رآهما وهو يقرأ فزع وسكت، وقال: لقد استُضعفت في ملكي حتى أن الناس يتسورون عليّ محرابي. قالا له: لا تخف، خصمان بغى بعضُنا على بعض ولم يكن لنا بدّ من أن نأتيك فاسمعْ منا. قال أحدهما: إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة أنثى ولي نعجة واحدة فقال: أكفلنيها يريد أن يتمّم بها مائة ويتركني ليس لي شيء وعَزَّني في الخطاب، قال له داود: أنتَ كنتَ أحوجَ إلى نعجتك منه، لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه إلى قوله: وقليلٌ ما هُمْ ونسيَ نفسه ـ ﷺ ـ فنظر الملكان أحدهما إلى الآخر حين قال ذلك فتبسَّمَ أحدهما إلى الآخر فرآه داود وظن أنما فُتنَ فاستغفر ربه وخرّ راكعاً وأناب أربعين ليلة حتى نبتت الخضرة من دموع عينيه ثم شدد الله له ملكه.

حدثنا محمد بن الحسين قال: ثنا أحمد بن المفضل قال ثنا أسباط عن السدّي في قوله: ﴿ ۞وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ﴾، قال: كان داود قد قسم الدهر ثلاثة أيام: يوم يقضي فيه بين الناس، ويوم يخلو فيه لعبادة ربه، ويوم يخلو فيه لنسائه، وكان له تسع وتسعون امرأة، وكان فيما يقرأ من الكتب أنه كان يجد فيه فضل إبراهيم وإسحاق ويعقوب فلما وجد ذلك فيما يقرأ من الكتب قال: يا رب إن الخير كله قد ذهب به آبائي الذين كانوا قبلي فأَعطني مثل ما أعطيتهم وافعل بي مثل ما فعلتَ بهم. قال: فأوحى الله إليه أن آباءك ابتُلوا ببلايا لم تُبْتَلَ بها: ابتلى إبراهيم بذبح ابنه وابتلي إسحاق بذهاب بصره وابتلي يعقوب بحزنه على يوسف، وإنك لم تبتلْ من ذلك بشيء، قال: يا رب ابتلني بمثل ما ابتليتهم به وأعطني مثل ما أعطيتهم. قال: فأوحى إليه أنك مبتلى فاحترس قال فمكث بعد ذلك ما شاء الله أن يمكث إذ جاءه الشيطان قد تمثل في صورة حمامة من ذهب حتى وقع عند رجليه وهو قائم يصلي فمدّ يده ليأخذه فتنحى فتبعه فتباعد حتى وقع في كوةٍ فذهب ليأخذه فطار من الكوة فنظر أين يقع فيبعث في أثره قال: فأبصر امرأة تغتسل على سطح لها فرأى امرأة من أجمل الناس خَلْقاً، فحانت منها التفاتة فأبصرته فألقت شعرها فاستترت به. قال: فزاده ذلك فيها رغبة قال فسأل عنها فأُخبرَ أنَّ لها زوجاً وأن زوجها غائب بمسلحة كذا وكذا، قال: فبعث إلى صاحب المسلحة يأمره أن يبعث أهريا إلى عدو كذا وكذا، قال: فبعثه ففتح له. قال: وكتب إليه

بذلك. قال: فكتب إليه أيضاً أن ابعثه إلى عدو كذا وكذا أشد منهم بأساً، قال: فبعثه ففتح له أيضاً. قال: فكتب إلى داود بذلك. قال: فكتب إليه أن ابعثه إلى كذا وكذا، فبعثه فقتل المرة الثالثة، قال: وتزوج امرأته. قال: فلما دخلت عليه قال لم تلبثْ عنده إلا يسيراً حتى بعث اللّه ملكين في صورة إنسيين فطلبا أن يدخلا عليه فوجداه في يوم عبادته، فمنعهما الحرس أن يدخلا عليه، فتسوَّرا عليه المحراب، قال: فما شعر وهو يصلي إذ هو بهما بين يديه جالسين. قال: ففزع منهما فقالا: لا تخف إنما نحن خصمان بغى بعضُنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تُشْطط. يقول: لا تخف واهدنا إلى سواء الصراط إلى عدل القضاء، قال. فقال: قُصَّا عليَّ قصتكما، قال. فقال أحدهما: إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة فهو يريد أن يأخذ نعجتي فيكمل بها نعاجه مائة قال: فقال للآخر: ما تقول، فقال: إن لي تسعاً وتسعين نعجة. ولأخي هذا نعجة واحدة فأنا أريد أن آخذها منه فأكمل لها نعاجي مائة، قال: وهو كاره، قال وهو كاره، قال وهو كاره. قال: إذاً لا ندعك وذاك قال: ما أنت على ذلك بقادر، قال: فإن ذهبت تروم ذلك أو تريد ذلك ضربنا منك هذا وهذا وفسر أسباط طرف الأنف وأصل الأنف والجبهة، قال: يا داود أنت أَحقُّ أن يُضرب منك هذا وهذا وهذا، حيث لك تسع وتسعون نعجة امرأة ولم يكن لأهريا إلا امرأة واحدة فلم تَزّل به تُعرِّضُه للقتل حتى قتلته وتزوجت امرأته، قال: فنظر فلم ير شيئاً فعرف ما قد وقع فيه وما قد ابتُليَ به، قال: فخرّ ساجداً، قال: فبكى، قال: فمكث يبكي ساجداً أربعين يوماً لا يرفع رأسه إلا لحاجة منها ثم يقع ساجداً يبكي ثم يدعو حتى نبت العشب من دموع عينيه، قال: فأوحى اللّه إليه بعد أربعين يوماً: يا داود ارفع رأسك فقد غفرتُ لك»[1].

هذه الروايات مما ذكره الإمام الطبري في تفسير تلك الآيات، وليس ذلك مقصوراً على الطبري، فقد راجت هذه الروايات عند غيره من فحول المفسرين وهم

---

(١) جامع البيان في تفسير القرآن ٢٣ / ٩٣، ٩٤.

أيضاً أثبتوها في مؤلفاتهم[1].

وإن كان هناك أيضاً مَنْ رَدَّ تلك الروايات ورمى بها عرض الحائط مثل الإمام ابن كثير والإمام أبي حيان والإمام سيد قطب ـ رحمهم الله ـ[2].

فنريد أن نقف هنا وقفة نَسبرُ فيها تلك الروايات في ضوء نظام الآيات، حتى نكون على بيّنة منها، فإن النظام لا بدّ أن يكشف لنا غثها من سمينها ولا بد أن يجلّي لنا حقها من باطلها.

فحينما نخلو بتلك الآيات، ونمعن النظر فيها وفيما حولها من الآيات تلحّ علينا عدة حقائق:

**الحقيقة الأولى:**

إن القرآن يذكر هنا سيدنا داود ـ عليه السلام ـ كمثالٍ رائع للأوّابية.

بل يذكره بأسلوب يوحي إلينا أنه كان نسيجُ وحدهِ في هذه السجيّة، وكان إمامَ هذا الكون من هذه الناحية، فهو لم يكن يُسبِّحُ وحده، بل كان يتجاوبُ معه الكون في تسبيحه، فكانت تسبّحُ معه الجبالُ وكانت تسبّح معه الطير، تَدبَّرْ معي هذه الآيات:

﴿واذكر عبدنا داود ذا الأيد. إنه أواب. إنا سخّرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق. والطير محشورة. كل له أواب﴾.

ولا نتصور إنساناً رضع العربية وتربّى في أحضانها، يمرّ بهذه الآيات بدون أن يستحليها ويتذوق طعمها.

فالعبد الذي يذكره القرآن وينوّه بأوابيّته بهذا الأسلوب الحلو، الذي يملك القلبَ ويأخذ اللبّ، تَعرضُه تلك الروايا كإنسانٍ عاديّ تَحكمهُ الهوى، وتقوده الشهوة ولا

---

(١) انظر فتح القدير: ٤ / ٤٢٧، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ١٥ / ١٦٦، ١٦٨، وتفسير أبي السعود ٤ / ٥٧١، وقال الإمام عبدالرحمن بن الجوزي، بعد ما ذكر تلك القصة، وعلى هذا الذي ذكرناه من القصة أكثر المفسرين. (انظر زاد المسير: ٧/ ١١٥).

(٢) انظر تفسير ابن كثير: ٤ / ٣١، وفي ظلال القرآن: ٧ / ٩٧، والبحر المحيط: ٧ / ٣٩٣.

يهمّه في الحياة إلا اقتناص النّساء!!

**الحقيقة الثانية:**

تحكي لنا تلك الروايات أن سيدنا داود تمنى على اللّه أن يعطيه من الذِّكْرِ مثلما أعطى إبراهيم وإسحاق ويعقوب ـ عليهم السلام ـ فأحال اللّه ـ تعالى ـ أمنيّته هذه على نجاحه في الابتلاء، ولكن داود رسب في الابتلاء، وعلى هذا فما أُجيبتْ دعوتُه وخابت أمنيّته!

بينما نرى في هذه السورة أن اللّه تعالى أشاد بذكره أكثر من أي نبي آخر.

ثم ما ظَنُّكَ برفع ذِكْرِهِ وعلوّ شأنه لو وضعنا ذكرَ سليمان أيضاً في كفةِ مناقبه، فإن اللّه ـ تعالى ـ ذكره بحيث أنه كان هبة منه لداود:

﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ﴾ [ص: ٣٠].

وهذا نفس الأسلوب الذي نراه في قصة إبراهيم مع إسحاق ويعقوب ـ عليهم السلام ـ فإن القرآن يقول:

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ [الأنبياء: ٧٢].

فكما أن إسحاق ويعقوب كانا نافلةً لإبراهيم وعطيةً له على حُسْنِ بلائه في أوامر اللّه وكلماته، وهما يعتبران من مناقب إبراهيم، فكذلك شأن سيدنا سليمان مع سيدنا داود ـ عليهما السلام ـ.

وعلى هذا نرى القرآن استرسل في ذكر داود ونوّه بشأنه في هذه السورة أكثر مما نوّه بشأن إبراهيم وإسحاق ويعقوب، فإنه لم يذكرهم في هذه السورة إلا ذكراً سريعاً خاطفاً حيث قال:

﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ * إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ * وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ [ص: ٤٥ ـ ٤٧].

**الحقيقة الثالثة:**

ما سِيقَتْ قصةُ داود في هذه السورة لتفيد أن داود ـ عليه السلام ـ رسب في البلاء، وإنما سيقت لتكون تبصرةً وذكرى لطواغيتِ مكة، فهم كانوا مخمورين بوجاهتهم ومكانتهم في المجتمع العربي، وقد تجاوز بهم الغرور إلى أنهم كانوا يفجرون أمام اللّه:

﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ * بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ [ص: ١ ـ ٢].

وكانوا يستهزءون بالنبي ويسخرون منه:

﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾.

فوجه إليهم السؤال، سؤال تبكيت وتهديد وتقريع:

﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ * أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ﴾ [ص: ٩].

ثم لفتت أنظارهم إلى بعض مصارع الطغاة، الذين كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثاراً في الأرض:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ * وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ * إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ * وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ [ص: ١٢ ـ ١٥].

ثم سيقت لهم قصة داود حتى يعتبروا بها ويتذكروا، فإن داود كان يملك أكثر مما يملكون، وقد آتاه اللّه من الملك الشديد والجاه العريض ما لم يؤتِ أحداً من العالمين، ولكن هذا كله لم يحمله على الطغوى والمعصية، بل زاده خضوعاً وتواضعاً وإنابة إلى ربه، فكان أوّاباً منيباً، وكان يسبّح له بالعشي والإشراق.

وإنْ زلّت به قدمه في لحظةٍ من اللحظات فَنُبِّهَ عليه أسرع إلى التوبة والاستغفار وخرّ راكعاً وأناب.

وهذا الخضوع وهذا التواضع أمام اللّه لم يَزِدْهُ إلا رِفعةً إلى رفعته وسمواً إلى

سموّه، فإنه لما تواضع للّه رفعه اللّه وأبقى له ملكه، وأغدق عليه نعمه، وأعطاه ولداً مثل سليمان، الذي ورثه وشمخ بعزّه وسموّه إلى عنان السماء.

وهكذا وجّهت النصيحة إلى طواغيت قريش حتى ينتهوا عمّا هم فيه من عزّة وشقاق، ثم يئوبوا إلى ربهم، ويسلكوا منه مسلكَ داود حتى ينالوا منه ما نال داود.

وبالجملة فهذه القصة ما جاءت في هذه السورة إلا كمثال لأوّابيّةِ داودَ وسرعة استغفاره وتَضَرُّعِهِ ولجوئه إلى ربّه، ولذلك قبل أن يتطرق السياق إلى هذه القصة نوّه بأنه كان أوّاباً وكان لربّه مسبّحاً.

بينما الرواية تقول، إن هذه القصة جاءت لتعلن رسوبه في البلاء وتفضحه في الملأ!!

**الحقيقة الرابعة:**

الرواية تقول إن داود ما زال يبكي أربعين يوماً بليله ونهاره، وما جاءته التوبة حتى نبتت الخضرة من دموع عينيه، بينما الأسلوبُ ونظمُ الكلام يدل على أنه لم يكن هناك فاصلٌ من الزمان بين توبةِ داود واستغفاره وبين توبة اللّه عليه ومغفرته.

تَدبَّرْ معي هذا النظم:

﴿وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخرّ راكعاً وأناب. فغفرنا له ذلك. وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب﴾.

أتبعت الإنابة بالمغفرة، وجاءت بينهما حرف «الفاء» دلالة على شدة اتصالهما، أي: ما ظهرتْ منه الإنابةُ حتى أظلّته المغفرة.

ثم إنْ تُدقّق النظرَ في أسلوب الكلام ونظمه تجد فيه تقديماً وتأخيراً، وما هذا التقديم والتأخير إلا رعايةً لشدةِ اتصال التوبة بالمغفرة.

بيان ذلك أن ترتيب القصة يقتضي أن يكون قوله ـ تعالى ـ:

﴿يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق. ولا تتبع الهوى، فيضلك عن سبيل اللّه﴾. مُقَدَّماً على ذكر التوبة والمغفرة، فإنه جاء هذا التنبيهُ

وهذا العتابُ قبل أن يتوب داود وقبل أن يغفر له، وإلاّ فلا معنى للتنبيه والعتاب بعد أن يضع العبد الخاشع جبهته أمام ربه، اعترافاً بتقصيره واستدراراً لمغفرته وبعد أن يشمل الرب الكريم الودود عبده الخاشع المتذلّل بعفوه وكرمه.

ولكنّ البلاغة القرآنية الرفيعة أَخَّرت العتابَ عن محلّه الأصل تصويراً لسرعة داود إلى الإنابة والاستغفار، ثم تصويراً لسرعة الرحمة والمغفرة التي أقبلت إليه استجابة لدعائه.

ولو لم يكن في العبارة هذا التقديمُ والتأخير لم نجدْ فيها ما نجده الآن من إيحاءات، وهنا يجد قلم الكاتب نفسه مضطراً مدفوعاً إلى أن يسجد أمامَ هذه البلاغة القرآنية الرفيعة، التي لا يُشَقُّ لها غبار!

وأمّا التنبيه والعتاب فلا يضرّه هذا التأخيرُ عن محلّه، فإن موضعه معلوم بالضرورة، على رغم تأخيره في العبارة.

ويزداد الأمر وضوحاً حين نضع تلك القصة بجانب قصة سليمان، فإن قصة سليمان تنتهي بقوله ـ تعالى ـ:

﴿وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب﴾.

فالمفروض أن تنتهي قصة داود أيضاً بقوله ـ تعالى ـ:

﴿فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب﴾.

وهذا يدل على أن الآية التي جاءت بعده ـ وهي آية العتاب ـ ليست في محلها الأصل، وإنما وضعت هناك للحكمة التي أشرنا إليها، ولحكمة أخرى ستطّلع عليها في الحقيقة التالية.

**الحقيقة الخامسة:**

أحاط النظم هذه القصة بذكر الحكم، فقال قبل أن يشرع فيها:

﴿وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب﴾.

ثم قال في أثناء القصة:

﴿خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط، واهدنا إلى سواء الصراط﴾.

ثم قال بعد ما انتهى من القصة:

﴿يا داود، إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل اللّه﴾.

هذا النظم يساعدنا على تقرير طبيعة القصة، ويرشدنا إلى أن الفتنة، التي وقع فيها سيدنا داود كانت تتعلق بالحكم والقضاء.

وكانت صورة الفتنة ـ كما يراها الأستاذ سيد قطب ـ هكذا:

«وبيان هذه الفتنة أن داود النبي الملك، كان يُخَصِّصُ بعض وقته للتصرف في شؤون الملك وللقضاء بين الناس، ويخصص البعض الآخر بالخلوة والعبادة وترتيل أناشيده تسبيحاً للّه في المحراب، وكان إذا دخل المحراب للعبادة والخلوة لم يدخل إليه أحد حتى يخرج هو إلى الناس.

وفي ذات يوم فوجىء بشخصين يتسورا المحراب المغلق عليه، ففزع منهم فما يتسور المحراب هكذا مؤمن ولا أمين! فبادرا يطمئنانه: ﴿قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض﴾، وجئنا للتقاضي أمامك ﴿فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط﴾.

وبدأ أحدهما فعرض خصومته: ﴿هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة، فقال أكفلنيها﴾ (أي: اجعلها لي وفي ملكي وكفالتي)، ﴿وعزني في الخطاب﴾، (أي: شَدَّدَ عليّ في القول وأغلظ).

والقضية ـ كما عرضها أحد الخصمين ـ تحملُ ظلماً صارخاً مثيراً لا يحتمل التأويل، ومن ثم اندفع داود يقضي على إثر سماعه لهذه المظلمة الصارخة، ولم يوجه إلى الخصم الآخر حديثاً، ولم يطلب إليه بياناً، ولم يسمع له حجة، ولكنه مضى يحكم: «قال: لقد ظلمكَ بسؤالِ نعجتك إلى نعاجه، وإن كثيراً من الخلطاء، (أي:

الأقربين المخالطين بعضُهم لبعضٍ)، ليبغي بعضهم على بعض، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليلٌ ما هم».

ويبدو أنه عند هذه المرحلة اختفى عنه الرجلان: فقد كانا مَلَكين جاءا للامتحان! امتحان النبيّ الملك الذي ولّاه اللّه أمر الناس، ليقضي بينهم بالحق والعدل، وليتبين الحق قبل إصدار الحكم وقد اختارا أن يعرضا عليه القضية في صورة صارخة مثيرة... ولكن القاضي عليه ألا يُستثارَ، وعليه ألا يتعجّل، وعليه ألا يأخذ بظاهِرِ قولٍ واحد، قبل أن يمنح الآخر فرصة للإدلاء بقوله وحجته، فقد يتغير وجهُ المسألة كله، أو بعضه، وينكشف أن ذلك الظاهر كان خادعاً أو كاذباً أو ناقصاً!

عند هذا تنبّه داود إلى أنه الابتلاء: ﴿وظن داود أنما فتناه﴾.

وهنا أدركته طبيعته... إنه أواب... ﴿فاستغفر ربه وخر راكعاً وأناب﴾[1].

كانت صورة الفتنة، كما يراها الأستاذ سيد قطب، هكذا، إلاّ أننا نميل إلى أن هذه القصة ليست هي الفتنة، وإنما هي تَنبيهٌ على الفتنة التي سبقت هذه القصة، وكانت شبيهة بها.

ولم يكن ذنب داود أنه لم يستمع إلى الخصم الثاني أولم يُتِحْ له الفرصةَ حتى يدلي بقوله وحجته، فهذا بعيد من أي إمام عادل، فضلاً عن سيدنا داود، فقد كان خليفة اللّه في الأرض حقّاً وكان أوّاباً منيباً ورسولاً نبيّاً وملكاً مقسطاً.

وإنما الواقع ـ كما يبدو من السياق ـ أن الظالمَ كان ألحنَ بحجته وكان بارعاً في عرض قضيّته، فتأثر به داود وأصدر الحكم في حقه، وإليه يشير قوله ـ تعالى ـ:

«وعزّني في الخطاب».

أي: غلبني في الحجة عند الحاكم، فحكم الحاكم في حقهِ مع أن الحقّ كان في ضده.

---

(١) في ظلال القرآن: ٧ / ٩٦، ٩٧ الطبعة الثانية.

فالذي أُخِذَ على داود أنه اكتفى بالاستماع إلى الخصمين، وأصدر الحكم في حق مَنْ تأثَّرَ بحجته، ولم يتثبّت في أمرهما ولم يتأكد من صحة قولهما، وهذا الذي اعتبر في حقه «اتباع الهوى»، فقيل له:

﴿يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض، فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى﴾.

أي: لا تعجل بالحكم معتمداً على ميلان قلبك إلى أحد الخصمين وتأثره بحجته، بل عليك بالتريّث في الحكم والتثبت في الأمر، فكم من عيٍّ عاجزٍ ضعيف يكونُ على الحق، وكم من لَسِنٍ ذَلقٍ يكونُ على الباطل!

«واتباع الهوى»، بهذا المعنى معروف في القرآن، كما جاء في شأن النبي - ﷺ -:

﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣ - ٤].

أي: ما يتكلم من عند نفسه، ولا يحكي ما يجول بخاطره، وإنما هو وحي يوحى إليه من عند ربه.

* * * * *

وعلى كل حال، فلا علاقة لهذه القصة بتلك الحالة الغرامية التي تحملها تلك الروايات، ولا مبرّر هنا لتفسير النعجة بالنساء، وإنما النعجة هي النعجة، كما هو معروف في اللغة، وكما هو واضح من السياق.

يقول الإمام أبو حيان:

«الظاهر إبقاء لفظ النعجة على حقيقتها من كونها أنثى الضأن، ولا يكنى بها عن المرأة ولا ضرورة تدعو إلى ذلك، لأن ذلك الإخبار كان صادراً من الملائكة على سبيل التصوير للمسألة والفرض لها مرة غير تلبس بشيء منها»[1].

---

(١) البحر المحيط: ٧/ ٣٩٢.

### هفوة للإمام القرطبي:

وكم تعجبنا حين رأينا القرطبي يقول في تفسيره:

«قد روى المفسرون أن داود نكح مائة امرأة، وهذا نص القرآن»[1]!

ولا نملك الآن أكثر من أن نترحّم على القرطبي، فقد قال قولاً عظيماً ولم يتفكر في عواقبه.

فليس هذا نص القرآن، وإنما هو كَذِبٌ وبهتان، تَسرَّبَ إلينا من أعداء القرآن! وليس هذا فقط، فكم تسرّب إلينا من أعداء القرآن على حينِ غفلةٍ منّا!

ولكن - مع ذلك - لن نبالغ إن قلنا: إن التأمل في نظام الآيات كفيلٌ بأن ينقش هذه الهراءات كلها من تراثنا المجيد، كما رأينا آنفاً في قصة سيدنا داود - عليه السلام -.

كما أنه كفيل بأن يجعل الآيات سهلة، سائغة، واضحة في معناها، بعد ما يستصعبها الإنسان وييأس من فهمها لكثرة ما غشيها!

### كلمة للإمام ابن كثير بخصوص تلك الآيات:

ولا بأس بأن نذكر هنا ما سجّله الإمام ابن كثير عن تلك الآيات، فهو يكشف القناع عن أهمية هذه الفكرة - فكرةِ التأمل في نظام الآيات - ويزيدنا حرصاً على التمسك بها، يقول - رحمه الله -:

«قد ذكر المفسرون ها هنا قصة أكثرها مأخوذ من الإسرائيليات، ولم يثبتْ فيها عن المعصوم حديثٌ يجب اتباعه، ولكن روى ابن أبي حاتم هنا حديثاً لا يصح سنده لأنه من رواية يزيد الرقاشي عن أنس - رضي الله عنه - ويزيد - وإنْ كان من الصالحين - لكنه ضعيفُ الحديث عند الأئمة، فالأولى أن يقتصر على مجرد تلاوة هذه القصة وأن يُرَدَّ عِلْمُها إلى الله - عز وجل - فإن القرآن حق، وما تضمن فهو حق أيضاً»[2].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ١٥ / ١٧٦.

(٢) تفسير ابن كثير: ٤ / ٣١.

فكم نحمدُ اللّه على أنْ فتحَ علينا تلك الآيات بفضل التأمل في نظامها، بعد ما يئس من فهمها هذا الإمام العملاق لكثرة ما غَشِيَها من الأكاذيبِ والإسرائيليات.

**مثال آخر:**

وإليك مثالاً آخر من هذا القبيل، فقد قال اللّه ـ تعالى ـ في نفس السورة في ذكر سيّدنا سليمان:

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ﴾ [ص: ٣٤ ـ ٤٠]، الآيات.

لقد علمنا في فاتحة الكتاب كيف تحير الناس في تأويل تلك الآيات، لكثرة ما غشيها من الإسرائيليات، ولو أنهم لجأوا إلى نظام الآيات وتأمّلوا فيه لما نالهم ما نالهم من الحيرة والكلال، فإن الآيات لم تكن بذاك الإشكال، وإنما تعب فيها من تعب لأنه لم يتمسك بنظامها.

فلنتمسّك بنظام تلك الآيات ثم لننظر في تأويلها، عسى اللّه أن يفتح علينا بفضله ما تستريح إليه النفوس.

ولكن قبل أن نغوص في نظام تلك الآيات، نودّ أن نتحقق معنى كلمتين كانتا مزلقة للأقدام، فإن الناس لو تأملوا فيهما وتحققوا معناهما لما وقعوا فيما وقعوا فيه من الإسرائيليات، واطّلعوا على ما فيها من ضعف وفساد.

**تحقيق معنى الجسد:**

اللفظة الأولى التي تسترعي الانتباه وتشي بكذب تلك الروايات هي لفظة «الجسد»، فإن الأصل في الجسد أن يكون خالياً من الروح كما يظهر من استعمالاته في القرآن وفي كلام العرب، قال ـ تعالى ـ:

﴿ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ ﴾ [الأنبياء: ٨].

قال الضحاك في تفسيره:

«يقول لم أجعلهم جسداً ليس فيهم أرواح، لا يأكلون الطعام»[1].

---

(١) تفسير الطبري: ٩ / ٥.

وقال مجاهد:

«﴿ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا ﴾، أي: ليس فيهم الروح»[1].

وقال ـ تعالى ـ:

﴿ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ﴾ [طه: ٨٨].

يقول الأستاذ الإمام سيد قطب في تفسير تلك الآية:

«فأخذها ـ أي: الحُلِيَّ ـ السامريُّ فصاغ منها عجلاً وجعل له منافذ إذا دارت فيها الريح أخرجت صوتاً كصوت الخوار، ولا حياة فيه ولا روح، فهو جسد ـ ولفظ الجسد يطلق على الجسم الذي لا حياة فيه ـ فما كادوا يرون عجلاً من ذهب يخور حتى نسوا ربهم الذي أنقذهم من أرض الذل»[2].

ومما يؤيد هذا المعنى ما قاله عُوَيفُ القوافي:

لَمَّا أتاني عن عُيينةَ أنه ... أمست عليه تظاهر الأقيادُ

نخلت له نفسي النصيحة إنه ... عند الشدائد تذهب الأحقادُ

بلغ النفوسَ بلاؤهُ فكأننا ... موتى وفينا الروحُ والأجساد[3]

وقال آخر:

إنَّ المكارمَ أرواحٌ يكون لها ... آلُ المهلّب دون الناس أجساداً[4]

وقال أبو دلامة:

إن الدُّنُوَّ من الأعداء تعلمه ... مما يُفرِّقُ بين الروح والجسد[5]

---

(١) تفسير مجاهد: ص ٤٠٧.

(٢) في ظلال القرآن: ٥ / ٩٣.

(٣) الحماسة: ص ١٤٩، رقم المقطوعة: ٧٢.

(٤) الحماسة: رقم المقطوعة: ٨١٤.

(٥) عيون الأخبار: ١ / ١٦٤، الأغاني: ٩ / ١٩٩.

تلك ثلاثة أمثلة من كلام العرب، وهي واضحة في أن الجسد في أصله لا يطلق إلا على الجسم الذي يكون خلواً من الحياة وخلواً من الروح.

فإذا كان الأصل في الجسد أن يكون خالياً من الحياة وخالياً من الروح، فكيف يجوز أن يفسّر هذا اللفظ بالجنّ كما وَهِمَ مَنْ وهم من جرّاء تلك الروايات الكاذبة التي تسرّبت إلى كتب التفسير.

**لفظة الإلقاء وإضافتها إلى ضمير الجلالة:**

ثم لو افترضنا ـ ولا مبرّر له ـ أن لفظ الجسد هنا أُطلق على الجنّ فماذا نفعل بلفظة الإلقاء؟ وهل يتصور أن النص القرآني ـ الذي يتميز بغاية الدقّة في اختيار الكلمات ـ يعبّر عن تسلّط الجنّ على ملك سليمان أو عن تسليطه عليه بلفظة «الإلقاء»؟ وهل يوجد لهذا الأسلوب نظير في القرآن أو في كلام العرب؟

ثم أضيف الإلقاء إلى ضمير الجلالة: «وألقينا»، وهو واضح في أن الإلقاء حصل من الله ـ تعالى ـ مباشرة فلا داعي للعدول عنه إلى القول بأن الإلقاء إنما حصل من القابلة، وإنما نُسبَ إلى الله تَجوُّزاً، فإنَّ حملَ اللفظ على حقيقته أَوْلى إذا لم يكن هناك صارف يصرف عنها.

**تأويل الآيات كما يوحيه إلينا السياق:**

وهنا يبرز سؤال: فما هو التأويل الصحيح لتلك الآيات؟ فلنتأمل في الآيات وفي سياقها، عسى أن نصل إلى ما نطمئن إليه في تأويلها، وها هي تلك الآيات:

«ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيّه جسداً ثم أناب، قال رب اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي، إنك أنت الوهاب، فسخّرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب، والشياطين كل بنّاء وغواص وآخرين مقرنين في الأصفاد، هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب».

فالتأمل في تلك الآيات وفي سياقها يوحي إلينا أن فتنة سيدنا سليمان كانت تكمن في استزادة الملك، وكادت تنتهي بزواله، وهذا هو السرّ في أنه لما أناب إلى ربه واستغفره تنازل عن رغبته في عِظَمِ الملك، وأظهر قناعته بالقدر القليل الضئيل الذي لا

ينبغي لأحد من بعده!

فهو ـ عليه السلام ـ تطلّع إلى ملك أعظم وأوسع مما كان عليه، كما هو من طبيعة الملك، فإنه كالماء الملح الذي كلما شربه الإنسان ازداد عطشه.

وهذا التطلّع وهذا الاستشراف ربما استولى على ذهنه وأخذ جزءاً من وقته وأدّى إلى نوع من التقصير في واجباته كنبيّ اللّه ورسوله، فألقى اللّه على كرسيّه جسداً، لا عِلْمَ لنا بِكُنْهِهِ وحقيقته، إلا أنه كان إنذاراً أنه إنْ لم يرجع عن رغبته فَسيُسلَبُ ملكه، ويظلّ على كرسيّه كهذا الجسد الذي لا حراك به.

وكان سيدنا سليمان من الأوّابيّة بحيث وصفه اللّه ـ تعالى ـ فقال:

﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ [ص: ٣٠].

فتنبّه لساعته، وتاب من خطيئته وتخلى عن أمنيّته وآبَ إلى ربه فقال:

﴿ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾.

أي: لم تعد لديّ رغبةٌ في عظم الملك واتساعه، وإنما أنا قانع منه بذلك القَدْرِ القليل الضئيل، الذي لا يليقُ بشخص ولا يصلح لأحد غيري، فهبْ لي من رحمتك، ولا تبعدني من فضلك، ولا تسلبني الملك نهائياً، فيكون ذلك دليلاً على سخطك وحجةً على حرمان عبدك من كرامتك.

فلما تواضع سليمان أمام ربه لهذه الدرجة، ووضع جبهته على عتبته بكل خشوع وتذلّل واستكانة، رفعه اللّه بقدر تواضعه، وأفاض عليه من نعمه، وآتاه ما كان يحلم به وما لم يحل به.

هذا ما يظهر لنا من نظم تلك الآيات، واللّه عنده علم الصواب.

والحق أن الناس لو تمسكوا بنظام الآيات لَمَا خُدِعَ منهم من خدع بالروايات، وما يئس منهم من يئس من الآيات.

ولعلّنا الآن أصبحنا في غنى عن التنويه بأهميّة التأمل في نظام الآيات للكشف عن دسائس الأعداء وللتخلّص من رواسبها، فقد أبدى الصريحُ عن الرغوة، وقد بيَّنَ الصبحُ لذي عينين.

* * * * *

# الفصل العاشر
# المزية العاشرة

رعاية النظام في دراسة القرآن تساعد على الوصول إلى أصول الصحاح في القرآن، فإن جملة كبيرة من الأحاديث الصحاح مأخوذة منه كما نصّ عليه جلة العلماء.

فإذا تأمل الباحث في نظام الآيات ورباط معانيها، ثم وصل إلى ما يجد له تأييداً في كلام النبوّة وآثارها، ازداد بذلك ثقة وارتياحاً إلى ما فتح اللّه عليه من خزائن حكمته، كما ازداد انشراحاً واقتناعاً بصحة ذلك الحديث، الذي وجد له أصلاً في تنزيله.

وهنا نذكر له بعض الأمثلة، حتى تتكشف ميزة جديدة من مزايا التأمل في نظم كتاب اللّه ورباط آياته.

**المثال الأول:**

قال نبيّنا ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «يا معشرَ الشبابَ، مَن استطاع منكم الباءةَ فليتزوج فإنه أغضُّ للبصر وأحصنُ للفرج».

هذا الحديث يذكّرنا قوله ـ تعالى ـ في سورة النور:

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ۞ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ

﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۞ وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٠ ـ ٣٢].

فحين نعرض الحديث على تلك الآيات، نجده مستفاداً من نَظْمِها، فالآيتان ـ الأولى والثانية ـ تأمران المؤمنين والمؤمنات بغض الأبصار وحفظ الفروج، ثم الآية الثالثة تأمر بإنكاح الأيامى والصالحين من العباد، حتى يتمكن هؤلاء من تطبيق هذا الحكم، فالآية تفيد بنظمها أن النكاح يكون معواناً على غض البصر وحفظ الفرج، ثم جاء في الحديث:

«ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وجاء»[1].

يبدو لنا أن هذا العلاج ـ لمن لا يستطيع النكاح ـ مستفاد من نظم قوله ـ تعالى ـ:

﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥].

فإن السياق وضع «الصائمين والصائمات» في جنبِ «الحافظينَ فروجهم والحافظات»، ومعلوم أن البلاغة القرآنية الرفيعة لا تسرد الكلمات سرداً، بل تضع كل كلمة في محلّها، تضعها في مكانٍ تَقتضيه الحكمةُ وتتطلبه المناسبة بحيث لا يكون لها مكان أنسب من مكانها.

فما هي الحكمة المرعية في وضع الكلمتين، إحداهما في جنب الأخرى؟ وهل هي إلا أن تفيد الآية بنظمها أن الصوم يكبت جماح النفس ويروّضها على الطُّهْرِ والعفاف، ويجعل المرء قادراً على غض البصر وحفظ الفرج؟

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي: ٩/ ١٧٢.

وعلى هذا فيكون الحديث بتمامه مستفاداً من نظم تلك الآيات.

**المثال الثاني:**

قال النبي - عليه الصلاة والسلام -:

«الصلاةُ نور»(1).

وقال - عليه السلام -:

«بَشِّر المشّائين في الظُّلَمِ إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة»(2).

حينما نقرأ ونسمع هذين الحديثين وما في معناهما، نتذكر قوله - تعالى -:

﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۞ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۞ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [النور: ٣٥ - ٣٧].

فهذه الآيات تفيد بنظمها أن الله - سبحانه وتعالى - هو مصدر النور في هذا الكون، وهو الذي يمنح من يشاء هذا النور.

ومن لم يستمدّ منه هذا النور، فما له من نور.

ثم هذا النور يتجلّى ويتبلور في تلك البيوت التي أمر الله أن تُقدّسَ وتُعظَّم ويذكر فيها اسمه، وهي المساجد.

وما للمساجد تلك الميزة وذاك الشرف إلا لكونها مواضع الصلاة والتسبيح وذكر الله.

---

(1) صحيح مسلم بشرح النووي: ٣/ ١٠٠.

(2) سنن أبي داود رقم ٥٦١ كتاب الصلاة.

والنظم يفيد أن الصلاة هي التي تُكسبُ المؤمن ذلك النور الغامر الباهر، السنيّ الوضيء، وهو الذي عبّر عنه النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ بالنور التام.

ثم بعد ما ينتهي التمثيل يعود السياق فيذكر التسبيح والصلاة مرة أخرى، ويقول:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [النور: ٤١].

فهذه الآيات تدل بنظمها على أن الصلاة نور، وهي التي تكسب المؤمن في الدنيا، ـ وستُكْسِبُه في الآخرة ـ ذلك النورَ التامّ الذي يخرق عنه حجب الظلمات، ويجعله يعيش في عالم كله إشراق ونور.

**المثال الثالث**:

شرع النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ في يوم الأضحى الصلاة قبل القربان، فقد روى البراء بن عازب أنه قال ـ عليه السلام ـ:

«إنَّ أولَ ما نبدأه في يومنا هذا نصلي ثم نرجع فننحر، فمن فعل ذلك فقد أصاب سنّتنا، ومن ذبح فإنما هو لحمٌ قدَّمه لأهلِهِ، ليس من النُّسُكِ في شيء»[(١)].

ولا يبعد أن يكون النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ قد استنبط هذا من نظمِ قوله ـ تعالى ـ:

﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ [الكوثر: ٢].

فقدَّم الصلاةَ وأخَّرَ النحر حسب ترتيبهما في نظم الآية.

ونرى كذلك أنه ـ ﷺ ـ قدّم الرمي في الحج على النحر، فقد روى أنس بن مالك: «أن رسول اللّه ـ ﷺ ـ أتى منى فأتى الجمرة، فرماها ثم أتى منزله بمنى ونحر»[(٢)].

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي: ١٣ / ١١٤.

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي: ٩ / ٥٢.

ولعل السبب في ذلك أن الرمي أيضاً من جنس الصلاة، فإن الله ـ تعالى ـ سماهما ذكراً فقال عن الصلاة:

﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ [الأعلى: ١٥].

وقال عن الرمي:

﴿۞ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ﴾ [البقرة: ٢٠٣].

أجمع المفسرون على أن المراد هنا بالذكر هو الرمي.

فكما أنه ـ عليه السلام ـ قدم الصلاة على النحر رعاية لترتيبهما في النظم فكذلك قدم الرمي في الحج على النحر لكونه من جنس الصلاة.

**المثال الرابع:**

روى عبدالله بن بسر أن رجلاً قال:

يا رسول الله، إن شرائع الإسلام قد كثرت عليّ فأخبرني بشيء أتشبثُ به، قال: «لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله»[1].

يغلب على ظنّنا أن ما وصفه النبي ـ ﷺ ـ لذلك الرجل مُستفادٌ من نظم قوله ـ تعالى ـ:

﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥].

فإن الله ـ تعالى ـ ذكر صفات عديدة ومتنوعة للمؤمنين ثم ختمها بالذكر فقال:

﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾.

---

(١) الترمذي، باب فضل الذكر رقم ٣٣٧٢.

وهذا النظم يلهم أن الذكر هو ملاكُ الأمرِ وقطبُ الشرائع، فمن تشبّث به هان عليه الأمر ولم تكثر عليه الشرائع.

**المثال الخامس:**

عن علي بن أبي طالب قال قال رسول الله ـ ﷺ ـ:

«من ملك راحلة وزاداً يبلغه إلى بيت الله الحرام ولم يحج، فلا عليه أن يموت يهودياً أو نصرانياً»[1].

ويشبهه ما روى سعيد بن منصور والبيهقي عن عمر بن الخطاب أنه قال:

«لقد هممتُ أن أبعثَ رجالاً إلى هذه الأمصار فينظروا كلَّ مَنْ له جِدَةٌ ولم يحجَّ فيضربوا عليه الجزية، ما هم بمسلمين، ما هم بمسلمين»، هذا لفظ سعيد، ولفظ البيهقي أن عمر قال:

«لِيَمُتْ يهودياً أو نصرانياً ـ يقولها ثلاث مرات ـ رجلٌ مات ولم يحج ووجد لذلك سعة وخليت سبيله»[2].

إن تلك الروايات وما في معناها ناظرة إلى قوله ـ تعالى ـ:

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ * فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦ ـ ٩٧].

فإن الآية تفيد بنظمها أن حج البيت واجب على كل من استطاع إليه سبيلاً، فمن ملك الزاد والراحلة ولم يشدّ رَحْلَهُ إلى الكعبةِ تهاوناً بها واستخفافاً لأمرها، فهو كافر منافق، ولا عليه أن يموت يهودياً أو نصرانياً أو مجوسياً أو ما شاء، والله غنيٌّ عنه، فهو بإعراضه عن البيت لن يضرّ الله شيئاً، وإنما يضر نفسه:

---

(١) الترمذي رقم ٨١٢ في الحج، باب ما جاء في التغليظ في ترك الحج.

(٢) جامع الأصول لابن كثير ٣ / ٧ في الهامش، الطبعة الأولى ١٣٩٠هـ.

﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

**المثال السادس:**

عن أبي هريرة أن رسول اللّه ـ ﷺ ـ قال:

«أقربُ ما يكونُ العبدُ من ربّه ـ عزّ وجل ـ وهو ساجد فأكثروا الدعاء»[1].

من الواضح المتبادر أن هذا الحديث مستفاد من نظم قوله ـ تعالى ـ:

﴿ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴾ [العلق: ١٩].

فإن العبارة بنظمها تدل على أن السجود يقرّب المؤمن إلى ربّه، فمن سجد اقترب إلى اللّه، وهذه القربة القريبة لا تحصل إلا في حالة السجود، فإنها لو كانت حاصلة في غيرها لما ربطها القرآن بتلك الحالة.

**المثال السابع:**

عن أنس بن مالك أن النبي ـ ﷺ ـ قال:

«الدعاء مخّ العبادة»[2].

يبدو للناظر، حين ينظر في هذا الحديث أنه مستفاد من نظم قوله ـ تعالى ـ:

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [المؤمن: ٦٠].

﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴾ [الأحقاف: ٥ ـ ٦].

فالآيتان بنظمهما تفيدان نفس المعنى ـ ذلكمُ المعنى الذي يتضمنهُ الحديث، فإن السياق ـ في الآيتين ـ جاء أولاً بلفظة «الدعاء»، ثم تحوّل عنها إلى لفظة «العبادة» مع أن المدلول هو هو لم يتغيّر.

---

(١) أبو داود رقم ٨٧٥، كتاب الصلاة.

(٢) الترمذي رقم ٣٣٦٨ في الدعوات.

وهذا تلميح إلى أن الدعاء والعبادة بينهما قرابة ماسّة، وأن الدعاء هو جوهر العبادة وروحها، أو مخها وحقيقتها.

وهناك رواية أخرى عن النعمان بن بشير عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال:

«الدعاء هو العبادة»، ثم قرأ:

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[1].

فهذه الرواية صرّحت أن النبي ـ ﷺ ـ استنبط هذا المعنى من نظم الآية.

وهكذا كان دأبه ـ عليه الصلاة والسلام ـ فإنه كان أحياناً ينبّه إلى مُسْتَدلّهِ من كتابِ اللّه وأخرى يتركه، ويَكِلُه إلى فَهْمِ الفاهمين.

ونذكر هنا ـ على سبيل المثال ـ حديثاً جمع بين الأمرين، فإنه ـ عليه السلام ـ نبّه على مستدلّ بعضه من كتاب اللّه وترك بعضه الآخر على فهم الفاهمين، وها هو نصّ الحديث:

«عن أبي عبيدة عن عبداللّه بن مسعود قال: قال رسول اللّه ـ ﷺ ـ:

إنَّ أولَ ما دخل النقصُ على بني إسرائيل، كان الرجلُ يلقى الرجلَ فيقول: يا هذا، اتق اللّه ودع ما تصنع فإنه لا يحلُّ لك، ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أَكِيلَهُ وشَرِيبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك ضرب اللّه قلوب بعضهم ببعض»، ثم قال: ﴿لُعِنَ الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم﴾، إلى قوله ﴿فاسقون﴾، «ثم قال: كلاّ واللّه لَتأمُرُنَّ بالمعروفِ ولتنهونَّ عن المنكر ولتأخذنّ على يدي الظالم ولَتأطُرنَّهُ على الحق أطراً ولَتقصرنّه على الحق»، وزاد في رواية: «أو لَيضرِبَنَّ اللّه بقلوبِ بعضكم على بعض، ثم ليلعننكم كما لعنهم»[2].

---

(١) الترمذي رقم ٣٢٤٤ في التفسير باب ومن سورة المؤمن.

(٢) رواه أبو داود: رقم ٤٣٣٦ في باب الأمر والنهي.

فنرى النبي ـ ﷺ ـ نبّه على مُستدلٍّ شطرٍ من الحديث، وهو كونُ بني إسرائيل ملعونين لأنهم تركوا بينهم الأمرَ بالمعروف والنهي عن المنكر، واتخذوا المجرمين أولياء، وأصبحوا أكيلهم وشريبهم وقعيدهم، فالآيات التي تلاها ـ عليه السلام ـ في ضمن حديثه تفيد ذلك، إلاّ أنها لا تمسّ الشطر الآخر، وهو أنهم لما فعلوا ذلك ضرب اللّه قلوبَ بعضهم ببعض.

ولا يبعد أن يكون هذا الشطر من الحديث مستفاداً من نظم تلك الآيات:

﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ * وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٣ ـ ١٠٥].

فتلك الآيات تفيد بنظمها أن الاعتصام بحبل اللّه والابتعاد عن الفرقة ـ الذي هو سرّ الفلاح وسلّم النجاح ـ مرهونٌ بقيام الأمة بواجب الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فما دامت الأمة قائمة بواجبها يتسنّى لها الاعتصام بحبل اللّه، وتبقى بمفازة من الفرقة، وتعيش ـ ما عاشت ـ في ظلال الألفة والأخوة.

وأما إذا أهملت وظيفتها، وتخلّت عن واجبها، فلم تتآمر بالمعروف ولم تتناه عن المنكر فيوشك أن يدبّ فيها الخلافُ والشقاق، ويضرب اللّه قلوب بعضها ببعض.

فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو الدواء الناجع لهذا الداء العضال، الذي يوهن الشعوب ويأكل الأجيال.

وبنو إسرائيل لم يحرصوا على هذا الدواء فاستشرى فيهم الداء، وحلّ بهم البلاء، وآل أمرهم إلى الشقاء، فجاءت الوصية لهذه الأمة:

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ * وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُۚ﴾.

هذه بضعة أمثلة، ولقد خلت لها بعض النظائر في الفصول السابقة ولعلّ فيها غنى وكفاية للاقتناع بأن التأمل في نظام الآيات يساعد على الوصول إلى أصول الصحاح في القرآن.

تلك عشرة كاملة من مزايا تتبع النظام في آي القرآن، وإن شئت فزد إليها واحدة حتى تكون أحد عشر كوكباً في هداية الحيارى إلى أهمية النظام.

* * * * *

# الفصل الحادي عشر
# المزية الحادية عشرة

وهي أن الوقوف على نظام الآيات يؤدي بالمرء إلى ذروة الشوق والمحبة واللذة، التي لا يرقى إليها مَنْ لا يهتم بنظامها، فإن هذه المشاعر، وتلك الأحاسيس تزداد بقدر زيادة المعرفة بمحاسن الكلام وحسن النظام وقوة البرهان.

ولسنا بحاجة إلى التدليل عليه وإفاضة القول فيه، فهو أوضحُ من فَلَقِ الصبح وأبينُ من غُرَّةِ النهار.

* * * * *

# الباب الرابع
# معالم في الطريق

تكرار القصص.

تشابه الآيات.

العود على البدء.

الاتحاد في الفواتح والأسماء.

الاتحاد في اللون.

تكرار كلمات خاصة.

دلالة الروابط.

تكرار الآيات.

التشابه بين نظم آية وسورة.

بعد أن انتهينا من بيان تلك المزايا التي تظهر نتيجة للعناية بنظام الآيات نودّ أن نشير إلى بعض المعالم التي من شأنها أن تكون زاداً وهداية لمن كان يريد أن يواصل المسير في هذا المجال.

ونعني بالمعالم تلك الإشارات والملامح التي أودعها اللّه في كتابه، فإنه ـ تعالى ـ لما جعل نظم هذا الكتاب في غاية الدقة والخفاء[1]، حتى إن الناظر فيه يخيل إليه بادىء ذي بدء أنه لا رباطَ فيه ولا نظام، ضَمَّنهُ إشاراتٍ وملامحَ تنقضُ هذا الوهم، وتدعو الباحث المتأمل إلى الوقوف عندها، ثم تهيب به إلى التأمل في الوشائج التي تربط الآيات، بعضها مع بعض.

تلك الإشارات وتلك الملامح تحثُ الباحثَ حثاً على التدبر والإمعان، إلى أن تشرق له الآيات بحكمها ومعانيها كفلق الصبح، وتتجلى له وشائجها كأنه يراها رأي العين.

والمعالم التي أودعها اللّه في كتابه كثيرة متنوعة، فنحن نذكر هنا جزءاً منها حتى تكون مثالاً لما بعدها، وهي ـ لشدة وضوحها وكثرة ورودها ـ بحيث تكاد تُلْمَسُ بالرَّاح.

* * * * *

---

(١) وقد بينا الحكمة في ذلك في خاتمة كتابنا: (البرهان في نظام القرآن: ص ٥٩٩ ـ ٦٠٥).

# الفصل الأول
# تكرار القصص

فمن تلك المعالم تكرار القصص مع تنوع الدلالة والهدف، فإن قصة واحدة تتكرر أحياناً عدة مرات، وتأتي في سور متعددة بأساليب منوّعة وألوان متميزة.

فهذه قصة آدم وإبليس، جاءت في القرآن سبع مرات في سبع سور مختلفة، ولكنها تحمل في كل سورة لوناً متفرداً وطبيعة متميزة، وجاءت ـ كلّما جاءت ـ بإيحاءاتٍ غير إيحاءاتِها في مكان آخر.

هذا، ونرى كذلك أن سورة واحدة تجمع بين قصص مختلفة بحيث يعمّها لونٌ واحد وأسلوب واحد وطابع واحد على رغم ما يفصل بينها من فترة هائلة وقرون متطاولة.

فهذه سورة الشعراء تحكي لنا بعض مصارع الطغاة بحيث يُلوِّنُ جميعَها لونٌ واحد، فكل واحد من تلك المصارع يبدأ بقوله ـ تعالى ـ:

﴿ألا تتقون؟ إني لكم رسول أمين. فاتقوا اللّه وأطيعون. وما أسألكم عليه من أجر. إن أجري إلا على رب العالمين﴾.

ثم ينتهي بقوله ـ تعالى ـ:

﴿إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين. وإن ربك لهو العزيز الرحيم﴾.

فهذا الأسلوب ـ أسلوب عرض قصة واحدة بأساليب منوّعة وألوان متميزة وصياغة قصص مختلفة ومتعددة بحيث يعمّها لون واحد وطابع واحد ـ هذا الأسلوب

كما أنه يدل على أن القرآن جاء على نظم رصين ودقيق، وأنه يتناول القصة أو القصص حسبما يقتضي جوّ السورة وهدفها وطبيعتها، فكذلك يساعد على فهم السورة وجوّها، ويكون معواناً على استيعاب هدفها وطبيعتها، لما أنها تذكرُ ما تذكرُ من قصة أو قصص حسبما يلائم طبيعتها ويساير هدفها.

فالتأمل في هذه القصص ـ وهي كما هي في سياقها وجوّها ـ له دور كبير في استيعاب نظم السورة وفي فهم ظلالها وإيحاءاتها.

ولا بأس بأن نتأمل هنا في بعض النماذج حتى يتبين مدى مناسبة هذه القصص لجوّ السورة وطبيعتها من تنوع أهدافها ودلالاتها.

إلا أن الموقف لا يسمح لنا بأن نتنفّس في عرض تلك النماذج فسنكتفي بالتلميح إلى بعض الملامح البارزة فيها ثم نترك للقارىء أن يمعن فيها النظر ويستخرج ما أودع فيها من نفائس الدرر.

**قصة آدم في سورة البقرة:**

نأخذ أولاً سورة البقرة، فقد جاءت فيها قصة آدم بلونٍ يخصُّها، فقد استُهِلّت القصةُ فيها بتلك الآيات:

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ * قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ [البقرة: ٣٠ ـ ٣٣].

هذه الحلقة من قصة آدم لا توجد في أية سورة غير هذه السورة.

هذا الوضع يدفعنا إلى البحث عن سرّ هذا الاختصاص.

فحين نتأمل في هذه القصة ثم نتأمل في الجوّ الذي يحيط بها نجد أن هذا

المضمون ـ الذي تفردت به القصة في هذه السورة ـ له مناسبة خاصة بجوّ السورة.

فلنمعن النظر أولاً في هذا المضمون، الذي خُصَّتْ به هذه السورة.

فالتأمل فيه يكشف لنا أن اللّه ـ تعالى ـ لم يأمر الملائكة بالسجود لآدم إلا بعد ما أظهرَ فضلَهُ مَنْ ناحية العلم، وبذلك أقنعهم بأن آدم جدير حقاً بأن يكون خليفة في الأرض.

ونستخلص منه أن الخلافة في الأرض تعتمد على العلم، فإن اللّه ـ سبحانه وتعالى ـ عليم، وهو لا يرضى لخلافته إلا من يكون متضلّعاً من العلم، فالعلم هو العمدة والأساس، وهو الذي يؤهّل ـ من يؤهّل ـ للخلافة في الأرض.

ثم حين نتجاوز هذه القصة إلى جوّ السورة بشكل عامّ، نجد أن هذه السورة ـ في عمومها ـ جاءت لإثبات رسالة محمد ـ ﷺ ـ ومعلوم أن مبعثه ـ عليه السلام ـ كان إيذاناً بنقل الخلافة من بني إسرائيل إلى قوم آخرين، لما أنهم ضيّعوا العلم وكتموا الحق ولَبَّسوه بالباطل، وقد فُصِّلَتْ هذه الظاهرة تفصيلاً في هذه السورة.

فلما لم يتمسّك بنو إسرائيل بالعلم ولم يحافظوا عليه وضيّعوه باللبس والكتمان لم تبق عندهم إلا الأهواء كما قال ـ تعالى ـ:

﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [البقرة: ١٢٠].

﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة: ١٤٥].

هذا، ثم نرى اللّه ـ تعالى ـ حين قرر أن يحوّل الخلافة من بني إسرائيل إلى الأميين بعث فيهم رسولاً يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة:

﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٥١].

ثم نرى في نفس السورة أن بني إسرائيل لما قالوا لنبيٍّ لهم:

﴿ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل اللّه﴾.

قال لهم نبيّهم:

«إن اللّه قد بعث لكم طالوت ملكاً».

ودلّ على سرٍّ هذا الاختيار ـ وهو البسطةُ في العلم والجسم ـ حيث قال:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ﴾ [البقرة: ٢٤٧].

ثم لما انهزم جالوت وجنوده، وقتله داود، انتقل الملك إليه، والذي أهّله لهذا الملك العظيم هو العلم والحكمة، حيث قال ـ تعالى ـ:

﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُۗ﴾ [البقرة: ٢٥١].

لعل هذا القدر من الكلام يكفي لإدراك المناسبة بين جوّ السورة وبين تلك الحلقة من قصة آدم، التي خصت بها هذه السورة.

**قصة آدم في سورة الأعراف:**

ثم ننتقل إلى سورة الأعراف، التي تعرض القصة في لون آخر، قال ـ تعالى ـ:

﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۞ فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ ۞ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ۞ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٖۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ﴾ [الأعراف: ١٩ ـ ٢٢].

هذه الحلقة من قصة آدم ذكرت في هذه السورة فقط، ولم تذكر في أية سورة أخرى غير هذه السورة.

ثم نراها تَتّسقُ تماماً مع جَوِّ السورة كما أنها تناسب الآيات التي تليها مناسبة تامة.

بيان ذلك أن الشيطان، مع ما كان يُكِنُّ لآدمَ وزوجه من الحقدِ والضغينة والحسد، فإنه جاءَ إليهما في ثوبِ الناصح الأمين حيث قال لهما:

﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾.

ومن هنا خُدِعَ آدمُ وخُدعت زوجه واغترا بنصحه حتى نزع عنهما لباسهما وخلع عنهما كرامتهما.

ومن العجب العجاب أنهما وقعا في شبكةِ مَكْرِه بعد ما انكشف أمره واتضح أنه لهما عدو مبين.

وهذا ما تكرر مع هؤلاء المشركين، فإن الشيطان الذي تعرّض لأبويهم في زيّ الناصح الأمين، ثم نزع عنهما لباسهما، تَعَّرض لهم كذلك في نفس الثوب، ثم نزع عنهم لباسهم وتركهم عراة مكشوفين[1].

ثم هو نزع عن أبويهم الثياب وهما كانا في الجنة، ونزع عنهم ثيابهم كذلك وهم في بقعة من بقاع الجنة، ألا وهي الكعبة[2] فهم يطوفون بالكعبة عراة ويحسبون أنهم

---

(١) قال مجاهد في قوله ـ تعالى ـ: ﴿قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوءاتكم﴾ الآية ٢٦.
«كان ناس من العرب يطوفون بالبيت عراة فأُمروا باللباس»، (تفسير مجاهد: ص ٢٣٣)، وقال في تأويل قوله ـ تعالى ـ: ﴿خذوا زينتكم عند كل مسجد﴾ الآية ٣١، «يعني به قريشاً لتركهم الثياب في الطواف»، (تفسير مجاهد ص ٢٣٥). وليس هذا مقصوراً على مجاهد، فجمهور المفسرين يربطون تلك الآيات بطواف المشركين عراة.

(٢) إن الكعبة بقعة من بقاع الجنة كما أن ما بين بيت النبي ـ عليه السلام ـ ومنبره روضة من رياض الجنة، وللإمام الفراهي لسورة الكوثر ص: ٧ تحت عنوان: «اللوامع الدّالة على أن الكوثر هو الكعبة وما حولها».
وأيضاً فقد ورد النص بأن الحجر الأسود حجر من أحجار الجنة، فإن كنا نقول: «إن للجزء حكم الكل وللكل حكم الجزء»، فلا مانع من أن نقول: إن كون الحجر الأسود من أحجار الجنة إشارة واضحة إلى أن الكعبة بقعة من بقاع الجنة.
وهناك دلائل أُخَر يمكن أن نستأنسَ بها ولكن الخوض فيها يبعدنا عما نحن فيه، فنكتفي بتلك الإشارة.

يحسنون صنعاً.

ثم الشيطان أتاهم وألهاهم ببعض الخبائث وحرمهم من كثير من الطيبات وقد مرّ تفصيلها في السورة السابقة، وهي سورة الأنعام[1] وجاءت الإشارة إليها في هذه السورة كذلك حيث قال:

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢].

وهذا نفس ما جرى مع أبيهم آدم وأمهم حواء فإن الشيطان حرّضهما على الأكل من شجرة محظورة لم تكن في مصلحتهما، وبذلك أخرجهما من الجنة، وقطع عنهما تلك الطيبات الغامرة التي كانا يتقلبان فيها.

ثم حصل هذا كله وهم لم ينتبهوا لعداوة الشيطان، فإنه وقر في أذهانهم أنه لهم ناصح أمين، كما قال ـ تعالى ـ:

﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٠].

وهذا نفس ما جرى مع أبيهم آدم وزوجه فإن الشيطان ما زال يفتل منهما في الذروة والغارب وما زال يقرّدهما[2] حتى استمكن منهما ثم أوقعهما فيما أوقعهما فيه:

﴿وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين. فدلّاهما بغرور﴾.

وإنما الفارق بينهم وبين أبويهم أنهما تورّطا ثم تنبّها وتخلّصا وهم تورّطوا فلم ينتبهوا وقالوا حَسْبُنا ما نحنُ فيه!

وهكذا تظهر مناسبة هذه القصة للآيات التي تليها.

ثم هذه القصة وردت في القرآن سبع مرات في سبعة مواضع، ولكن لم تذكر مقاسمة الشيطان وقوله: ﴿إني لكما لمن الناصحين﴾ إلا في هذه السورة.

---

(١) انظر الآيات: (١٣٦ ـ ١٤٤).

(٢) أي: يخدعهما.

وهنا يظهر مدى مناسبة هذه القصة لجوّ السورة كلها، فإننا نرى هذه السورة قد تكرر فيها معنى النُّصْحِ عدةَ مرات على لسان عدد من الأنبياء:

فقد قال نوح لقومه:

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦١ ـ ٦٢].

ثم قال هود لقومه:

﴿يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف: ٦٧ ـ ٦٨].

ثم قال صالح لقومه:

﴿يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين﴾ [الأعراف: ٧٩].

ثم قال شعيب لقومه:

﴿يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ٩٣].

ثم جاء في شأن النبي ـ عليه السلام ـ:

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٤].

ومعلومٌ أن الإنذارَ لا يكونُ إلا بدافعِ النُّصْحِ، «فالنذير المبين»، و«الناصح الأمين»، وإنْ كانا مختلفين في المبنى، فهما متقاربان في المعنى.

ثم التحذيرات الإلهية، التي وردت في هذه السورة يغلب عليها طابع النصح كذلك. تدبر معي تلك الآيات:

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۞ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ۞ أَوَأَمِنَ

أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ * أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٦ ـ ٩٩].

وبذلك نرى السورة كلّها كأنها صِيغَتْ في قالب النصح، وتلك ميزةٌ من ميزات هذه السورة، التي لا توجد في أيّة سورة أخرى، بقدر ما توجد فيها.

فلما ذكر الوحي تلك القصة في هذه السورة فكأنه وضع بجانب هذا النصح الخالص الذي يخص الله ورسله وأنبياءه ذلك النصحَ الخادعَ الفارغ الذي يُظهرهُ الشيطانُ لبني آدم حتى يوردهم مواردَ الهلاك.

وبذلك نرى السورة كيف تُلوّنُ القصصَ بلونها وتنظمها في سلكها كما نرى التأمل في القصص يساعد على العثور على جوّ السورة التي جاءت فيها ويساعد على العثور على طبيعتها.

### قصة ادم في سورة الحجر:

ثم تكررت قصة آدم في سورة الحجر كذلك، ولكن طبيعتها وإيحاءاتها فيها تختلف عن طبيعتها وإيحاءاتها في غيرها، تدبر معي تلك الآيات:

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ * فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ * قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ * قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ * قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ * قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ * إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ * قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الحجر: ٢٨ ـ ٣٩].

حينما نتأمل في تلك الآيات نجدها يغلب عليها طابع السجود، فإن معنى السجود لم يتكرر في أية سورة كما تكرر في تلك الآيات، فقد تكررت فيها تلك الكلمة في مختلف صيغها خمس مرّات، زِدْ إلى ذلك أن مقطع السورة أيضاً جاء يحمل طابع السجود:

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ * وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ [الحجر: ٩٧ ـ ٩٩].

وشيء آخر نلاحظه في تلك الآيات، هو أنها تعرض وجهاً آخر من فتنة الشيطان، فإن هذه الفتنة تختلف عن التي مضت معنا في سورة الأعراف، فقد كانت في سورة الأعراف كما تعرضها تلك الآيات:

﴿ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٦ ـ ١٧].

بينما طبيعتها تختلف في هذه السورة حيث قال:

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾.

وبيانه أن الشيطان تحدّى في سورة الأعراف بأنه سيأتي العبادَ في ثوبِ النصح والمودة، فإن قوله: ﴿ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ ۖ ﴾، يحمل هذا المعنى، وهذا نفس الأسلوب الذي جاء في شأن الأنبياء ـ عليهم السلام ـ، ونُصْحهم لقومهم:

﴿ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ۖ ﴾ [فصّلت: ١٤].

فهو يتصدى لهم كالناصح الأمين ثم يقطع عليهم الطريق ويصرفهم عن محجة الشكر كما قال:

﴿ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾.

وأما في هذه السورة فالشيطان يتحدى فيها بأنه سيميلُ بهم إلى زينةِ الدنيا، ثم يستدرجهم إلى هاوية الغواية:

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾.

ثم نرى مطلع السورة أيضاً يحمل نفس اللون:

﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الحجر: ٣].

وهذا اللون هو الذي يسود آخر السورة حيث قال تعالى :

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ * فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ [الحجر : ٨٣ ـ ٨٤].

﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ ﴾ [الحجر : ٨٨].

**قصة آدم في سورة الإسراء :**

ثم تجيء سورة الإسراء، وهي تحكي لنا تلك القصة في جوّ يختلف عن جوّ السور الأخرى، حيث قال :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا * قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا * قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا * وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا * إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴾ [الإسراء : ٦١ ـ ٦٥].

فهذه السورة تعرض القصة في صورة كلها إرهابٌ واستفزاز.

ثم إن شئنا أن نقيس مدى ملاءمة هذه القصة لجوّ السورة فلنضع في اعتبارنا تلك الآيات :

﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا * سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴾ [الإسراء : ٧٦ ـ ٧٧].

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا * قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا * فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴾ [الإسراء : ١٠١ ـ ١٠٣].

فما أشبه هذه الآيات بتلك التي مضت معنا في قصة آدم وإبليس، خاصة هذه الآية :

﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [الإسراء : ٦٤].

فلننظر كيف صاغ الوحي هنا تلك القصة صياغة جديدة متلائمة مع هذا الجوّ الذي يرمي بشرر الإرهاب والاستفزاز.

علماً بأن تلك الكلمة ـ كلمة الاستفزاز ـ لم تستعمل في القرآن إلا في تلك السورة.

واستعملت فيها ثلاث مرات، مرة في قصة آدم وإبليس، وأخرى في شأن قريش وثالثة في شأن فرعون.

**قصة آدم في سورة الكهف:**

ثم تجيء سورة الكهف، وتعرض القصة عرضاً يعطيها لوناً آخر.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠].

فهذه السورة تكشف لأول مرة أن إبليس كان من الجن، وإلا فالسور الستّ الأخرى ساكتة عن هذا الموضوع.

فهذا البيان لا بد أن تكونَ له صِلَةٌ بمضمون السورة، ولا بد أن يكون له دور في تقرير هدفها، فلننظر ما هي صلته بمضمون السورة، وما هو دوره في تقرير هدفها.

إنْ كنا نود أن نطّلعَ على هذا السرّ فلنستحضر في أذهاننا تلك الآيات:

﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۝ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ٤ ـ ٥].

﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [الكهف: ١٥].

﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ۝ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٦ ـ ٢٧].

﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ

بِرَبِّيٓ أَحَدًا ❁ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ❁ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ [الكهف: ٤٢ ـ ٤٤].

﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴾ [الكهف: ٥٢].

﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا﴾ [الكهف: ١٠٢].

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

واضح من تلك الآيات أن هذه السورة تركّز على إثبات التوحيد ونفي الشرك فهي تعلن أن اللّه ليس له ولد. وليس له شريك. ولا مبدّل لكلماته. والذين قالوا اتخذ اللّه ولدا، كاذبون في قولهم. وما لهم به من علم ولا لآبائهم.

فمن الذي كان يعنيه المشركون حين قالوا: اتخذ اللّه ولدا؟

ومن الذين قد اتخذوهم أولياء من دون اللّه؟

يمكن أن نجد الإجابة على هذين السؤالين في تلك الآيات:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ❁ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ [الكهف: ٥٠ ـ ٥١].

فتلك الآيات صريحة في أن الكلام هنا دائر حول الجن، فالعرب المشركون كانوا يعبدون الجنَّ، وكانوا يقولون ـ زوراً ـ إنهم ولد اللّه وشريكه في الملك، وإن لهم وجاهةً عند اللّه، وقدرةً على تبديل كلمات اللّه.

فتناول القرآن هذا الموضوع من عدة جوانب:

١ ـ ما هو مصدر علمكم بأن اللّه اتخذ ولداً؟ أليس هذا قولاً بلا علم؟

٢ ـ إن اللّه لم يُشْهدهم خلقَ السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم، فإذا كان هذا

الخلق كلّه قد أنشىء وهم في حيّز العدم، بل هم أنفسهم خُلقوا، ولم يشهدوا خلقهم، فمن أين لهم أن يكونوا شركاءه في الملك؟

٣ ـ ثم هؤلاء كلهم غواة، وكلهم مضلّون، فمن أين حصلت لهم تلك الوجاهة عند اللّه؟ مع أن اللّه لا يحب المضلين:

﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾.

٤ ـ كيف طابت أنفسكم أن تتخذوا الجنَّ أولياء من دون اللّه؟ وهل تَفكَّرتم يوماً أن هؤلاء الذين اتخذتموهم أولياء، مَنْ هم؟ هم إبليسُ وذريته ـ أعداؤكم وأعداء أبيكم آدم! فكيف نسيتم ربكم الذي كرّمكم وأنعم عليكم؟ وكيف رضيتم بعدوّكم وعدوّ أبيكم أولياء من دونه؟

﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾.

وهنا ينكشف لنا سرّ هذا البيان في تلك السورة، فلننظر كيف تناول السياق هنا تلك القصة حتى تناسقت مع جوّ السورة تماماً.

ولا شك أن هذا الوضع إنْ دَلَّ على شيء فإنما يدلّ على ذلك النظم الدقيق العميق الذي يميز القرآن من بين سائر الكلام.

ثم انظر إلى التأمل في هذا البيان كيف ساعدنا على فهم طبيعة السورة واستيعاب هدفها.

**قصة ادم في سورة طه:**

ثم تجيء سورة طه، وهي تلقي على القصة ظلالاً لا توجد في أية سورة أخرى:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ * فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ * إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ * فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ * فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ * ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ * قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا

الخلق كلّه قد أنشىء وهم في حيّز العدم، بل هم أنفسهم خُلقوا، ولم يشهدوا خلقهم، فمن أين لهم أن يكونوا شركاءه في الملك؟

٣ ـ ثم هؤلاء كلهم غواة، وكلهم مضلّون، فمن أين حصلت لهم تلك الوجاهة عند اللّه؟ مع أن اللّه لا يحب المضلين:

﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾.

٤ ـ كيف طابت أنفسكم أن تتخذوا الجنَّ أولياء من دون اللّه؟ وهل تَفكَّرتم يوماً أن هؤلاء الذين اتخذتموهم أولياء، مَنْ هم؟ هم إبليسُ وذريته ـ أعداؤكم وأعداء أبيكم آدم! فكيف نسيتم ربكم الذي كرّمكم وأنعم عليكم؟ وكيف رضيتم بعدوّكم وعدوّ أبيكم أولياء من دونه؟

﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾.

وهنا ينكشف لنا سرّ هذا البيان في تلك السورة، فلننظر كيف تناول السياق هنا تلك القصة حتى تناسقت مع جوّ السورة تماماً.

ولا شك أن هذا الوضع إنْ دَلَّ على شيء فإنما يدلّ على ذلك النظم الدقيق العميق الذي يميز القرآن من بين سائر الكلام.

ثم انظر إلى التأمل في هذا البيان كيف ساعدنا على فهم طبيعة السورة واستيعاب هدفها.

**قصة آدم في سورة طه:**

ثم تجيء سورة طه، وهي تلقي على القصة ظلالاً لا توجد في أية سورة أخرى:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ * فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ * إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ * فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ * فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ * ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ * قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا

يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١١٦ ـ ١٢٣].

فالشيء الذي نلاحظ هنا في تلك القصة هو أنها سيقت كشاهدٍ على ضَعْفِ عزيمة الإنسان فإن السياق قبل أن يبدأ القصة يصرح بتلك الظاهرة البشرية:

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥].

ثم نرى هنا في السياق تنبيهاً واضحاً صريحاً على عداوة إبليس:

﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾.

هذا التنبيه الواضح الصريح على عداوة إبليس بهذا الأسلوب المكشوف لا يوجد في أية سورة أخرى.

ولكن هذا الإنذار لم يغن عن آدم شيئاً، فإن ضعف العزيمة ظهر بآثاره الوخيمة، ووقع آدمُ فريسةً لكيدِ عدوه، ونسي ما أنذره ربه، فيصرح السياق بما وقع من آدم بأسلوب مثير، تشعر فيه بشيء من سخونة العتاب:

﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾.

هذا التصريح بعصيان آدم وغوايته لم يرد في أيّة سورة أخرى.

ثم تظهر لنا مناسبة القصة لجوّ السورة حين نرى في هذه السورة أن بني إسرائيل أيضاً أُنذروا بمثل ما أُنذر به آدم، ثم وقع منهم ما وقع من آدم، تدبر معي تلك الآيات:

﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ * كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ﴾ [طه: ٨٠ ـ ٨١].

فلما ذهب موسى لميقات ربّه فوجىء هناك بهذا النبأ الفظيع:

﴿قال فإنا قد فتنّا قومك من بعدك وأضلهم السامريّ﴾.

فرجع إلى قومه وقرعهم بعصا الملامة وعنّفهم على سُرعةِ نكوصهم وتَحَلُّلِ عزيمتهم وإخلافِ موعدهم بعد هذا الإنذار الصارخ الصريح حيث قال:

﴿يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي﴾ [طه: ٨٦].

ما أشبه الليلة بالبارحة! فهل تجد أي فارق بين ما جرى لبني إسرائيل مع السامري وبين ما جرى لآدم مع إبليس؟

ثم هناك شيء آخر، فإن النبي ـ عليه السلام ـ لما أظهر رغبته العارمة في نزول القرآن في أسرع وقت حتى يروي عطشه ويثلج صدره، لم تستجب حكمة الله لتلك الرغبة نظراً إلى ضعف عزيمة الإنسان، الذي تمثّله قصة آدم وأمره بالصبر واستزادة العلم:

﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۗ وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥۖ وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا * وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبۡلُ فَنَسِيَ وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمٗا﴾ [طه: ١١٤ ـ ١١٥].

وهناك شيء آخر يجدر بالانتباه، فإن السياق يقول في مطلع السورة:

﴿طه * مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ﴾.

ثم يقول في تلك القصة:

﴿إِنَّ هَٰذَا عَدُوّٞ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ﴾.

ثم يقول بعد خمس آيات:

﴿فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى﴾.

فاستُهِلّت السورةُ بنفي «الشقاء»، ثم كررت تلك الكلمةُ في القصة مرتين، أليس هذا دليلاً على أن هناك شيئاً يربط القصة بمطلع السورة؟

**قصة آدم في سورة ﴿ص﴾:**

ثم تجيء سورة ص، وهي تُلبسُ القصةَ ثوباً فضفاضاً من العزة والكبرياء والجبروت، تدبر معي تلك الآيات:

﴿إِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرٗا مِّن طِينٖ * فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ

سَٰجِدِينَ * فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ * قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ * قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ * قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ * قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ * إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ * قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ * قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ * لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٧١ ـ ٨٥].

حينما نضع تلك القصة ـ كما ذكرتها سورة ﴿ص﴾ ـ في جنب مطلع هذه السورة نجد بينهما وجوهاً من المناسبة.

١ ـ فإبليس لم يسجد لآدم وقال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾، أليس هذا شبيهاً بما قاله طواغيت قريش لنبيّنا محمد، حيث قالوا: ﴿أأنزل عليه الذكر من بيننا﴾؟!! فإبليس كان مخموراً بغرور الجنس والنسب، وهؤلاء كانوا مخمورين بغرور الجاه والمال.

٢ ـ ثم قال ـ تعالى ـ لإبليس حين رفض أن يسجد لآدم:

﴿يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾؟ أي: الاستكبار عن السجود لآدم، وإن كان يبدو في بادىء النظر استكبارَ جنسٍ أمام جنس، أو استكبار خَلْقٍ أمام خلق، ولكنّه ـ في الواقع ـ أكبر من ذلك، فهو استكبارُ الخَلْقِ أمام الخالق، واستكبار العبد أمام الرب، ولذلك لم يقل: ﴿ما منعك أن تسجد لآدم﴾؟ وإنما قال: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾.

فالاستكبار في شأن آدم كان في الواقع استكباراً وتمرداً أمام اللّه، فإنه هو الذي خلقه بيديه، ثم أمر بالسجود له.

والوضع القائم بين محمد وكبراء المشركين لم يكن يختلف عن ذلك، فإن مخالفتهم للنبي لم تكن مخالفةَ شخصٍ لشخص، وإنما كانت تَحدِّياً صارخاً لمليك هذا الكون، وكانت خروجاً مباشراً على ملكه وسلطانه، ولذلك قال:

﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ * أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا۟

فِي ٱلْأَسْبَٰبِ﴾ [ص: ٩ ـ ١٠].

٣ ـ ثم نرى في القصة أن الشيطان مع غاية تمرده واستكباره يعترف للّه بالعزّة، ويفرده بهذه الخصيصة فيقسم بها:

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

وأما هؤلاء المستكبرون، فهم ـ في عُلُوِّهم واستكبارهم ـ فاقوا الشيطان ووطَؤُوه بالأعقاب فهم ينازعون اللّه عزته وكبرياءه.

٤ ـ ثم نرى في القصة من عزّة اللّه وعظمته واستغنائه ما يرتجفُ له القلب ويقشعرّ منه الجلد:

﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ * لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، وهذا في مقابل الجحود والاستغناء الذي أحضره الطغاة، إذ حكى اللّه موقفهم فقال: ﴿وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم. إن هذا لشيء يراد. ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة. إن هذا إلا اختلاق﴾.

* * * * *

لعل هذا الاستعراض الخاطف السريع يكفي للقول بأن تكرار القصص في القرآن له وظيفة خاصّة وله دلالات وإيحاءات، فهذا التكرار كما أنه ينبىء عن نظم القرآن المعجز، ويرشد إلى حكم ومعارف أُودعت هذا النظمَ، فكذلك يساعد الباحثَ المتأمل على فهمِ طبيعةِ السورة ونظامها.

وأما القول بأن المقصودَ به هو التأكيدُ والمبالغة في التذكير فهذا قولٌ لا ترتاح إليه النفس، وكذا القول بأن المقصود به هو الإفادة والتغطية على الحادث بجوانبه المختلفة فإنه لو كان الأمر كذلك لكان ذكر القصة بكل تفاصيلها وبجميع مؤكداتها في موضع واحد أَوْلى وأجدى من تفريقها في سور مختلفة ومواضع متعددة.

* * * * *

# الفصل الثاني
## تشابه الآيات

ومن تلك المعالم، التي تقود الباحث إلى النظم، تشابه الآيات، فقد ذكر في وصف هذا الكتاب، أنه كتابٌ متشابه مثاني، حيث قال ـ تعالى ـ:

﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ﴾ [الزمر: ٢٣].

فهذا الكتاب يشبه بعضه بعضاً، وقد ثُنِّيت موضوعاته وصرّفت مرة بعد أخرى، فإنْ أُجملَ شيءٌ في موضعٍ، فُصِّلَ في موضع آخر، وإن ذكر جانب في سورة ذكر جانب آخر في سورة أخرى، وإن نُبِّه على حقيقةٍ بأسلوب نبّه عليها بأساليبَ منوعة في مواضع أخرى.

فإن اشتبهتْ علينا آيةٌ فلنرجع إلى آية أخرى تشابهها، وإنْ أشكلَ علينا أسلوب، فلنلجأ إلى أساليب أخرى تقاربها، تنكشف لنا الآيات بإذن اللّه بكل معانيها وصلاتها التي تربط بعضها ببعض.

وقديماً قال العلماء: القرآن يُفَسِّرُ بعضُه بعضاً، يقول الزركشي:

«قيل: أحسن طرق التفسير أن يفسر القرآنُ بالقرآن، فما أجمل في مكان فقد فصل في موضع آخر وما اختصر في مكان فإنه قد بسط في آخر»[1].

ويقول الفراهي:

---

(١) البرهان في علوم القرآن: ٢ / ١٧٥.

«في القرآن آيات متجانسات مشتركات في مضامينها، ولكن في بعض منها تفصيلُ أمرٍ وإجمالُ أمر وفي بعضها تفصيل ما أجمل في مثلها وإجمال ما فصّل في غيرها، فاستقصِ المماثلات تجد معناها وربطها»[1].

ويقول ـ رحمه الله ـ:

«أجمع أهل التأويل من السلف إلى الخلف على أن القرآن يفسر بعضه بعضاً، وأنه أوثق تعويلاً وأحسن تأويلا»، فنقول: كما أن القرآن يفسر مطالب آياته بعضها ببعض فكذلك يَدُلُّكَ على نظامِ مطالبها ومناسبتها بما يأتيك بنظائرها، فيكثر الشواهد على رباطِ أمرٍ مع أمر وبذلك يحثُّكَ على التأمل في جامعٍ وصلةٍ بينهما، ثم يأتي عليه بأمثلة كثيرة، بعضها أوضحُ من بعض، حتى يدرج بك إلى ما كان أدق وأغمض»[2].

ونذكر هنا مثالاً يزيد الأمر وضوحاً ويساعد على فهم الموضوع، قال ـ تعالى ـ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ * فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ * وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ * وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ * يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾ [ق: ٣٨ ـ ٤٢].

حينما يمرّ بتلك الآيات من يُعنى بنظامها يثور في ذهنه سؤال:

ما العلاقة بين خلق السماوات والأرض وبين الصبر على ما يقوله القائلون؟

وما الذي يقوله القائلون؟

وما هو سبب التصريح هنا بأنه ما مَسَّهُ من لغوب؟

ثم ما الربط بين التوصية بالصبر والتسبيح وبين قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾؟

---

(١) دلائل النظام: ص ٥٩.

(٢) دلائل النظام: ص ٧١.

تلك أسئلة لا بد أن تثور في ذهن الباحث إذا مرّ بتلك الآيات، ولكننا إذا وضعنا بجانب تلك الآيات آيات أخرى تشابهها، انكشفت لنا تلك الآيات كأنْ لم يكن هناك سؤال ولا إشكال، فلنتدبر هذه الآيات:

﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ۞ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الإسراء: ٩٨ ـ ٩٩].

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۞ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ۞ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ﴾ [الأحقاف: ٣٣ ـ ٣٥].

إذا تأملنا تلك الآيات في ضوء هذه الآيات المماثلات زال عنا كل سؤال وكل إشكال، فإن هذه الآيات صريحة في أن خلقَ السماوات والأرض دليلٌ على قدرة الله ـ تعالى ـ على البعث، فإن الذي خلق هذا الكون الواسع العجيب ولم يَعْيَ بخلقِه وما مسه من لغوب كيف يعجزُ عن خلق الإنسان بعد أن يموت؟ وكيف يتصور من عاقل أن يقول:

﴿أإذا متنا وكنا تراباً ذلك رجع بعيد﴾؟

﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾؟

فهذا الاستدلال جاء واضحاً صريحاً في الآيات التي ذكرناها من سورتي الأحقاف والإسراء، فإن الخطاب فيها موجّهٌ إلى المشركين، الذين قد كلّت أبصارهم وعميت بصائرهم، فكانوا بحاجة إلى أن يفصل لهم القول ويصرح لهم بالدعوى والدليل.

وأما الآيات التي في سورة ﴿ق﴾ فقد وَجِّهَ الخطابُ فيها إلى النبي بعد الانتهاء من المشركين، فلم تكن هناك حاجة إلى التصريح بالمدلول بعد ذكر الدليل، فإن فطرته الذكية الألمعيّة كانت كما قال الله ـ تعالى ـ:

﴿يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار﴾.

فكان ـ عليه السلام ـ يرى الكثير في القليل وكان يشمّ المياه في الرياح، ولم يكن بحاجة إلى أن يُفَصَّلَ له القولُ أو يُصرح له بالمراد.

وبالجملة فكان الأمر هنا كما قيل: «العبدُ يُقرع بالعصا والحُرُّ تكفيه الإشارة».

ثم بعد التلويح بدليل البعث أرشده السياق إلى الصبر والصلاة، ويمكننا أن نقول، إذا أردنا أن نفصل هذا الإجمال ونفصح عن رباط الآيات:

﴿ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنّا من لغوب﴾ (فهل نعجزُ عن خَلْقِهم بعد موتهم كما يقول هؤلاء المستكبرون: ﴿أإذا متنا وكنا تراباً ذلك رَجْعٌ بعيد فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب. ومن الليل فسبحه وأدبار السجود﴾ وهذا مثل ما جاء في سورة البقرة كسلاح للمؤمن في جوّ يسوده الصراع والعناد ﴿يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن اللّه مع الصابرين﴾. أي: إنْ كنا قادرين على خلق هذا الكون الهائل بدون أن يعترينا من عيّ أو يمسنا من لغوب فماذا يعجزنا عن بعثهم بعد موتهم؟ فلا يحزنك إنكارهم واستهزاؤهم واستعنْ بالصبر والصلاة على أذاهم، وارتقبْ ذلك اليومَ الموعود، وما هو عنهم ببعيد).

ونرى مثل هذا النظم في الآيات التي مضت معنا من سورة الأحقاف فإنها تستدل أولاً على وقوع البعث بوجود هذا الكون الهائل الزاخر ثم ترشد النبي ـ عليه السلام ـ إلى التمسك بالصبر:

﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾.

* * * * *

# الفصل الثالث
# العود على البدء

ومن تلك المعالم، التي تقود الباحث إلى النظم: العود على البدء، فإننا كثيراً ما نرى في القرآن أنه يأخذ في معنى من المعاني، فبينما هو فيه إذ أخذ في معنى آخر غيره، ثم ينجرّ منه إلى معنى آخر، ومنه إلى آخر، ثم يرجع إلى ما بدأ منه، وليس هذا الانجرار من معنى إلى معنى إلا لرابطةٍ تربطهما ولحكمة بلاغية تجمع بينهما.

يقول الفراهي:

«إني رأيت في ترتيب كلام اللّه، وله الحمدُ على ما أراني، أن الكلام ينجرّ من أمر إلى أمر وكله جدير بأن يكون مقصداً، فيشفي الصدور ويجلو القلوب، ثم يعود إلى البدء فيصير كالحلقة»[1].

ويقول ـ رحمه اللّه ـ:

«من عادة العرب وفطرة البلاغة أن ينجرَّ الكلامُ من أمر إلى أمر، ومنه إلى أمر آخر، ثم يعود إلى الأول أو إلى الوسط حتى يعود إلى الأول أو إلى ما يتصل به، وإذا كان المخاطَبُ عالماً بأسباب الكلام لم يُشْكِلْ عليه نظُمه»[2].

وهذا الأسلوب شائع مطرد في القرآن، وإليك بعض الأمثلة:

١ ـ قال ـ تعالى ـ في أول سورة الممتحنة:

---

(١) دلائل النظام: ٥٤.

(٢) دلائل النظام: ص ٥٥ في الهامش.

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء﴾.

ثم ختم السورة بما بدأها به فقال:

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوماً غضب الله عليهم﴾.

٢ ـ وقال ـ تعالى ـ في أول سورة الحشر:

﴿سبح لله ما في السماوات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم﴾.

ثم ختم السورة بما بدأها به فقال:

﴿يسبّح له ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم﴾.

٣ ـ وبدأ ـ تعالى ـ سورة الإسراء بذكر موسى وبني إسرائيل، فقال:

﴿ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبني إسرائيل ألا تتخذوا من دوني وكيلا ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكورا. وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علواً كبيراً﴾.

وهكذا استمر ذِكْرُ بني إسرائيل إلى بضع آيات، ثم انجرّ الكلام إلى موضوعات أخرى، وأخذ في جوانب شتى، ثم قبل أن تنتهي السورة عاد الكلام على بدئه، فقال ـ تعالى ـ:

﴿ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسئل بني إسرائيل إذ جاءهم فقال له فرعون إني لأظنك يا موسى مسحورا. الآيات﴾.

٤ ـ وفي نفس السورة نرى الله ـ تعالى ـ ذكر بعض الوصايا والأحكام، فبدأها بالتوحيد حيث قال:

﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ [الإسراء: ٢٢].

ولما انتهى من هذه الأحكام والوصايا، عاد إلى ما بدأها به فقال:

﴿ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء: ٣٩].

٥ ـ ذكر الله ـ تعالى ـ في مستهل سورة المائدة فقال:

﴿يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود. أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم غير محلى الصيد وأنتم حرم. إن الله يحكم ما يريد﴾.

وقبل أن تنتهي السورة عاد الكلام على بدئه، قال ـ تعالى ـ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ﴾ الآية [المائدة: ٩٤ ـ ٩٥].

٦ ـ ذكر الله ـ تعالى ـ في مستهل سورة ﴿المؤمنون﴾ بعض صفات المؤمنين المفلحين.

فبدأ تلك الصفات بذكر الصلاة فقال:

﴿قد أفلح المؤمنون. الذين هم في صلاتهم خاشعون﴾.

ثم أخذ في صفاتٍ أُخَر، وبعد ما انتهى منها عاد إلى ما بدأها به فقال:

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ﴾ [المؤمنون: ٩].

٧ ـ وهكذا نرى في سورة المعارج، فإنه بدأ صفات المؤمنين بالصلاة فقال:

﴿إلا المصلين. الذين هم على صلاتهم دائمون﴾.

ثم ختمها بما بدأها به فقال:

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ﴾ [المعارج: ٣٤].

هذا غيض من فيض، وإلا فالقرآن حافل بهذا الأسلوب، وهذا الأسلوب يجب أن يكون موضع اهتمام كبير واعتناء بالغ في دراسة القرآن والبحث عن رباط الآيات، فإن عود الكلام على بدئه يدل على أن الموضوع، الذي بدأ به الكلام، ما زال مستمراً، ويدلّ كذلك على أن ما تَخلَّلَ هذا الكلام من موضوعاتٍ أخر، له صلاتٌ وثيقة بالموضوع الرئيسي، الذي يدور حوله الكلام.

نأخذ ـ على سبيل المثال ـ سورة الممتحنة، فإنها استُهلَّتْ بقوله تعالى: ﴿يا أيها

الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء﴾، ثم ختمت بقوله تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوماً غضب اللّه عليهم﴾.

فعلمنا من ذلك أن الموضوع الرئيسي لهذه السورة هو عَدَمُ الولاءِ لأعداءِ اللّه.

وعلمنا كذلك أن ما تخلل هذا الموضوع الرئيسي من موضوعات أخر، إنما جاء كله ليخدمَ هذا الموضوع ويُبرزَ معالمه وحدوده.

فما جاء ذكر إبراهيم وأصحابه في تلك السورة إلا ليكونوا أُسوةً للمؤمنين في عدم ولائهم لأعداء اللّه.

ثم جاءت تلك الآيات:

﴿لا ينهاكم اللّه عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم. إن اللّه يحب المقسطين. إنما ينهاكم اللّه عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم. ومن يتولّهم فأولئك هم الظالمون﴾.

وما جاءت تلك الآيات إلا لتجلّي الموضوعَ الرئيسي وتبرز حدوده، حتى يعرف المؤمنون مدى مسؤوليتهم، ويعرفوا مواضع لينِهم وشدَّتِهم، ويعرفوا مواضعَ حربهم وسلمهم، فلا يسوقوا الناسَ بعصا واحدة، ولا يقلبوا ظهر المِجَنِّ إلا لمن يقشر لهم العصا.

ثم جاء الأمر بامتحان المهاجرات، وعدم رَجْعهنِّ إلى الكفار، وعدم الإمساك بعِصِمِ الكوافر وما إلى ذلك، وهذا كله داخل ضمن عدم الولاء للكفار، فإنه لما جاء النهيَ عن الولاء لأعداء اللّه فلا بد أن تُفصلَ الزوجةُ المسلمة عن زوجها الكافر والزوجة الكافرة عن زوجها المسلم فإن وشيجة النكاح من قَبيلِ الولاء.

ثم جاءت آية المبايعة، أعني قوله ـ تعالى ـ:

﴿يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على ألا يشركن باللّه شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك

في معروف فبايعهن واستغفر لهن اللّه. إن اللّه غفور رحيم﴾.

وما جاءت تلك الآية إلا كمعيار دقيق لمن يستحقُّ الولاء، فالذي يبايع على هذه الأمور ويتقيد بتلك البنود فهو يُعتبر مسلماً حقاً، ويستحق من الجماعة المسلمة الحُبَّ والمودة والولاء، ومن أبى فهو ليس من أهل الولاء.

ولذلك لم يخصص النبي ـ ﷺ ـ تلك الآية بالنساء، بل كان يضع تلك البنود أمام الرجال كذلك، وكان يبايع مَنْ يبايعه عليها.

فقد روي عن عبادة بن الصامت ـ رضي اللّه عنه ـ قال أخذ علينا رسول اللّه ـ ﷺ ـ كما أخذ على النساء، أنْ لا نشركَ باللّه شيئاً ولا نسرقَ ولا نزني ولا نقتل أولادنا ولا يعضه بعضنا بعضاً ـ وفي رواية: ولا ننتهب ولا نعصي ـ فمن وفى منكم فأجرهُ على اللّه ومن أتى منكم حدّاً فأُقيمَ عليه فهو كَفَّارتُه، ومن ستره اللّه عليه فأمرهُ إلى اللّه إنْ شاء عذّبه وإن شاء غفر له»[1].

وبعد ما انتهت تلك الموضوعات التي كانت تخدم الموضوع الرئيسي لهذه السورة عاد الكلام على بدئه تركيزاً عليه وإشعاراً لأهمّيته وتنبيهاً على خطورته فقال:

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوماً غضب اللّه عليهم الآية﴾.

وبالجملة فهذا الأسلوب ـ أسلوب العود على البدء ـ أسلوب شائع في القرآن، وله أهمية كبيرة من ناحية النظام.

* * * * *

(١) صحيح مسلم بشرح النووي: ١١ / ٢٢٣، ٢٢٤.

# الفصل الرابع
# الاتحاد في الفواتح والأسماء

ومن تلك المعالم، التي تقود الباحث إلى النظام، الاتحاد في الفواتح والأسماء، فإنه يدل على التقارب في النظم والموضوع.

فسورة البقرة وسورة آل عمران ـ مثلاً ـ يجمعهما اسم واحد وفاتحة واحدة، فكلتاهما سُمِّيتا ﴿بالٓم﴾ واستهلّتا ﴿بالٓم﴾:

﴿الٓمٓ * ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾.

﴿الٓمٓ * ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾.

فكلما نتلو هاتين السورتين معاً يبدو لنا وكأنهما توأمان لشدة تقاربهما في النظم والموضوع.

فالأولى سورة الإيمان والأخرى سورة الإسلام، يقول الفراهي:

«سورة البقرة سورة الإيمان المطلوب، وهو الإيمان ببعثة محمد ـ ﷺ ـ فجمعت دلائلها.

وسورة آل عمران سورة الإسلام، وهو طاعة النبي ـ ﷺ ـ.

فهي أشبه بالسابقة، لما أن الإسلام إنما هو الجانب الظاهر من الإيمان»[1].

ولا بأس بأن نذكر هنا ما روي عن النبي في وصف هاتين السورتين فقد روى

---

(١) دلائل النظام: ص ٩٣.

النوّاس بن سمعان الكلابي، قال: سمعت النبي - ﷺ - يقول:

«يُؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به تَقْدمهُ سورةُ البقرة وآل عمران.

وضرب لهما رسول الله - ﷺ - ثلاثة أمثال ما نسيتهنّ بعد، قال: كأنهما غمامتان أو ظلّتان سوداوان بينهما شرق، أو كأنهما حزقان من طير صواف تُحاجَّانِ عن صاحبهما»[1].

ولقد سماهما النبي ﷺ «الزهراوين» حيث قال:

«اقرؤوا الزهراوين: البقرة وسورة آل عمران»[2].

فترى النبي - ﷺ - كيف جمعهما في الوصف والتمثيل، فاختار لهما وصفاً واحداً ومثلاً واحداً، وناهيك به شاهداً ودليلاً على شدة تقاربهما وغاية تناسبهما.

وليس الأمر مقصوراً على سورتي البقرة وآل عمران، فالسور التي يجمعها اسم واحد أو فاتحة واحدة، كلها هكذا.

فنرى - مثلاً - ﴿المؤمن﴾ و﴿حم السجدة﴾ و﴿الشورى﴾ و﴿الزخرف﴾ و﴿الدخان﴾ و﴿الجاثية﴾ و﴿الأحقاف﴾، كل هؤلاء السور يجمعها اسم واحد وفاتحة واحدة فإنها كلها افتتحت هكذا على الترتيب:

١ - ﴿حمٓ ۞ تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [المؤمن: ١].

٢ - ﴿حمٓ ۞ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۞ كِتَـٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَـٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ١ - ٣].

٣ - ﴿حمٓ ۞ عٓسٓقٓ ۞ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الشورى: ١ - ٣].

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي: ٦/ ٩٠، ٩١.
(٢) صحيح مسلم بشرح النووي: ٦/ ٩٠.

٤ ـ ﴿حمٓ * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ١ ـ ٣].

٥ ـ ﴿حمٓ * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾ [الدخان: ١ ـ ٣].

٦ ـ ﴿حمٓ * تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [الجاثية: ١ ـ ٢].

٧ ـ ﴿حمٓ * تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [الأحقاف: ١ ـ ٢].

فإذا وقفنا عند تلك السور وأنعمنا النظر في نظمها وموضوعها وجدناها متقاربة من الناحيتين، ووجدناها متشابهة فيما بينها شبه الماء بالماء وشبه التمرة بالتمرة، فإنها ـ على الرغم من تمايزها وافتراقها من بعض النواحي ـ متحدة في طبيعتها وجوّها ومتحدة في موضوعها الرئيسي الذي يدور حوله الكلام، ألا وهو إنذار المستكبرين المكذبين بالقرآن والجزاء، ووعد الفتح والنصر للمؤمنين الصابرين على المحنة والبلاء، ويبدو من أسلوبها ولهجتها أنها كلها نزلت قبيل الهجرة.

وهكذا الحال في سائر السور التي تتّحد في الفواتح والأسماء، فإنها جداً متقاربة في نظمها وموضوعها.

فكل من أراد معرفة النظام لا بدّ أن يضع في اعتباره هذه النكتة، فإنه إذا جمع تلك السور في تلاوتها وتدبرها، وألقى عليها نظرة واحدةً شاملةً تيسّر له الاطلاع على نظمها وموضوعها، وإذا انفتحت له سورة فستنفتح له أخرى.

* * * * *

# الفصل الخامس
# الاتحاد في اللون

ومن تلك المعالم، التي تقود الباحث إلى النظام، الاتحاد في اللون، فإن اللّه - تعالى - جعل هذا القرآن كمائدة كبيرة حافلة بأصناف الطعام، وكل طعام له طعم خاصّ ولون خاصّ وبعضه أشهى من بعض.

فإذا قرأت القرآن وطوّفتَ في أرجائه وتنسّمت في أجوائه وتَفكَّهت بأثماره وجدت فيه أنواعاً من السور لكل نوع منها طعم خاصّ ولون خاص وأريج خاص.

فالسور التي تعرف بـ: ﴿آل حم﴾ أو (ذوات حمّ) - مثلاً - لها طعم ولون وأريج يميزها عن أخواتها من السور.

والمسبّحات - أي: السور التي استُهلّتْ ﴿بسبّح﴾ أو ﴿يسبّح﴾ - لها طعم ولون وأريج لا يوجد في غيرها.

وهكذا الطائفة التي تبتدىء بسورة ﴿ق﴾ وتنتهي بسورة ﴿الواقعة﴾، لها طعم خاص ولون خاص وأريج خاص، لا يخفى على من يتذوق اللسان، أو أوتي حظّاً من حاسّة البيان.

وعلى هذا القياس، فإذا مررنا على طائفة من السور ووجدنا لها طعماً خاصاً ولوناً خاصاً وأريجاً خاصاً فلنكن واثقين بأن هناك وشائج تربط بعضها ببعض، وأن لها ميزة خاصة تميزها عن غيرها.

فَلْنُطِلْ هناك الوقوفَ ولنمعن فيها النظرَ فسينكشف لنا - بإذن اللّه - من رباطها ونظامها ما تَقرُّ به العين وينشرح له الصدر.

# الفصل السادس
# تكرار كلمات خاصة

ومن تلك المعالم، التي تقود الباحث إلى النظام، تكرار كلمات خاصة في السور، فإنَّ من دأبِ القرآن أنه يراعي الدقة في اختيار الكلمات، فإذا وقع اختياره على كلمة خاصة لمكان معين، وردّدها مرة بعد أخرى، فهذا يدل على أن لها صلة خاصة أو مناسبة خاصة بذلك المكان، وهذا الشيء يساعدنا على فهم طبيعة السورة وجوّها ويساعدنا على التماس المناسبة بين آياتها.

نأخذ ـ مثلاً ـ تلك الآيات:

﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا * قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا * وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا * قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا * قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا * فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا * قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا * قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا * فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا * ۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا * قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا * فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا * قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٦٦ ـ ٧٨].

ثم قال بعد ما نبّأه بتأويله:

﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٨٢].

فتلك سبع عشرة آية، تكررت فيها كلمة «الصبر» سبع مرات.

أليس هذا الوضع يلوّن الجوّ بلون الصبر، ويوحي إلى القارىء أن تلك الآيات ما جاءت إلا لتعليم الصبر وتركيزه في النفس، فإن الإنسان خلق عجولاً، ويشقّ عليه أن يصبر إلى أن يأتي أمر اللّه.

ولنتنبه للبلاغة القرآنية الرفيعة، كيف نبّهت على هذا الاستعجال وقلة الصبر، الذي طُبعَ عليه الإنسانُ حيث كرّرت:

﴿إنك لن تستطيع معي صبرا﴾.

ثم قالت، بعد ما انتهت من القصة:

﴿ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾.

فأسقطت «التاء» من «تستطع»، وجاءت به «تسطع»، دلالة على تفاهة الأمر الذي لم يصبر عليه موسى، حتى فاض كأسه مرة بعد أخرى.

ثم نمضي خطوة أخرى ونُرجع البصر كَرَّتين في مضامين تلك السورة فنجدها ترمي إلى تبشير المؤمنين وحَثِّهم على الصبر إلى أن يأتي وعد اللّه، ونرى تلك السورة تتلخص في قوله ـ تعالى ـ:

﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ۞ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴾ [الكهف: ٥٨ ـ ٥٩].

فترى التأمل في ترجيع كلمة الصبر كيف عرج بنا إلى غاية السورة وهدفها ومهدّ لنا الطريق إلى نظام آياتها ورباط معانيها.

وهكذا الأمر في ترجيع كلمة «النصح» في سورة الأعراف أو ترجيع كلمة «الاستفزاز» في سورة الإسراء أو ترجيع كلمة «التسبيح» في المسبّحات أو ترجيع كلمة «الإسلام» في سورة آل عمران أو ترجيع كلمات أخرى كثيرة في سور أخرى متعددة.

ولا شك أن لهذه الكلمات دلالتها الخاصة ولها دورها الملموس في تحديد طبيعة السورة وإبراز نظامها.

* * * * *

# الفصل السابع
# دلالة الروابط

ومن تلك المعالم، التي تقود الباحث إلى رباط الآيات، دلالة الروابط، فإن الروابط تشير إلى كون الآية مرتبطة بما قبلها، وتحث الباحث حثّاً على التماس وجوه المناسبة فيما بينها.

لنأخذ ـ مثلاً ـ قوله ـ تعالى ـ:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

قد يظنّ الظانّ هنا أنه كلام مستأنف، وأن تلك الآية لا صلة لها بما قبلها، ولكنه حينما يصل إلى قوله ـ تعالى ـ:

﴿أو كالذي مرّ على قرية وهي خاوية على عروشها﴾ الآية.

يجد نفسه مضطراً إلى أن يتراجع عن هذا الظنّ، فإن تلك الآية جاءت كالمثل، كما تدّل عليه «ك» في ﴿كالذي﴾ ثم «أو»، هذه تقتضي أن يكون ما قبلها ـ وهو ما عطفت عليه الآية ـ أيضاً بمثابة المثل ولا محالة، فإن المثل لا يكون قرينه إلا المثل، وإذاً تجيء العبارة هكذا:

﴿كالذي حاج إبراهيم في ربه... أو كالذي مرّ على قرية...﴾.

وتلك الرابطة أعني «ك» تدفعه دفعاً إلى أن يربط تلك الآيات بما قبلها ولا يهدأ له بال حتى يطمئن إلى تأويلها.

ولقد خالجت خَلَد المفسرين - رحمهم الله - تلك الرابطة، ولكنّهم لم يأخذوها مأخذ الجدّ إلا من رحم ربك. يقول القرطبي:

«قوله تعالى: ﴿أو كالذي مرّ على قرية وهي خاوية على عروشها﴾.

«أو» للعطف حملاً على المعنى والتقدير عند الكسائي والفراء: هل رأيت كالذي حاجّ إبراهيم في ربه، أو كالذي مرّ على قرية، وقال المبرد: المعنى: ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه، ألم تر مَنْ هو! كالذي مرّ على قرية، فأضمر في الكلام: من هو»[1].

المشكلة في مثل تلك الآيات أن المفسرين - رحمهم الله - يعطون زمامهم بيد النحاة.

فهم يسيرون معهم حيثما ساروا ويدورون معهم حيثما داروا، مع العلم بأن هؤلاء النحاة إنما يقيسون الآيات بمقاييسهم النحوية، وإذا اطمأنوا إليها من هذه الناحية، فهو حسبهم وكفى، ولا يعنيهم أكثر من ذلك.

إنهم لا يتذكرون أبداً أن القضية ليست قضية إكمال العبارة بإظهار مُضْمَراتها ومقدّراتها فقط، حتى يتصرفوا فيها كيفما شاؤوا، وإنما القضية قضية البلاغة القرآنية الرفيعة، التي أخرست الجن والإنس.

وهذه نكتة لا بد أن نضعها في اعتبارنا فإن الذهول عنها خسّرنا كثيراً وأخّرنا بعيداً عن تذوق البلاغة التي يمتاز بها قرآننا.

إنه ليس من همّنا أن تستقيم الآيات حسب قواعد النحو، فإن قواعد النحو كثيراً

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ٣ / ٢٨٨.

ما تعجز عن مسايرة البلاغة القرآنية.

وإنما الذي يهمّنا أن نهتدي إلى حسن تأويلها مع الحفاظ على روعة بيانها وبلاغة أسلوبها.

فما هو تأويل الآيات إذاً بحيث تبقى روعتها وبلاغتها، وتكون الرابطة أيضاً قد روعيت ووفّيت حقها؟

لعلّ صاحب تفسير المنار كان موفقاً في تفسير الآية إذ قال:

«قال الأستاذ الإمام ـ وعزاه إلى المحققين ـ الكلام متصل بما قبله وشاهد عليه كأنه يقول: انظروا إلى إبراهيم كيف كان يهتدي بولاية اللّه له إلى الحجج القيمة والخروج من الشبهات التي تعرض عله فيظلّ على نور من ربه، وإلى الذي حاجّه كيف كان بولاية الطاغوت له يعمى عن نور الحجة، وينتقل من ظلمةٍ من ظلماتِ الشُّبَهِ والشكوك إلى أخرى»[1].

ثم يقول في تفسير قوله ـ تعالى ـ: ﴿أو كالذي مرّ على قرية﴾ الآية:

«للمفسرين في الآية قولان، أحدهما أن هذا الذي مرّ على القرية كان من الصدِّيقين أو الأنبياء، وثانيهما أنه كان من الكافرين، وهو ضعيف لأن الكافر لا يُؤَيَّدُ بآيات اللّه فالكلام على الوجه الأول ـ وهو الصحيح ـ مَثَلٌ لهداية اللّه ـ تعالى ـ للمؤمنين وإخراجهم من الظلمات إلى النور، كما كان شأن إبراهيم مع ذلك الكافر»[2].

ثم يقول في تفسير قوله ـ تعالى ـ ﴿وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى﴾ الآية:

«هذا مثال ثالث لولاية اللّه ـ تعالى ـ للمؤمنين وإخراجه إياهم من الظلمات إلى النور، وهو كالذي قبله من آيات البعث، وأما المثال الأول وهو مُحاجَّةُ مَنْ آتاه اللّه الملك لإبراهيم فهو من الآيات على وجود اللّه»[3].

---

(١) تفسير المنار: ٣/ ٤٥، ٤٦.

(٢) تفسير المنار: ٣/ ٤٨، ٤٩.

(٣) تفسير المنار: ٣/ ٥٣.

ويقارب هذا ما قاله الفراهي بخصوص تلك الآيات:

«ذكر ثلاثة أمثلة للإخراج من الظلمات إلى النور ومن النور إلى الظلمات، الأول لمن يخرجه الطاغوت من النور إلى الظلمات، فإن إبراهيم عرض عليه النور فأعرض عنه، وقد فعل ذلك من قبل لغروره بالملك فلم يلتفت إلى الدلائل الواضحة، والمثال الثاني لمن شك وكان مؤمناً فهداه الله ـ تعالى ـ والمثال الثالث لمن أراد زيادة اليقين»[1].

ونحن نميل إلى هذا التأويل، فإن الرابطة في «كالذي» تدفعنا إليه دفعاً ولا تدعنا نميل إلى غيره.

وكان الأصل ـ كما سبق معنا ـ أن تكونَ العبارة هكذا:

﴿الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون، كالذي حاج إبراهيم... أو كالذي مرّ على قرية﴾.

ولكن البلاغة القرآنية الرفيعة عدلت عن هذه العبارة إلى ما هي عليه الآن، حتى تُلبسها معنى الإنكار والتعجيب مِمَّنْ حاجَّ إبراهيم، الإنكار لجراءته والتعجيب من غباوته.

يقول صاحب الظلال ـ رحمه الله ـ:

«ألم تر؟ إنه تعبير التشنيع والتفظيع، وإن الإنكار والاستنكار لينطلقان من بنائه اللفظي وبنائه المعنوي سواء»[2].

علماً بأن القرآن إنما عدل إلى هذا الأسلوب لأنه لم يكن هناك خوف التباس المعنى من هذا العدول، فإن الرابطة في ﴿أو كالذي مرّ على قرية﴾، كانت تدفع هذا الالتباس، وكانت تلمع إلى ما هو المراد.

---

(١) مذكرات القرآن للفراهي ـ مخطوط.
(٢) في ظلال القرآن: ٣/ ٣٩.

وكثيراً ما تكون تلك الروابط من الدقة بحيث يكون الباحث مضطراً إلى البحث عن رباطها ولا يهدأ له بال حتى يظفر بتلك الوشائج التي تحيطها من بين يديها ومن خلفها.

نأخذ ـ مثلاً ـ قوله ـ تعالى ـ:

﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ۞ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۞ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ۞ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۞ فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَـٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنعام: ١١٤ ـ ١١٨].

فالآية الأخيرة: ﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَـٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴾، لا يظهر لها ارتباط بما سبقها من الآيات، ولكن ـ مع ذلك ـ فهل نقول: إن تلك الآية لم تصادف مكانها، ولا صلة لها بما حولها؟

وإن افترضنا ذلك فماذا نفعل «بالفاء» في قوله ـ تعالى ـ ﴿فكلوا﴾، فإنّ هذه الفاء تدل على صلة وثيقة بما سبقها.

وهذا الوضع يدفعنا دفعاً إلى أن نبحث لهذه الفاء عما يرتبط بها، فإن كان البحث بجدّ وإخلاص، فلا بدّ أن يكلّل بالنجاح ويسعف بالمراد.

وبالجملة فتلك الروابط إحدى المعالم، التي تقود الباحث إلى رباط الآيات.

* * * * *

# الفصل الثامن
# تكرار الآيات

ومن تلك المعالم، التي تقود الباحث إلى النظام، تكرار آية واحدة في سورتين أو أكثر.

وإليك بعض الأمثلة، قال ـ تعالى ـ:

١ ـ ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦].

تلك الآية جاءت في سورة البقرة ثم تكررت في سورة آل عمران مع فرق يسير:

﴿قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٨٤].

٢ ـ قال ـ تعالى ـ:

﴿وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلۡمَسۡكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ﴾ [البقرة: ٦١].

تلك الآية جاءت في سورة البقرة ثم تكررت في سورة آل عمران مع فرق يسير:

﴿ضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيۡنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبۡلٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبۡلٖ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَسۡكَنَةُۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖۚ ذَٰلِكَ

﴿بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٢].

٣ ـ قال ـ تعالى ـ مخاطباً بني إسرائيل:

﴿وَءَامِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِۦ وَلَا تَشْتَرُوا بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّـٰىَ فَٱتَّقُونِ ۞ وَلَا تَلْبِسُوا ٱلْحَقَّ بِٱلْبَـٰطِلِ وَتَكْتُمُوا ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٤١ ـ ٤٢].

جاءت هاتان الآيتان في سورة البقرة ثم تكررتا في سورة آل عمران مع اختلاف يسير في الأسلوب:

﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ۞ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَـٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٠ ـ ٧١].

٤ ـ قال ـ تعالى ـ:

﴿۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: ١٣٥].

جاءت تلك الآية في سورة النساء ثم تكررت في سورة المائدة مع فرق يسير:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا ۚ ٱعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨].

٥ ـ قال ـ تعالى ـ:

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ۞ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٢ ـ ٣٣].

جاءت الآيتان في سورة التوبة، ثم تكرّرتا في سورة الصف هكذا:

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ۞ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف: ٨ ـ ٩].

تلك بعض النماذج، وهي من الكثرة بحيث لا تكادُ تَخْفى على أي ناظر في القرآن. وتلك الظاهرة إن دلّت على شيء، فإنّما تدل على أن هناك مناسبة خاصة وقرابة ماسة بين سورتين جاءتا على هذا النمط.

فإذا مرّ الباحث على مثل تلك الآيات فليقف عندها وقفة جادة طويلة متأملة، وليلتمس المناسبة بين تلك السور التي تحتوي تلك الآيات، فإن هذا سيسفر ـ بإذن الله ـ عن وجوه كثيرة من المناسبة بين سورة وأخرى.

* * * * *

# الفصل التاسع
# التشابه بين نظم آية وسورة

ومن تلك المعالم، التي تقود الباحث إلى النظام، التشابه بين نظم آية وسورة، فإننا نجد بعض السور جاءت على النظم الذي يوجد في آية واحدة، ونجد بعض السور جاءت على نظم أجزاء آية واحدة، ونجد طائفة من السور جاءت على نظم سورة واحدة، ونجد طائفة من السور كذلك جاءت على نظم جزء من سورة واحدة.

يقول الفراهي:

«ترى في آية واحدة ترتيباً وأسلوباً مثلما ترى في سورة، وكذلك في القصار مثلما تراه في الطوال»[١].

ويقول ـ رحمه اللّه ـ:

«الآية الواحدة تجمع أموراً وربما تتضمن جملاً، ولا يسوغ لمسلم أن يظن بالآية الواحدة أنها غير منظمة، والتأمل اليسير يكشف عن نظامها، فهذا يصير مثالاً وأنموذجاً لأمور تجمعها جملة من الآيات، ثم هذا يصير مثالاً لما يذكر في جملات طويلة من السورة، ثم تجد نظم سورة مع سورة أخرى مشابهاً لنظم آيات جملة واحدة ولنظم كلمات آية واحدة، فمن أقر بوجود النظم في آية واحدة ولا بدّ، فلا بدّ أن يقرّ بما يماثله في عدة آيات أو عدة سور»[٢].

---

(١) أساليب القرآن: ص ٤٩.

(٢) دلائل النظام: ص ٢٨.

المثال الأول:

فنرى سورة البقرة ـ مثلاً ـ جاءت على نظم قوله ـ تعالى ـ:

﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩].

فقد ذُكرت في الآية أربعةُ أعمال أو أربعة مقاصد للنبي الذي دعا لبعثته إبراهيم وإسماعيل ـ عليهما السلام ـ وهي:

١ ـ تلاوة الآيات: والمراد بالآيات هي الدلائل الواضحة والبراهين الساطعة على مبادىء ومقومات هذا الدين، الذي ارتضاه اللّه لعباده.

٢ ـ وتعليم الكتاب. والمراد بالكتاب هي الأحكام والشرائع التي شرعها الله لعباده.

٣ ـ وتعليم الحكمة. والمراد بالحكمة تلك الآيات التي ترقق القلب وتنوّر الذهن وتطهّر النفس وتغرس فيها معاني التقوى والخشية والبذل والتضحية والزهد في الدنيا والإقبال إلى الآخرة.

يقول الفراهي في معنى الكلمة والمراد بها: «إذا سمي القرآن كتاباً وحكمة معاً، فذلك من جهتين:

١ ـ سمي كتاباً لكونه مشتملاً على الأحكام المكتوبة.

٢ ـ وحكمة من جهة اشتماله على حكمة الشرائع من العقائد الصحيحة والأخلاق الفاضلة.

واستدللنا على هذا الفرق من تتبع استعمال الكلمتين معاً ومما علمنا من استعمال الكتاب للأحكام والحكمة لأصولها[1].

٤ ـ والمقصد الرابع من مقاصد هذه النبوة المباركة هو التزكية، وهي ليست عملاً

---

(١) مفردات القرآن: ٣٥.

مستقلاً، وإنما هي كظلٍّ ونتيجة لتلك الأعمال الثلاثة.

وإذا أنعمنا النظر في نظم سورة البقرة وجدناها تشتمل على تلك النقاط بالذات وعلى وفق ترتيبها في الآية.

فهي من مطلعها إلى الآية ١٧٦[١]، تضم الآيات أي: البراهين الساطعة على صحة هذه البعثة المباركة وعلى صحة رسالاتها.

ثم يبدأ باب الكتاب أي: الأحكام والشرائع، وهي تشمل السياسة المدنية والرعاية المنزلية كلتيهما، وهذا الباب ينتهي بالآية: ٢٤٢[٢].

ثم يبدأ باب الحكمة وهو يركّز على الجهاد والزكاة والإنفاق في سبيل الله والرفق والعدل في المعاملة، ولا يخفى ما لهذه الأمور من تأثير كبير في جلب نور الحكمة، ولقد أشار إليه القرآن في هذا الباب بالذات، حيث قال:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ * ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ * يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البقرة: ٢٦٧ ـ ٢٦٩].

وهكذا تنتهي تلك السورة.

وأما التزكية فهي ـ كما أسلفنا ـ تسري في جميع تلك البنود كالروح في الجسم، فإنها هي الغاية والهدف، وهي النتيجة والثمرة.

ويشبهه ما قاله الفراهي وهو يتحدث عن نظم هذه السورة:

«ترتيب مضامين هذه السورة يطابق قوله ـ تعالى ـ:

---

(١) والآية (١٧٦) هكذا: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾.

(٢) الآية (٢٤٢) هكذا: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

﴿يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم﴾.

فأتى أولاً بالآيات والدلائل، ثم ألقى عليهم الكتاب أي: الأحكام، ثم علمهم طريق الحكمة وزكاهم بالحث على الزكاة، فنزولها يطابق ما دعا به إبراهيم عليه السلام، وبذلك تكون هذه السورة أتم ظهوراً لإجابة دعائه»[1].

**المثال الثاني:**

نرى سورتي ﴿النصر﴾ و﴿اللهب﴾، قد جاءتا على نظم قوله ـ تعالى ـ:

﴿ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾[الإسراء: ٨١].

فالأولى منهما تمثل الشطر الأول من الآية: ﴿جاء الحق﴾، والآخرة منهما تمثل الشطر الثاني منها: ﴿وزهق الباطل﴾.

يقول الفراهي:

«اعلم أن سورة اللهب تؤكد وتوضح معنى النصر المذكور قبلها وتبشر به كأنه قيل: قد نصر الله نبيّه وأهلك عدوه، كما قال ـ تعالى ـ:

﴿ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾[2].

**المثال الثالث:**

نرى السور الأربع: البقرة وآل عمران والنساء والمائدة، كلها جاءت على نظم سورة العصر، فقد ذكرت فيها أربع صفات على الترتيب التالي:

١ ـ إلا الذين آمنوا.

٢ ـ وعملوا الصالحات.

٣ ـ وتواصوا بالحق.

---

(١) مقدمة سورة البقرة ـ مخطوط.

(٢) تفسير سورة اللهب.

٤ ـ وتواصوا بالصبر.

والسور الأربع المذكورة أيضاً جاءت على نفس الترتيب.

فسورة البقرة سورة الإيمان، وسورة آل عمران سورة الإسلام، وهو المراد بالعمل الصالح ولعل هذا من الوضوح بحيث لا يحتاج منا إلى زيادة بيان، ولقد مضى معنا قول الفراهي حيث قال:

«سورة البقرة سورة الإيمان المطلوب، وهو الإيمان ببعثة محمد ـ ﷺ ـ فجمعت دلائلها.

وسورة آل عمران سورة الإسلام، وهو طاعة النبي ـ ﷺ ـ فهي أشبه بالسابقة لما أن الإسلام إنما هو الجانب الظاهر من الإيمان»(١).

ثم جاءت سورة النساء وهي سورة القسط والمواساة وإيفاء الحقوق، فقد بدأت السورة بتلك الوصية، حيث قال ـ تعالى ـ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١].

ثم السورة كلها ـ مع تشعب معانيها ـ تدور حول هذه النقطة.

ولعل قوله ـ تعالى ـ: ﴿وتواصوا بالحق﴾ أيضاً يرمي إلى تلك النقطة.

ويمكن أن نستأنس هنا بما جاء في سورة البلد حيث قال ـ تعالى ـ:

﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ﴾ [البلد: ١٧].

فقرن الصبر مرة «بالحق» ومرة «بالمرحمة»، أليس هذا النظم دليلاً على أن «الحق» و«المرحمة» كليهما يرميان إلى حقيقة واحدة؟

ثم جاءت سورة المائدة، وهي سورة القيام بالعهود الإلهية، التي يوجبها المسلم على نفسه منذ دخوله في رحاب الإسلام، فقد بدأت السورة بتلك المطالبة، بدون أيّ

---

(١) دلائل النظام: ص ٩٣.

تمهيد أو مقدمة، تنبيهاً على خطورة الأمر وأهمّيته حيث قال:

﴿يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود﴾.

ولعل قوله - تعالى - في سورة العصر: ﴿وتواصوا بالصبر﴾، يرمي إلى تلك الحقيقة، فالمراد بالصبر هو الاستقامة على العهد الذي يبرمه المؤمن ويوجبه على نفسه حين ينتظم في سلك الإسلام، وقد نستأنس لهذا المعنى بما جاء في سورة البقرة حيث قال - تعالى -:

﴿ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُوا۟ وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ﴾ [البقرة: ١٧٧].

أي: يوفون بعهدهم ويصبرون عليه مهما كانت الظروف، فهم لا ينكثون عهدهم أبداً سواء كانوا تحت وطأة البأساء والضراء أو كانوا يعانون شدة البأس.

فالصبر والإيفاء بالعقود شيئان متلازمان لا يفترقان، وإن شئت فقل إنهما عبارتان عن معنى واحد، وعلى هذا فيمكن أن نقول: إن سورة المائدة توصية بالصبر على العهد كما يمكن أن نقول إنها توصية بالإيفاء بالعقود.

تلك بعض الأمثلة، ولعل فيها كفاية للاقتناع بأن هناك تشابهاً واضحاً بين نظم الآيات ونظم السور، فمن تأمل في نظم الآيات أوشَكَ أن تتمهد له السبيلُ إلى نظم سورة ثم إلى نظم مجموعات وطوائف من السور حتى يظهر له القرآن كله كأنه سلسلة من ذهب، متماسكة الحلقات، آخذ بعضها برقاب بعض.

* * * * *

تلك بعض المعالم البارزة في طريق تتبع النظام، فلو وضعها الباحث في اعتباره ثم أمعن النظر في آيات القرآن وسوره، يمكن أن يتمهّد له الطريق مع توعّره ثم يتسنّى له الوصول إلى كنوز النظام ونفائس درره.

* * * * *



# الخاتمة

لقد قطعنا شوطاً لا بأس به في طريق دراسة النظام.

والآن، فلن نجانب الصواب إذا قلنا: إن الموضوع قد أصبح الآن حقيقة واضحة شاخصة تمشي على قدمين ثابتتين، ولم يعد بإمكان شخص أن يقوم فيقول:

«اعلم أن كثيراً من المفسرين جاؤوا بعلم مُتكلَّف، وخاضوا في بحرٍ لم يكلفوا سباحته، واستغرقوا أوقاتهم في فنّ لا يعود عليهم بفائدة»[1].

ولكن الذي بقي، وليس أقل أهمية مما مضى، هو أن نضع للموضوع أسسه ومبادئه، ونحكم أصوله وقواعده، حتى يمكن علاج ذلك التكلف والتعسف، الذي دخل في الموضوع حتى غضّ من شأنه وأساء إلى سمعته، فالمفسرون الأوائل الذين مارسوا هذا الموضوع لم يجيدوا صنعته ولم يحكموا نسجه.

ثم الذين جاؤوا من بعدهم نسجوا على منوالهم، إلا قليلاً منهم.

وهكذا نشأ الموضوع وتربى في أحضان التكلف ورضع لبانه، فلم يؤت أكله، ولم تظهر للناس فائدته.

ولا بأس بأن نمرّ هنا على نماذج من هذا النوع حتى نكون على بصيرة من أمرنا، فنمضي إلى غايتنا بدقّة واحتياط، ولا نكرّر ما تكرر ممن قبلنا من تفريط وإفراط.

يقول الإمام الرازي في تفسير سورة الكوثر:

---

(١) فتح القدير: ١ / ٧٢.

«إن هذه السورة كالتتمة لما قبلها من السور، وكالأصل لما بعدها من السور، أما أنها كالتتمة لما قبلها من السور، فلأن اللّه تعالى جعل سورة ﴿والضحى﴾، في مدح محمد عليه الصلاة والسلام وتفصيل أحواله، فذكر في أول السورة ثلاثة أشياء تتعلق بنبوّته: (أولها) قوله: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾، (وثانيها) قوله: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾، (وثالثها) ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾، ثم ختم هذه السورة بذكر ثلاثة أحوال من أحواله عليه السلام فيما يتعلق بالدنيا وهي قوله: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ * وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ * وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾.

ثم ذكر في سورة ألم نشرح أنه شرّفه بثلاثة أشياء: (أولها) ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾، (وثانيها) ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾، (وثالثها) ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾.

ثم إنه تعالى شرّفه في سورة التين بثلاثة أنواع من التشريف: (أولها) أنه أقسم ببلده، وهو قوله: ﴿وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾، (وثانيها) أنه أخبر عن خلاص أمته من النار وهو قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، (وثالثها) وصولهم إلى الثواب وهو قوله ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾.

ثم شرّفه في سورة اقرأ بثلاثة أنواع من التشريفات: (أولها) ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾، أي: اقرأ القرآن على الخَلْقِ مستعيناً باسم ربك، (وثانيها) أنه قهر خصمه بقوله ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ * سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾، (وثالثها) أنه خصه بالقربة التامّة وهو ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ۩﴾.

وشرّفه في سورة القدر بليلة القدر التي لها ثلاثة أنواع من الفضيلة: (أولها) كونها خيراً من ألف شهر، (وثانيها) نزول الملائكة والروح فيها، (وثالثها) كونها سلاماً حتى مطلع الفجر.

وشرّفه في سورة (لم يكن)، بأن شرّف أمته بثلاثة تشريفات: (أولها) أنهم ﴿خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾، (وثانيها) أن ﴿جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ﴾، (وثالثها) رضا اللّه عنهم.

وشرّفه في سورة إذا زلزلت بثلاثة تشريفات: (أولها) قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾، وذلك يقتضي أن الأرض تشهد يوم القيامة لأمته بالطاعة والعبودية، (والثاني) قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾، وذلك يدل على أنه

تعرض عليهم طاعاتهم فيحصل لهم الفرح والسرور، (وثالثها) قوله: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾، ومعرفة الله لا شك أنها أعظم من كل عظيم فلا بد وأن يصلوا إلى ثوابها.

ثم شرفه في سورة العاديات بأن أقسم بخيل الغزاة من أمته فوصف تلك الخيل بصفات ثلاث ﴿والعاديات ضبحاً فالموريات قدحاً فالمغيرات صبحاً﴾.

ثم شرّف أمته في سورة القارعة بأمور ثلاثة: (أولها) فمن ثقلت موازينه، (وثانيها) أنهم في عيشة راضية، (وثالثها) أنهم يرون أعداءهم في نار حامية.

وهكذا يستمر ـ رحمه الله ـ في تسجيل ثلاثياته في كل سورة حتى ينتهي إلى سورة الكوثر[1].

ومما يروى أن شخصاً يدعى عبدالوهاب البخاري قد ألف تفسيراً رجع فيه المطالب القرآنية أكثرها، بل كُلَّها إلى مناقب النبي ـ ﷺ ـ وبيّن فيه أسرار المحبة ودقائق الوجد والغرام[2]، فكنا نتعجب من عقليّة ذاك الرجل كما نتعجّب الآن من كلام الإمام الرازي.

فأية علاقة لهذه السور بمدح الرسول وتشريفه ـ عليه السلام ـ؟

ولو أن الإمام الرازي اعترف بعجزه عن إدراك نظم تلك السور بدلاً من أن يتمحّل هذا القول لكان خيراً له وأقوم، فإنه لم يكن مطالباً بأن يتكلف النظم إذا استعصى عليه.

ولا يفوتنا التنبيه على أن التماس النظم ليس معناه ربط الآيات أو السور بأيّ نوع من الرباط، حتى ولو كان واهياً ضعيفاً.

وإنما النظم عبارة عن رباط الأمور لمقصدٍ وغاية، وكلما ظهر لك النظم فلا بدّ وأن تكون معه ظلل من النور والحكمة، وأما التكلف والتمحّل الذي يطمس النور

(١) انظر التفسير الكبير للإمام الرازي: ٣٢/ ١١٨ ـ ١٢١.

(٢) نزهة الخواطر للشيخ عبدالحي الحسني: ٤ / ٢٢٣، الطبعة الثانية: ١٣٩٣هـ، دائرة المعارف ـ الهند.

ويعرّي الكلام من بهاء الحكمة فليس من النظم في شيء.

فنرى ـ مثلاً ـ تلك السور التي جاءت على غاية الحسن والروعة والجمال، والتي يصلح ـ بحق ـ أن يقال عنها: إنها أحسن بكثير وأجمل في مكانها من بيضة في روضة غبّ سارية والشمس متكبّدة[1]، نرى هذه السور بالذات حينما تناولها الإمام الرازي بإبراز نظمها فكأنها تعطّل جيدها وزال عنها حسنها.

والمقام لا يسمح لنا بأن نطيل الوقوف عند تلك السور ونتصدى لإبراز حسنها وجمالها من ناحية نظمها، فإنه يبعدنا عن الموضوع، ولقد مضى الكلام على نظم السور العشر الأخيرة في الفصل الثاني من الباب الثالث كما سبق معنا الكلام على نظم سورة القمر من ناحيتها البلاغية في الفصل السادس من الباب الثالث كذلك، وفيه غناء ومقتنع لمن أراد أن يستوعب الموضوع.

وإنما قصدنا هنا أن نعرف أن الذين تعاطوا هذا الموضوع، أكثرهم لم يتعاطوه بجدّ، فقد عرفنا آنفاً وضع الفخر الرازي في تعاطيه هذا الموضوع، كما عرفنا وضع الإمام البقاعي في ضوء نماذج من تفسيره في الباب الأول، وفيها غنية لمن أراد أن يعرف الوضع.

وليس معنى ذلك أننا ننكر تلك القلة القليلة الموفقة ممن عرفوا لهذا الموضوع حقه، وتعاطوه بكل دقة وجدّ، مثل الإمام عبدالحميد الفراهي فقد أحسن وأجاد وبرّز في هذا المضمار وحاز شأو السبق واستولى على غاية الأمد، ثم الذين جاؤوا من بعده ولحقوا به في موكبه، فلا شك أن لهم كذلك جهوداً مشكورة لا تُنسى ما اختلف الجديدان.

ولكن مع ذلك فالأغلبية من الناس ـ ممن خاضوا هذا البحر ـ لم يحسنوا سباحته وجاءوا في الموضوع بتكلفات وتعسفات يصير الحليم فيها حيران.

---

(١) سئل شيخ عن أحسن ما رآه فقال: «بيضة في روضة غبّ سارية والشمس متكبّدة»، (المستقصى في أمثال العرب ١ / ١٧).

ولعل السبب في ذلك أنهم زعموا علم المناسبات موكولاً إلى قريحة الإنسان وطبيعته، فهو يلتمس تلك المناسبات ويأخذها كيفما خطرت بباله غير متقيد بأصول التأويل وقواعده.

وإليك نموذجاً آخر ذكره القرطبي في تفسيره، فلعله يكون أدق تصويراً لطبيعة الموقف، يقول ـ رحمه الله ـ في تفسير قصة داود في سورة ﴿ص﴾: «قال الترمذي: ولقد كنت أمر زماناً طويلاً بهذه الآيات فلا ينكشف لي المراد والمعنى من قوله: ﴿ربنا عجّل لنا قطنا﴾، والقطّ الصحيفة في اللغة، وذلك أن رسول الله ـ ﷺ ـ تلا عليهم ﴿فأما من أوتي كتابه بيمينه﴾، وقال لهم «إنكم ستجدون هذا كله في صحائفكم تعطونها بشمائلكم»، فقالوا: «ربنا عجل لنا قطناً»، أي: صحيفتنا «قبل يوم الحساب»، قال الله تعالى: ﴿اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الأيد﴾، فقص قصة خطيئته إلى منتهاها فكنت أقول: أمره بالصبر على ما قالوا، وأمره بذكر داود فأي شيء أريد من هذا الذكر؟ وكيف اتَّصلَ هذا بذاك؟ فلا أقفُ على شيء يسكن قلبي عليه، حتى هداني الله له يوماً فأُلهمته أن هؤلاء أنكروا قول أنهم يُعطون كتبهم بشمائلهم، فيها ذنوبهم وخطاياهم استهزاء بأمر الله، وقالوا: «ربنا عجل لنا قطناً قبل يوم الحساب»، فأوجعه ذلك من استهزائهم فأمره بالصبر على مقالتهم، وأن يذكر عبده داود، سأل تعجيل خطيئته أن يراها منقوشة في كفه فنزل به ما نزل من أنه كان إذا رآها اضطرب وامتلأ القدح من دموعه، وكان إذا رآها بكى حتى تنفذ[1]، سبعة أفرشة من الليف محشوّة بالرماد، فإنما سألها بعد المغفرة وبعد ضمان تبعة الخصم، وأن الله تبارك وتعالى اسمه يستوهبه منه، وهو حبيبه ووليّه وصفيّه فرؤية نقش الخطيئة بصورتها مع هذه المرتبة صنعت به هكذا، فكيف كان يحلّ بأعداء الله وبعصاته من خلقه وأهل خزيه، لو عجّلت لهم صحائفهم فنظروا إلى صورة تلك الخطايا التي عملوها على الكفر والجحود، وماذا يحلّ بهم إذا نظروا إليها في تلك الصحائف وقد أخبر الله عنهم فقال: ﴿فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة

---

(١) لعل الأصل حتى تنفذ دموعه من سبعة الخ.

إلا أحصاها﴾، فداود ـ صلوات اللّه عليه ـ مع المغفرة والبشرى والعطف لم يقم لرؤية صورتها، وقد روينا في الحديث: إذا رآها يوم القيامة منقوشة في كفه قلق حتى يقال له: ها هنا، ثم يرى فيقلق ثم يقال له: ها هنا، ثم يرى فيقلق حتى يقرب فيسكن»[1].

كم يعجب الباحث حين يفاجأ بمثل هذا النظم ثمّ يرى علماً من أعلام التفسير قد اطمأنّ إليه وفتح له ذراعيه!

فقد يطمئن الإنسان إلى عدم وقوفه على النظم نظراً إلى صعوبته ووعورة طريقه ولكن كيف يطمئن إلى مثل هذا النظم الحالك المظلم، الذي لا يرى فيه بصيص من نور!![2].

ولعل السرّ في ذلك كله هو أنهم ـ رحمهم اللّه ـ لم يعتمدوا في أخذهم واستنباطهم على أسس وقواعد ثابتة، فكانوا أقرب حالاً إلى إنسان يسير في طريق وعر شاق فيه مرتفعات ومنعطفات ومنحدرات ولا يرافقه دليل ولا خبير، فالنتيجة معلومة، حيرة في حيرة، وعثرة بعد عثرة!

فالموقف يفرض علينا أن نضع أسساً ومعايير يرجع إليها الباحث عند اللزوم حتى يعلم النظم الصحيح الراجح من النظم المتكلّف المرجوح.

كما يفرض علينا أن نتبنّى هذه الفكرة ـ فكرة النظام ـ ونطبّقها تطبيقاً دقيقاً كاملاً على كل القرآن حتى نستخرج ما أودعه اللّه من كنوز العلم ولطائف الحكم.

* * * * *

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: ١٥ / ١٨٧ ـ ١٨٨.

(٢) لقد أسلفنا الكلام على نظم تلك الآيات بشيء من التفصيل في الفصل التاسع من الباب الثالث فيحسن استحضاره.

# مراجع البحث


١ ـ القرآن العظيم.

٢ ـ الإتقان في علوم القرآن للإمام السيوطي، المكتبة الثقافية بيروت ١٩٧٣م.

٣ ـ إحياء علوم الدين للإمام الغزالي، دار المعرفة للطباعة والنشر.

٤ ـ أساليب القرآن للإمام عبدالحميد الفراهي، الدائرة الحميدية ومكتبتها، الهند.

٥ ـ أسباب النزول للواحدي، دار الكتب العلمية، بيروت ١٣٩٥هـ.

٦ ـ أسرار ترتيب القرآن للحافظ جلال الدين السيوطي، دار الاعتصام.

٧ ـ إغاثة اللهفان للإمام ابن القيم، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت.

٨ ـ أنوار التنزيل وأسرار التأويل للإمام البيضاوي، مطبعة مصطفى البابي بمصر طبعة ثانية ١٣٨٨هـ.

٩ ـ البحر المحيط للإمام أبي حيان، مطابع النصر الحديثة، الرياض.

١٠ ـ البداية والنهاية للحافظ ابن كثير، مكتبة المعارف، بيروت ط: ١٩٦٦م.

١١ ـ البرهان في علوم القرآن للإمام الزركشي، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت.

١٢ ـ البرهان في متشابه القرآن للشيخ برهان الدين الكرماني، مخطوط بالأزهرية (١٩٤) علوم القرآن.

١٣ ـ البيان والتبيين للجاحظ بتحقيق: فوزي عطوي، الشركة اللبنانية للكتاب بيروت.

١٤ ـ التاج الجامع للأصول لابن الأثير الجزري ت: عبدالقادر الأرناؤوط، ط: ١٣٩٠هـ.

١٥ ـ تاريخ الأدب العربي للدكتور عمر فروخ، دار العلم للملايين.

١٦ ـ تاريخ ابن خلدون للعلامة عبدالرحمن بن خلدون.

١٧ ـ الترغيب والترهيب للمنذري، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١٨ ـ تفسير أبي السعود، مطبعة محمد علي صبيح وأولاده بميدان الأزهر.

١٩ ـ تفسير سورة القيامة للإمام عبدالحميد الفراهي، مطبع فيض عام، الهند.

٢٠ ـ تفسير سورة الكوثر للإمام الفراهي، مطبعة معارف، الهند.

٢١ ـ تفسير سورة اللهب للإمام عبدالحميد الفراهي، مطبعة معارف، الهند.

٢٢ ـ تفسير القرآن العظيم للإمام ابن كثير، دار الفكر بيروت.

٢٣ ـ التفسير الكبير للإمام الرازي، دار الكتب العلمية، طهران.

٢٤ ـ تفسير مجاهد، تحقيق عبدالرحمن السورتي، مطابع الدوحة الحديثة.

٢٥ ـ تفسير المنار للأستاذ العلامة رشيد رضا، دار المعرفة الطبعة الثانية.

٢٦ ـ تفسير النسفي للإمام عبدالله النسفي، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه.

٢٧ ـ التفسير والمفسرون للدكتور محمد حسين الذهبي، دار الكتب الحديثة.

٢٨ ـ التكميل في أصول التأويل للإمام الفراهي، الدائرة الحميدية ومكتبتها، الهند.

٢٩ ـ جامع الأصول في أحاديث الرسول لابن الأثير، الطبعة الأولى ١٣٩٠هـ.

٣٠ ـ جامع البيان في تفسير القرآن للإمام ابن جرير الطبري، دار المعرفة ١٣٩٨هـ.

٣١ ـ الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي، دار إحياء التراث العربي.

٣٢ ـ جمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي، دار بيروت للطباعة والنشر.

٣٣ ـ جمهرة البلاغة للإمام عبدالحميد الفراهي، مطبعة معارف، الهند.

٣٤ ـ جمهرة خطب العرب، دار بيروت للطباعة والنشر بيروت.

٣٥ ـ حلية الأولياء وطبقات الأصفياء للحافظ أبي نعيم الأصفهاني، دار الكتب العلمية، بيروت.

٣٦ ـ دلائل النظام للإمام عبدالحميد الفراهي، الدائرة الحميدية ومكتبتها، الهند.

٣٧ ـ ديوان الخنساء، دار بيروت للطباعة والنشر.

٣٨ ـ ديوان زهير بن أبي سلمى المزني، دار بيروت للطباعة والنشر.

٣٩ ـ الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح للإمام عبدالحميد الفراهي، دار القلم، دمشق.

٤٠ ـ روح المعاني للإمام الألوسي، دار إحياء التراث العربي.

٤١ ـ الروض الأنف للسهيلي، مكتبة الكليات الأزهرية.

٤٢ ـ زاد المسير في علم التفسير للإمام ابن الجوزي، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر.

٤٣ ـ زاد المعاد للإمام ابن القيم، توزيع رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد.

٤٤ ـ زهر الآداب للقيرواني، دار الجيل بيروت ط: ١٩٧٢م.

٤٥ ـ سنن أبي داود، نشر وتوزيع: محمد علي السيد، حمص.

٤٦ ـ السنن الكبرى للإمام البيهقي، دار الفكر، بيروت.

٤٧ ـ شرح ثلاثيات مسند الإمام أحمد للسفاريني المكتب الإسلامي للطباعة والنشر.

٤٨ ـ شرح السنة للإمام البغوي، المكتب الإسلامي.

٤٩ ـ صحيح البخاري مع فتح الباري، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت.

٥٠ ـ صحيح ابن خزيمة تحقيق: د. مصطفى الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت.

٥١ ـ صحيح مسلم بشرح النووي، دار الفكر، بيروت.

٥٢ ـ العمدة لابن رشيق تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، دار الجيل.

٥٣ ـ عمدة التفسير، للحافظ ابن كثير ت: أحمد محمد شاكر، دار المعارف، مصر.

٥٤ ـ غرائب القرآن ورغائب الفرقان للإمام النيسابوري، الأميرية ١٣٢٣هـ.

٥٥ ـ فاتحة تفسير نظام القرآن للإمام عبدالحميد الفراهي، مطبعة إصلاح، الهند.

٥٦ ـ فتح الباري للإمام العسقلاني، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت.

٥٧ ـ الفتح الرباني للشيخ أحمد عبدالرحمن البنّا، دار الشهاب، القاهرة.

٥٨ ـ فتح القدير للإمام الشوكاني، دار الفكر، بيروت.

٥٩ ـ في ظلال القرآن للإمام الشهيد سيد قطب، دار إحياء التراث العربي.

٦٠ ـ القاموس المحيط للفيروز آبادي، المؤسسة العربية للطباعة والنشر، بيروت.

٦١ ـ قواعد التحديث للشيخ محمد جمال الدين القاسمي، تحقيق وتعليق: محمد بهجة البيطار، دار إحياء الكتب العربية، ط ثانية ١٣٨٠هـ.

٦٢ ـ كتاب الفوائد للإمام ابن القيم، دار نشر الكتب الإسلامية، باكستان.

٦٣ ـ الكشاف عن حقائق التنزيل للعلامة الزمخشري، دار المعرفة للطباعة والنشر.

٦٤ ـ لباب التأويل في معاني التنزيل للإمام الخازن، دار الفكر، بيروت.

٦٥ ـ لباب النقول في أسباب النزول للإمام السيوطي، دار إحياء العلوم، بيروت.

٦٦ ـ المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز للقاضي ابن عطية الأندلسي، ت: المجلس العلمي بفاس.

٦٧ ـ مذكرات القرآن للفراهي (مخطوط).

٦٨ ـ المستقصى في أمثال العرب للزمخشري، دار الكتب العلمية، بيروت.

٦٩ ـ مسند الإمام أحمد بن حنبل، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر.

٧٠ ـ مشكلات القرآن الكريم للشيخ محمد عبده، دار مكتبة الحياة.

٧١ ـ مفردات القرآن للإمام الفراهي مطبعة إصلاح، الهند.

٧٢ ـ مقدمة في أصول التفسير للإمام ابن تيمية، ت: عدنان زرزور.

٧٣ ـ الموافقات للإمام الشاطبي، ت: الدكتور دراز، الطبعة الثانية.

٧٤ ـ موطأ الإمام مالك، تصحيح وتعليق: محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء التراث العربي.

٧٥ ـ النبأ العظيم للدكتور محمد عبدالله دراز، دار القلم كويت.

٧٦ ـ نظرات في القرآن للإمام الشهيد حسن البنّا، مكتبة الاعتصام.

٧٧ ـ نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للإمام البقاعي، دائرة المعارف العثمانية، الهند.

٧٨ ـ نهج البلاغة شرح الشيخ محمد عبده، دار المعرفة للطباعة والنشر.

# الفهرس

* * * * *